TIGHT BINDING BOOK



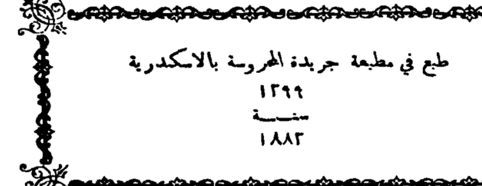
علم الدين

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا

الجزء الثالث



طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنـــة

١٨٨٢

*



بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة الثامنة والستون

عودٌ الى حكاية يعقوب

فقال يعقوب بعد ان دفع ذلك السائح ما دفعه وحصل التراضي بين سيدي وبينه بتنا تلك الليلة في البلد وبات يودعني من كنت اعرفه خصوصًا من كنت عنده وجميع اهل بيته فلما اصبح الصباح قمنا للسفر فركبنا قاصدين الساحل فلم نصله الاَّ بعد عشرة ايام شاهدنا فيها من حر الطريق ووعره مشقات عظيمة لان جميع الطرق بهذه البلاد قد تخللتها الجبال والغابات والبرك والاجمات فكنا نبيت تارة في بعض القرى وتارة في محلات اخرى خالية عن القرى وكان مع السائح اوامر واعلامات من لدن الحكومة

ومأمورون من قبل الملك فكنا اذا مررنا بقرية او حلة حصل
لنا من اهلها الاكرام والاحترام ولكن كان يحتف بنا اهلها يستغربون
صورتنا ويتأملون في هيأتنا فكان من معنا من المامورين بتوصيلنا
ينحونهم عنا واذا احتجنا الى شي بادروا به ودفع السائح ثمنه من عنده
وغير ذلك كان يعطي لمشائخ البلاد التي كنا ننزل بها بعض هدايا
مما يحب في تلك الجهات مثل قطع من قماش وشي من الخرز
واساور من زجاج وكانوا يهدون الينا بعض اشربة من الروم
والنبيذ وما زلنا سائرين حتى وصلنا مدينة (بوري) وهي محل
اقامة الملك المتصرف في جهات (سياد البونا) (اعني نهر جبال
السباع) وهي على بعد ثمانية فراسخ من مصب النهر المذكور في
البحر وكان خبرنا وصل اليه قبل قدومنا عليه فارسل لاستقبال
صاحبي السائح جماعة من امرائه وقواد عسكره فاستقبلونا بالبشر
والطلاقة مع التوقير والاحترام ومزيد الاكرام وساروا بنا الى ان
وصلنا اليه فوجدناه جالسًا على حصير وحوله امراؤه وحشمه وعلى
البعد منه بعض عساكره واهل بلاده فلما رآنا قام لنا وتلقانا ومد
يده الى السائح فصافحه وهز يده واجلسه بجانبه ثم سأله عني فاخبره
بقصتي وشرح له قضيتي وكيف خلصني ممن كنت معهم حتى
صرت معه فهنأني الملك ببعض كلمات انكليزية وكان يعرف
قليلاً من لغة الانكليز بسبب ان لهم بالقرب منه محلات للتجارة فيها
حاكم انكليزي كان يزور الملك لبعض حاجاته ويزوره الملك في

بعض الاحيان فتعلم بعض هذه اللغة بسبب المخالطة

ثم اهدى اليه صاحبنا السائح زجاجات من نبيذ وبعض اقمشة فكافأه عليها بعشر اواق من ذهب واربعة اعبد ثم استأذنه وقمنا فبتنا تلك الليلة بمحل قد اعد هناك للضيافة

وفي اليوم الثاني توجهنا الى محل حكومة الانكليز بهذه البلاد فوجدنا سفينة عتيد سفرها الى بلاد الانكليز الاَّ انها في انتظار اتمام حمولتها فاقمنا يومين الى ان تم وسقها فركبناها وحمدت المولى على قرب مسافة الانتظار وتخلصي من اهل تلك الديار وكان ما عندي من شدة الفرح بالعود الى الوطن والخروج من ارض الغربة والتخلص من هذه الكربة وشدة شوقي الى بلدي قد جعل عليّ مدة اليومين اللذين مضيا في الانتظار طويلة الى الغاية حتى كنت اتخيل انها اطول من مدة اقامتي في هذه البلاد كلها وهي اربع سنين فلم اكن في هذين اليومين يهدأ لي سر ولا يهنأ لي عيش حتى انقضت ونزلنا في السفينة كما ذكرت وسارت بنا فداخلني من الفرح والسرور ما لا اقدر على وصفه وعزمت على اني متى وصلت بلدي اقمت بها ورجعت الى صنعتي ورضيت منها بكل ما تيسر واقمت مع اختي الى ان يرزقها المولى بمن يتزوج بها ويغنيها عن الخدمة وتعبها

وكان ذلك الرجل السائح الذي كنت بصحبته لحسن طاعتي

له وقيامي بخدمته احبني والفني وجعلني عنده بمنزلة ولده وهكذا كان دأبه معي برًا وبحرًا سفرًا وحضرًا حتى انه نفعني كثيرًا بعد وصولي الى بلدي واقامتي بوطني كما اذكره لحضرتكم وطالما افادني مدة صحبتي له في السفر اخبارًا كثيرة مما شاهده في سياحته وعلمني امورًا كنت اجهلها ووصف لي كثيرًا من خواص حيوانات الافريقة ونباتها واشكال طيرها وعجائب الخلائق البرية والبحرية بها ولا يخفى على حضرتكم ان ارض افريقة على العموم بها من جميع انواع الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية كالاسد والنمر والفيل ما لا يوجد بغيرها وفي الجهات التي كنت بها كثير من هذه الحيوانات مأواها الغابات والصحاري واشدها واقساها السبع وهو في جهات (السني غال) و(غمبيا) عظيم الجثة مهول الخلقة كثير الجرأة ذو قوة عظيمة وبأس شديد فهو اعظم مما يوجد من هذا النوع في سائر الجهات كجبال الاطلس مثلاً

ولما خرجنا من الجهة التي كنت بها قاصدين جهة الساحل وجدنا في طريقنا بعد مسيرة ثلاثة أيام من قرية (تابو) غابة واسعة فيها اشجار عظيمة قد انطبقت اعاليها وتلاقت فروعها فكنا نراها كالقبة فوق رؤسنا وقد حجبت عنا اشعة الشمس فلم نكن نراها الاّ قليلاً نادرًا ولهذا السبب كان داخل هذه الغابة ابرد من خارجها وكنا في مدة سيرنا بها نسمع للسبع من جميع جهاتها اصواتًا مزعجة

حتى كنا نتخيل لشدة الخوف ان تحت كل شجرة سبعًا وكان من معنا من الحرس والخفراء يسرعون ويحثون على السرعة في السير خوفًا من اذاها ولكنا والحمد لله لم نرَ شيئًا منها وما زلنا نجد في السير حتى خرجنا من هذه الغابة قريب العصر وسرنا حتى امسينا على عين ماء هناك للمبيت فنزلنا عندها ومن عادتهم في تلك الجهة انهم اذا باتوا في الخلاء اوقدوا نارًا على البعد وتركوها للصباح لتنفير السباع والوحوش عنهم وكذلك فعل من كان معنا من الخفراء وبتنا على الخوف والخشية من الوحوش والسباع وكانت المسامرة تلك الليلة كلها في ذكرها فكان كل من الحاضرين يذكر ما سمعه او رآه من امرها وشرها

المسامرة التاسعة والستون

السباع

(من حكاية يعقوب)

فمما جرى ذكره في تلك الليلة ما حدثنا به بعض الخفراء وقد رأينا باحدى فخذيه اثرًا غائرًا في لحمه فسألناه عنه فقال هذا موضع اكل السبع وذلك اني خرجت مرة مع بعض اصحابي لنصطاد فيلاً من بعض الغابات فلما دخلنا الغابة تفرقنا فبعدت عنهم فقصدني سبع فتجلدت ورميته بحربة كانت معي فاصابته ولكنها لم تذهب بقوته فهجم عليّ بشدة وكان معي سكين ماضية فذبحته بها بعد ان انشب مخالبه في جهات من جسمي واقتطع من فخذي هذا قطعة عظيمة من لحمي فوقعت على الارض ووقع بجانبي ميتًا ثم حضر اصحابي فوجدوني جريحًا طريحًا على الارض والاسد بجانبي غريق في دمه فاحتملوني معهم وبقيت مدة من الزمن مريضًا الى

ان شفيت وقال اخر بينما انا سائر مرة في واد واذا باسد قد تعرض لي في الطريق وكنت وقتئذٍ لا سلاح معي فلما رأيته لصقت بالارض واشرت اليه اشارة المتذلل بين يديه فلما رأى مني ذلك اتى اليّ ودار مرة او مرتين حواليّ ثم تركني وانصرف

قال يعقوب وهكذا قضينا ليلتنا في امثال هذه الاحاديث والاخبار الى ان طلع علينا النهار فرحلنا وسرنا في طريقنا الى ان وصلنا الى الساحل كما ذكرنا وكان من جملة ما افادني ذلك السائح من خواص الحيوان ان لسان السبع غليظ خشن يعلو سطحه شوك دقيق كالسل الاَّ انه صلب مادته تشبه مادة القرن مائل الى جهة الخلف نحو الحلق وقد يبلغ طول الشوكة قدر اربعة خطوط فاذا لحس انسانًا او حيوانًا تجرح وسال دمه فتتحرك منه نهمة الاكل فيفترسه

قال ومن ذلك ان احد الفرنساوية كان اصطاد اسدًا صغيرًا فرباه حتى كبر عنده وكان لذلك الفرنساوي خادم يلاعب الاسد وينام معه وتارة يعطيه يده فيلحسها فنهاه سيده عن ذلك ونصحه فلم يرجع ولم يقبل نصحه فبينما هم نائمون ليلة واذا بالشبل قد عمد الى الخادم وصار يلحس يده بلسانه على العادة فسال الدم فلما رآه لم يتمالك نفسه فهجم على ذلك الخادم وافترسه فتنبه سيده فرآه كذلك ففر هاربًا واستغاث بمن حوله واجتمعوا عليه واطلقوا الرصاص على الاسد فقتلوه وللاسد في كل فك من فكيه اربعة

عشر سنًا اربعة اماميه واربعة من خلفها وستة اضراس في كل ناحية من شدقيه ثلاثة وعلى رقبة الذكر خاصة شعر ينتشر اذا هاج وهو لبدته ويقال ان الانثى من هذا النوع اقوى من ذكره وفي ارجله قصر بالنسبة لتركيب اعضائه وفي كل من الرجلين المقدمتين خمسة اظافر وفي كل من المؤخرتين اربعة وذنبه طويل وشعره خشن متلبد قصير وقد ضرب المثل بجرأته لانه لا يبالي بحيوان ولا يخشى من انسان قلّ او كثر خصوصًا اذا اشتد به الجوع فاذا لم يرد الهجوم والافتراس مضى في طريقه من غير اكتراس ولا مبالاة وليس من طبعه الفرار من عدوه مهما كان فان الجئ الى ذلك تقهقر قليلاً قليلاً مع البطء والتأني حتى يصل الى مكمن ينزوي فيه ويقال انه مصاب بحمى دائمة وان سبب ذلك التهاب دائم في دمه وزعم كثير من الناس انه لا يفترس المرأة وقال بعضهم ان ذلك لا اصل له ولكنه شوهد مرارًا كثيرة يعف عمن وقع تحت قبضته وخضع له من الادميين بل ربما شارك في طعامه من عف عنه ابقاء على حياته

ومن طبعه انه يحتمل العطش ثلاثة ايام او اربعة فاذا وقع على الماء شرب كثيرًا ومن طبعه ايضًا الخوف من الثعبان ويعلم ذلك منه العرب وسكان الصحراء فاذا وقع باحدهم جعل عمامته على صورة الثعبان ومدها على الارض فاذا رأى ذلك الاسد تركه ومضى

ويقال ان خيل العرب مع ما لها من القوة وخفة الحركة وسرعة الجري اذا رأت الاسد استولى عليها الرعب وعدمت الحركة فتثبت في مكانها ولا تقدر على السير فاذا رأى البدوي ذلك نظر الى جهة الاسد فان كان قريبًا نزل عن فرسه ونام على بطنه وترك فرسه للاسد فيفترسها الاسد وينجو هو بنفسه وان كان بعيدًا اوقد نارًا فاذا رآها الاسد مضى لسبيله وتركه

وتلد انثى الاسود اربعة فاكثر وليس لها غير ثديين وقد اعتاد الاعراب اخذ اولادها وهي صغيرة ليبيعوها للافرنج فاذا رأتهم اللبوة هجمت عليهم فيرمون لها بواحد منها فتحمله الى موضعها وترجع اليهم لتلحقهم وتاخذ بقية اولادها وفي هذه المدة يكونون قد نجوا بما معهم ومن طبع الاسد حفظه للود ووفاؤه بالعهد فاذا صنع احد معه معروفًا لا ينساه ابدًا

فمن ذلك ما اخبرني به بعض اصحابي . قال كان عند حاكم (سيار البونا) اسد ظهر على جسده بعض قروح اضرت بصحته واضعفت جسمه وكان هناك حكيم فأخذته الرأفة عليه والشفقة به فعالجه حتى برئ واندملت قروحه وتراجعت صحته وقوته فألفه واحبه وصار يطيعه وينقاد له ويتبعه كما يتبع الكلب المعلم صاحبه

المسامرة السبعون

ابن آوي

(من حكاية يعقوب)

قال ثم ان ذلك الحكيم مرض مرضًا مات فيه فظهر على الاسد الحزن حتى منعه من الطعام فمات ولم يعش بعده الاَّ قليلا وفي جهات سواحل افريقا غير ما ذكر كثير من الوحوش والقرَدَة والطيور العجيبة ذات الالوان اللطيفة والاشكال الظريفة وانواع الحيوانات الغريبة فلا يكاد يمر الانسان من جهة الى غيرها الاّ رأى من عجائب المخلوقات ما لم يكن رآه من قبل ومن جملة ما بها من الحيوانات ابن آوي وهو حيوان مفترس في جرم الثعلب وكأنما اصله من كلب وذئب لانه يشبهها خلقة وتركيبًا ولونه اصفر ناصع ولهذا سماه (فيتاوس) الكلب المذهب وبعضهم يسميه بالكلب الوحشي وانيابه غليظة في طول اصبع قوي الاظفار ذو قسوة

شديدة يفترس كل ما قدر عليه من انسان وحيوان وكثيرًا ما رأيته في البلاد التي كنت بها يقرب من مباني البلد ويدخل في بعض الدور ويأخذ ما وقع به من الغنم والخنازير ودخل ذات ليلة بيت جارية فاختطف منه بنتًا لها وحملها على عاتقه وجرى بها وكان يسندها باحدى قوائمه ويمشي على الثلاث مع السرعة والخفة فصاحت البنت فتنبهت الناس لصياحها فقاموا خلفه فرماها لهم ولم يجدوا بها الاَّ اثرًا صغيرا محل اظافره التي كان قابضًا بها عليها ويقال ان هذا الحيوان يهيء الصيد للاسد فيدور من جهة الى جهة ليبحث عن الصيد فمتى عثر به صاح باعلى صوته فيسمعه الاسد ويجاوبه ويلحقه وقيل ان ذلك لم يصح وانما الصحيح انه اذا جرى وراء طريدته فادركه الاسد شاركه فيما اصاب

وقد يتألب من هذا الحيوان في بعض الاحيان اربعون او خمسون فتنبعث للصيد وتأخذ في عواء شديد جهير واذا اتحدت وهي على مثل هذه الحال كانت مكافئة للوحوش الضارية في اجامها وتعرضت لاقواها ويساعد بعضها بعضًا في الصيد ونبش المقابر وهي تستكن نهارًا منفردة في احجارها وتجمع عند المساء سربًا وتغير على القرى للقتل والاغتيال وبين ابن آوي والكلب من العداوة ما لا صلح معه فلا يلتقيان مرة الاَّ سطا احدهما على الاخر

المسامرة الحادية والسبعون

النمر

(من حكاية يعقوب)

ومنها النمر وهو حيوان في جرم الكلب السلوقي ومنه ما يكبر ويعظم جسمه حتى يصير كالعجل وشعره ناعم براق منقط بنقط سود وراسه كراس الهر اصفر العينين حاد الاسنان خشن اللسان طويل الارجل والذيل قصير الشعر حاد الاظافر الى الغاية عظيم الجرأة يقدم علي الفيل ويهجم عليه وهو كالهر في غالب صفاته وافعاله وحركاته مع الشدة والشهامة كما انه يشبهه في شكل الجسم وان كان اكبر من القط في الحجم واكثره قوة وجرأة ما يوجد بافريقا والنمر لبسالته وزيادة قوته لا يصاد حيًا الاَّ نادرًا لانه اذا وقع في حبالة قلَّ ان يسلم منه صائده ولذلك يتخذون لصيده نبالا مسمومة السنان وهو يعدو علي الفيل فيمزق خرطومه باظافره

وانيابه فيموت لان خرطوم الفيل بالنسبة له كيده يتناول بها الغذاء وسلاحه الذي يدفع به عن نفسه الاعداء فاذا فقدت مات من عدم الغذاء وتسلط الاعداء ومع جرأة النمر وشدة قوته قد شوهد مرة من بعض الخنازير مقاومته بالكثرة فقد اتفق لبعض السائحين وكان يقتني الخنازير انه اصطاد نمرًا صغيرًا ورباه فعمد ذات يوم الى خنزير من تلك الخنازير ليفترسه ففر الخنزير منه الى مكان ضيق بحيث لم يبقَ للنمر سبيل عليه الاّ من جهة واحدة فتبعه النمر وضايقه فلما لم يرَ الخنزير الى الخلاص منه سبيلاً صاح على اخوته باعلى صوته وكانت منتشرة في نواحي البيت فلما سمعت هرعت اليه واحاطت بالنمر فلم ينجُ منها الاّ بالفرار فولى وتركها والنمر انواع متعددة يتميز بعضها عن بعض بالالوان والنقط وكبر الجثة وهو يستحب لحم ما عداه من الحيوان على لحم الآدمي ثم لحم السودان على لحم البيض والاوربيين لكنه اذا جاع لا يفرق بين ادمي وغيره والسودان ياكلون لحمه كما ياكلون لحوم الفَيَلة والاسود وغيرها وكثيرا ما يقتلون من يقصد الاتجار في جلده ويقال ان فيه قابلية للتعليم الى ان يصير كالكلب المعلم الاّ انه لا يوثق به لانه ربما يغلب عليه طبعه بعد حين ويقرب منه نوع يسمى القط النمري وهو كالنمر في طبعه ولونه الاّ انه اقل منه جسمًا ويكون في ارتفاع القط المعتاد الاّ انه اغلظ منه حجمًا وياكل الفار وابن عرس وغيرها ومنه نوع يعرف بالقياس بوصف

بصفات النمر الافريقي غير ان طوله قلما يجاوز ثلاث اقدام ونصفاً الاّ ان شعره اطول وكذا ذنبه بالنسبة الى جثته ولونه ما بين الصفرة والبياض ولكن بطنه اشد بياضاً من ظهره ونقطه كالنقط التي في النمر وضعاً وتوشك ان تصير على مؤخره خطوطاً وهو من الحيوانات المفترسة الاّ انه لا يتعرض للآدمي الاّ ان تعرض له ولم يمكنه الفرار منه فعند ذلك يثب عليه وينشب مخالبه في وجهه ويكرر ذلك مراراً حتى يقتله وبين هذا الحيوان والكلب عداوة شديدة فمتى رآه بادر الى الهجوم عليه ليفترسه وياكل من لحمه ولو مع اقتحام المخاوف والتعرض للتلف وقد يدرب في بعض الجهات ويغرى بالصيد ولكنه ليس له قوة شم حادة كما للكلب ويقال ان بعضاً من هذا النوع ربي تربية حسنة حتى كان يؤخذ باليد ويحتضن

المسامرة الثانية والسبعون

القِرَدَة

(من حكاية يعقوب)

وهناك حيوانات غير ما ذكر متوحشة كالذئب والخنزير وغيرها وكلها تشبه في شكلها وتركيب صورتها ما يوجد منها في سائر البلاد الاّ ان الموجود منها في افريقا اعظم جسماً واشد توحشاً وأكثر عددًا ويوجد في غاباتها من الحيوانات المتوحشة الجاموس والبقر الا انها اقل وجودًا من غيرها وقد يكبر الجاموس عندهم حتى يصير كالفيلة وان تعرض له احد بالاساآة هجم عليه فان لحقه داسه بارجله واتلفه ومن طبعه انه يحب الماء حبًا زائدًا ولحمه مستطاب لذيذ واما البقر فيهرب من الانسان ويسكن الغابات ويتناسل فيها فيكثر عدده الى الغاية فيأتي اهل تلك الجهة

وياخذون منه كثيرًا ولولا ذلك لضاقت عنه الارض وهناك من
نوع الظبا كثير واكثر وجوده بجهة (امندا) والساحل وهو انواع
ومنه نوع يداه اقصر من رجليه ويشابه الجمل في ذيله وراسه
ووبره وحول اجفانه دائرة من الشعر سوداء كاعين الايل وصوته
كصوت المعز ويقبل التاليف والتربية ومما يكثر وجوده في تلك
الجهات الايل وله اوقات معلومة يخرج فيها للمرعى قطائع متجمعة
تسافر من شمال نهر (السينجال) الى جهة جنوبه في طلب المرعى
واهل تلك الجهة يعرفون اوقات رجوعها فيستعدون لاصطيادها
بان يضرموا النار في الحشيش من جميع الجهات ما عدا جهة
النهر ويقف جماعة منهم بشاطئ النهر فاذا رأت قطائع الايل النار
قد احاطت بها من كل جانب فرت الى جهة النهر فيقوم عليها
الذين كمنوا لها هناك فيقتلون منها ما يقتلونه وياخذون بالحيوة ما
ياخذونه وما يذبحونه يجففون لحمه في الشمس لياكلوه وجلده
ليبيعوه للاوربيين او غيرهم وقد اخبرني ذلك السائح الانكليزي
انه رأى هناك حيوانًا صغير الجثة في قدر خنزير مضى عليه سنة
من عمره شعره ابيض قصير دقيق صلب وراسه كراس الدب
وعينه ضيقة ذات لمعان وله اظافر حادة يصعد بها الشجر وياكل
من ثمارها ويقيم بين اغصانها وهو بحري بري يعيش في الماء وفي
الهواء فلهذا يرى دائمًا فوق اغصان الاشجار بالقرب من شواطئ

الانهار والسودان يصطادونه وياكلونه

وليس هناك اكثر من القرَدة عددًا وانواعًا ولا اعجب منها طباعًا وتسرح متجمعة قطائع عظيمة قد يبلغ عدد القطيع الواحد منها ثلاثة الاف فاكثر ولا يمشي واحد منها الاّ مع ابناء نوعه ويقال ان لكل قطيع منها رئيسا تطيعه وتنقاد له وحرسا يرتب من اعظمها جثة وقوة وانها اذا سارت يكون الرئيس امامها والحرس خلفها والانثى تحمل ولدها تحت ابطها فان كان لها اكثر من واحد حملت ما بقي على ظهرها وسارت بها

وفي هذا النوع من الحذق والخفة والقوة والجرأة ما يقضي منه العجب ولا يوجد في كثير من الحيوانات فقد رأيتها حين عودتنا مع السائح الانكليزي وهي فوق الشجر تثب من غصن الى غصن ومن شجرة الى شجرة كانها فوق الارض ولها اصوات مختلفة منها الرفيع ومنها الغليظ وما بين ذلك ولكنها كانت تارة تصيح دفعة واحدة فيظن من لم يرَها انه صوت واحد منها وقد يسمع لبعضها في جوف الليل صوت عال يعلو جميع اصواتها فتسكت جميعا برهة من الزمن ثم ترجع الى ما كانت فيه وكنت رأيت هناك بيوتا صغيرة كثيرة العدد مصنوعة من اغصان الشجر قليلة الارتفاع عن وجه الارض متجاورة فسالت عنها بعض الحرس الذين كانوا معنا فاخبرني انها بيوت للقرَدة تتقي بها حر الشمس وضرر العوارض

وكل ما رأيته من القرَدة له ذيل ولكن اخبرني بعض السائحين ان منها ما لا ذيل له والقرَدة انواع فمنها نوع صغير الجثة غير مؤذ وصوته يشبه بكاء الاطفال ونوع اكبر منه خلقة وضرره كثير وفيه بعض فطنة وله حركات واشارات تقرب مما للآدمي من ذلك فضلاً عن الايدي والارجل حتى ان السودان يعتقدون ان في امكانه النطق وانما يمنعه من ذلك خوفه من ان يكلف الاعمال الشاقة كالآدمي وضرره على المزارع كثير ومن عادته انه اذا اراد الدخول في مزرعة من مزارع الارز او الذرة اجتمع منه نحو الاربعين والخمسين وصعد كبيرها على شجرة لينظر الى كل جهة والبقية تدخل في الزرع وتجمع ما شاءت فاذا لمح الذي على الشجرة صاحب الزرع او غيره مقبلاً الى جهتهم على بعد صاح صيحة مهولة فياخذ كل واحد ما جمعه ويصعد به الى شجرة ولا يزال يثب من غصن الى اخر ومن شجرة الى غيرها واذا كان فيه انثى ذات اولاد اخذتها وصعدت بها كذلك وفعلت فعل البقية حتى يتخلص الجميع ولا يحصل صاحب الزرع الاَّ على الاسف ولذلك كانت كراهة السودان لهذا النوع اشد منها لغيره

ونقل بعضهم عن اهل تلك الجهة ان القرَدة كثيرا ما تختطف بنات صغيرة في نحو تسع سنين من العمر وترفعها الى اعالي الاشجار وتبقيها عندها ويصطاد السودان من القرَدة في كل سنة عددًا

كثيرًا ويأكلون لحمها ومن طرقهم في اصطيادها من فوق الشجر ان يخدشوا وجوهها بعصي او رماح طويلة فاذا فعلوا بها ذلك تركت الاغصان التي هي متعلقة بها ووضعت يديها على محل الجرح فتسقط على الارض فياخذونها وبالجملة فاستيفاء الكلام على هذا الحيوان على مثلي متعسر وتفصيل انواعه وافعاله وطباعه غير متيسر وما من احد الاّ رأى كثيرًا من افراده ويعلم هيأتها واشكالها وبعض احوالها وانما اقول لحضرتكم ان الذي رأته من عادتها اللازمة لها ان افراد كل جنس منها تكون مع بعضها ولا تختلط بغيرها ومنها نوع يعيش في الغابات ولا يفارقها وهذا النوع اسود الوجه ما عدا الخد فانه ابيض وفي ذقنه شعرات قليلة كاللحية ولون جسده يضرب الى الزرقة او البياض او يكون منقطًا بنقط زرق او بيض او حمر ومنه ما نكون هائل المنظر والسودان ياكلون لحمه فيجففونه ويدخلونه في طبيخ الارز ويزعمون انه من احسن الاطعمة وانت خبير بان مجرد منظره كافٍ في تغير المعدة ومنه جنس يوجد في بعض اعضائه نوع شبه لاعضاء الآدمي كالوجه والاذان والذراع وقصبة الرجل والكعب وغير ذلك وكثيرا ما يرى ماشيًا على رجليه الخلفيتين منتصب القامة حاملا لاثقال عظيمة ويبلغ طول هذا النوع خمس اقدام وهو عبل الذراعين ضخم الجثة قوي البنية الاّ انه قليل الاذى لين الجانب ياخذه بعض

الناس صغيرًا فيعوده على بعض الخدمة والعمل فيحمل آنية الماء على راسه منتصبًا ويدير الرحى ويملأ الاواني من ماء الابار والعيون والانهار ويشوي اللحم الى غير ذلك من خدم يعود عليها ويعلمها فيعلم ويعود على ما يراد منه من صغره ولا يؤخذ للتربية الاَّ في صغره وهو في حال توحشه صعب الانقياد شديد القوة يغالب الرجل فيغلبه ويقلع عينيه ويفعل به افعالاً قبيحة تؤدي الى تلفه وكثيرا ما يقع بين القرَدة محاربات شديدة تؤدي الى قتل بعضها بعضًا

المسامرة الثالثة والسبعون

سنور الزباد

(من حكاية يعقوب)

وهناك من الحيوانات قط الزباد او سنور الزباد وقد يقال له قطة المسك ويوجد كثيرًا بين جبل (الاطلس) و (السينجال) وفي ولاية (ناطيا) من ارض الحبش وولاية (كوجا) فوق (سيالبونا) وقد اختلف الطبيعيون في صفة هذا الحيوان فزعم بعضهم انه نوع من الضباع وقال انه في شكل الضبع وقال اخرون انه في حجم الكلب وله خرطوم رفيق الطرف وفي عينيه واذنيه ضيق وله شوارب كشوارب القط وله ذيل غليظ يشبه ذيل الثعلب وعلى ارجله شعر طويل اسود وله في كل رجل خمسة اظافر سود مستقيمة حادة وهو من الحيوانات المفترسة وجرجه مضر

فاذا اراد الصيادون صيده حفروا له حفرةً في طريقه فيقع فيها فياخذونه ويضعونه في اقفاص من خشب ونحوه ويطعمونه لحما نيئًا قطعوه له قطعًا صغيرة ومادة الزباد من هذا الحيوان تجتمع تحت ذيله في غشاء كالكيس نحو ثلاث اصابع طولاً واصبعين ونصف عرضًا وداخله اغشية متعددة ومن داخلها تلك المادة ويوجد هذا الكيس في الذكر عند دبره وفي الانثى عند فرجها وفي الغالب يصاد هذا الحيوان في صغره فيوخذ ويربى وتؤخذ منه تلك المادة وكيفية اخذها منه انهم بعد ان يصطادوه يضعونه في شي كالقفص ثم يأتون اليه كل يومين او ثلاثة فيزعجونه بعصي او نحوها حتى ينزوي في ركن من اركان القفص فيقبضون على ذيله ويسحبونه من بين عيدان القفص بعنف وشدة فيمسك الحيوان برجليه الخلفيتين في القفص بكل قوته فعند ذلك يوضع تحت بطنه شي يمنعه الحركة وحينئذٍ يسهل اخذ المادة منه فياتون بشيء كالملعقة فيدخلونها في ذلك الكيس وياخذون ما تجمع من تلك المادة بالاتكاء على غشاء الكيس وغاية ما يستخرج من تلك المادة كل مرة درهم ونصف او درهمان وهذه المادة تكون في اول امرها بيضاء مشوبة ببعض زرقة ثم تشتد بياضًا ورائحتها على البعد الطف منها على القرب لانها اذا كانت قريبة كانت مصدعة لقوتها ولذلك كان تجار الاعطار يخلطون بهذه المادة غيرها فتعتدل رائحتها ومن هذا الحيوان في بلاد الفلمنك كثير ولهذا السبب كان اكثر ما

يجلب من الزباد الى بلاد الانكليز والفرنسيس وغيرهم واردًا من الفلمنك وغالب قوت هذا الحيوان عند من يصطاده البيض واللبن ويقولون انه اي هذا القوت يصفي بياض المادة المستخرجة منه ولذا كان المجلوب من بلاد الفلمنك اشد بياضًا من المجلوب من افريقا واسيا لان قوته في هاتين الجهتين اللحم خاصة ويوجد هذا الحيوان ايضًا بكثرة ببلاد الهند الاَّ ان ما يؤخذ منه لا يساوي ما يؤخذ من حيوان جهات الفلمنك لان زباد هذا اعلى وثمنه اغلى والمشتغلون بتجارته يرسلونه الى البلاد البعيدة فيربحون فيه ارباحًا كثيرة ومن يقتني هذا الحيوان في تلك الجهات ينفق عليه نفقات كثيرة وذلك لانهم لا يطعمونه الاَّ لحم الدجاج والطير واوان اصطياده الصيف حين تكون اشجار الغابات كثيرة الاوراق ويبلغ ثمن الواحد منه نحو اثنى عشر شلينا انكليزية وغذاؤه في حال صغره ثريد يعمل له من لحم طير او سمك مطبوخ مع ذرة ويستحب اقتناء الذكور من هذا الحيوان على الاناث لان زباد الذكور احسن واجود فانه في الانثى كثيرا ما يصل اليه بولها فيغيره

---

*

المسامرة الرابعة والسبعون

الوصول الى باريس

قال ناقل الحديث فلما وصل يعقوب الى هذا الموضع من كلامه كانوا قد قربوا من مدينة باريس فقال الانكليزي انه يوجد في ارض أفريقة وفي الجهات التي كان بها يعقوب غير ما ذكره حيوانات كثيرة هائلة الخلقة ومؤذية منها الافعى والتمساح وفرس البحر وانواع غيرها من الحيوان قد وصفها السائحون في كتبهم فمنها ما يسكن في البر ومنها ما يسكن في البحر ومنها ما يعيش فيهما جميعا وفيها من الاعشاب والنباتات ما ليس في غيرها وكنا نحب ان نسمع منه بقية ما شاهده هناك ورآه وما سمعه ممن اجتمع عليهم من اهل تلك البلاد ولكن حيث اشرفنا على باريس فنكتفي منه الان بما سمعناه ونستوفي الكلام في وقت اخر

فقال الشيخ لقد قطعنا الطريق بهذه المحادثات اللطيفة بحيث لم نشعر بطول المسافة واستفدنا في ضمنها فوائد كثيرة من معرفة احوال تلك البلاد وما فيها من انواع المخلوقات وغرائب احوالها وبودي لو عرفت ما حصل لاخت يعقوب بعد غيبته عنها وكيف كانت حالتها ومعيشتها بعده•

فقال يعقوب ان قصة اختي كقصتي بل اغرب وغصتها بعد فراقي لها كغصتي واصعب وساشرح لكم ما قاسته بعدي من المشقات والمصائب وانواع المحن والشدائد حتى اضطرها الحال الى قطع النظر عما يستدعيه سنها من اللذات والشهوات الدنيوية فاعرضت عن الدنيا وما فيها ودخلت ديرًا من ديور الراهبات وترهبت فيه الى ان ماتت ولم ارَها وبينما هم في هذا الحديث واذا بالوابور وصل الى موقف سكة الحديد بباريس فنزلوا به وذهب يعقوب فاحضر لهم عربة فركبوا جميعا وساروا الى لوكندة قد سماها الانكليزي ليعقوب فاخبر بها العربجي فاوصلهم اليها بعد نصف ساعة فكان الشيخ مدة سير العربة ينظر الى ازدحام الناس في الطرقات وكثرة الدكاكين وحركة التجارة وهيئة المنازل وانتظامها ورونقها ونظافة الطرق وبهجتها ويتعجب في نفسه من حسن ذلك كله وكذلك ابنه كان لا يصرف نظره من شباك العربة حيث رأى بشوارع باريس احسن مما رأه سابقا بمدينة مرسيليا فلما وصلوا الى اللوكاندة نزل يعقوب من العربة واخذ بيد الشيخ فنزل وكذلك

نزل الانكليزي وبرهان الدين ودخلوا فقابلهم الخادم وذهب بهم
الى حجرات لائقة بامثالهم فلما اطمأنوا في مجالسهم امر الانكليزي
باحضار الطعام فاكلوا وشربوا القهوة وجلسوا برهة لطيفة في
محادثات خفيفة وكان ذلك قبيل الظهر فقام كل الى محله المختص
به ليزيل عنه اثر السفر ويخلع ما عليه من الثياب ويلبس ثيابا
اخرى وبالجملة قام الشيخ الى حجرته فاستراح ورقد برهة ثم قام
فتوضأ وصلى وغير ثياب السفر وكذلك فعل ابنه واختار برهان
الدين احسن ثيابه وقعد في انتظار يعقوب ليخرج للتفرج في المدينة
فلما علم والده منه ذلك قال له يابني ان خرجت الآن بهذه الهيئة
حدق الناس اليك بابصارهم واحتاط بك كل من مررت به
من رجالهم ونسائهم واطفالهم وربما كان ذلك لأدبك مانعا لك
عن بلوغ اربك فالاولى ان تصبر حتى نعرف رأي صاحبنا فهذه
بلاده وهو ادرى باحوالها ونحن فيها اغراب فقال برهان الدين
الراي ما تراه وسكت ثم حضر عندهما يعقوب وهناهما بالسلامة وقال
لهما ان الانكليزي امره ان ينظر الشيخ هل قام من النوم وهل ينشط
لملاقاته فيأتي اليه ويسلم عليه ام يؤخر ذلك برهة فشكره الشيخ
واثنى على اخلاقه وذكر معروفه وقال له انه يحب ان يراه فليحضر
على الرحب والسعة ان احب فرجع يعقوب الى الانكليزي واخبره
بما قال له الشيخ فقام الانكليزي وحضر الى الشيخ فتلقاه بالترحب
واخذا يتجاذبان اطراف الحديث من بعيد ومن قريب فقال

الانكليزي ان هذه المدينة من احسن مدن الدنيا واعظمها لحسن نظامها وكثرة ما فيها من المباني اللطيفة والاشياء الظريفة فان استحسن الشيخ جعلنا لنا في كل يوم وقتا للتفرج عليها والوقوف على كل شي على حدته واريد ان احصل رخصة للدخول في المحلات الشهيرة التي لا يباح الدخول فيها الاَّ بالاذن فقال الشيخ انت ادرى ببلادك وانا على رايك ومرادك فما وافق اتيناه وما لم يوافق ابيناه ولا ترى منا الاَّ طاعة الرفيق الموافق للخل الصادق وعندنا من الشوق الى معرفة احوال هذه المدينة العظيمة والوقوف على احوال اهلها وتعرُّف ما بها من الآثار الباهرة وروائع الصنائع الزاهرة ما تشتد به حاجتنا الى استطلاع ما عندك واتباع رايك والوقوف عند اشارتك لا سيما وقد رأينا من معروفك ومحاسن اخلاقك واستفدنا من فوائدك ما نقدر قدره ولا ننسى اثره ولا نهمل ذكره ونسال الله ان يتولى هدايتنا جميعًا الى طرق الرشاد ويكافئك على حسن هذا الصنيع فهو القادر على ما اراد

فقال الانكليزي اني ارى من الواجب عليّ وجوب الفروض اللازمة ان ابذل اقصى جهدي وغاية ما عندي في استجلاب رضاكم وادخال السرور عليكم حيث كنت السبب في تغربكم الى هذه البلاد ومفارقة الاهل والوطن والاولاد وتحمل متاعب السفر فلا هم لي سوى الاشتغال بما يخفف عليكم مشقة الغربة وصعوبة الفراق بالاطلاع على ما تحبون الاطلاع عليه من احوال هذه البلاد

وتحصيل ما يتعلق به اغراضكم ومقاصدكم وما يكون فيه سروركم وتنشرح به صدوركم فارجوك الاّ تحـاشى من طلب شي تريده فذلك غاية مرادي وبغية فوادي وحيث كانت هذه بلادنا وانت فيها غريب فان رأيتم فيها شيئًا تحبون الوقوف على حقيقته فاسئلوا عنه فان كان عندي فيه علم ابديته لحضرتكم والاَّ سألت عنه من يعرفه واخبرتكم به ونحن نحتاج الى الاقامة في هذه الحاضرة مدة من الزمان لقضاء بعض اغراض تلزمني فنصرف اوقات الفراغ من هذه المدة في التفسح في ميادين المدينة ومنتزهاتها والتفرج على مبانيها وعماراتها الشهيرة والمسامرة في احوالها وتواريخها وحوادثها القديمة والحديثة

فقال الشيخ لا عدمت معروفك وغاية مرادي ان اقضي هذه المدة في استفادة ما عساه يكون فيه منفعة اوطاننا وفي نيتي ان اكتب مجموعًا اضمنه كل ما اراه واستحسنه في هذه السياحة في كتاب ليكون تذكرة لي اذا عدت الى سكني وطرفة مجلوبة الى اهل وطني

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرتكم ما حصل من اهل مرسيليا حين كنا بها من تجمعهم عليكم واحاطتهم بكم حين رأوكم في الهيئة المصرية فان كنتم تتضررون من ذلك فلا بأس بالتزيي بزي هذه البلاد مدة الاقامة بها لتتشبهوا باهلها وتختلطوا بهم

فقال الشيخ لا ضرر عليّ من تجمعهم بل ربما كان فيه فائدة

زائدة وذلك لاني اتمكن حينئذٍ من رؤيتهم والتامل في ذاتهم وهيأتهم والوقوف على احوالهم وعاداتهم على ان بقائي بهذه الهيئة ربما كان سببًا في الرعاية والتوقير اذ من العادة الجارية كثرة احترام الغريب وتوقيره والتجاوز عما عساه يحصل من تقصيره فالاوفق بنا البقاء على ما نحن فيه لا سيما ونحن اذا غيرنا هذه الملابس التي اعتدنا عليها من صغرنا ولم نعرف غيرها في عمرنا احتجنا الى مدة من الزمن للتعود على تلك الهيئة الجديدة واتقانها

قال الانكليزي ذلك اليك ونعم ما رأيت وما عرضت عليك هذا الامر الاَّ لاني خطر ببالي ان ذلك ربما يكون من اغراضك فاسعى في تحصيله واذ لم ترد ذلك لنفسك فهل تأذن فيه لبرهان الدين

قال الشيخ امر برهان الدين اليه فنسأله عما يريد لنفسه وان كان بقاؤه على هيئته الاصلية احب اليّ فاني كلما رأيته تذكرت الوطن واهله وصرت كاني لم افارق وطني

فقال برهان انا ايضًا احب ان ابقى على هذه الهيئة ولا ضرورة لتغييرها اذ لسنا على نية التوطن بهذه البلاد ودوام الاقامة بها وانما نقيم فيها مدة يسيرة لا تحوج الى ذلك ولو غيرنا ملابس بلادنا في هذه الحاضرة للتخلص من تزاحم الناس علينا لزمنا لهذا الغرض ان نغيرها في كل جهة انتقلنا اليها فان الملابس والهيئات تختلف باختلاف الجهات

فقال الانكليزي الامر اليكم واخبركم اني قد اكتريت عربة وجعلتها تحت امركم وخاصة بكم فمتى اردتم الخروج الى شوارع البلد او ظاهرها فمروا يعقوب ان يحضرها لكم فان لم اكن معكم لبعض موانع قد تعوقني عن الانتظام في سلك صحبتكم في بعض الاحيان فهو يلازمكم ويقوم بكل ما يلزم لكم ثم استأذن وانصرف الى حجرته وكذلك انصرف يعقوب الى محله وبقي الشيخ وابنه وكان الشيخ قد اعتراه بعض تعب من ارتجاج العربة وطول القعود بها فاحب ان يريح بدنه فقال لولده اذا جاء الانكليزي وسأل عني فاخبره انني لا رغبة لي في الخروج في هذه الليلة ثم تحول الى فراشه لينام فقام ولده واغلق عليه الباب وذهب الى حجرته الخاصة به فلم يجد له صبرًا على المكث بها وحده خصوصًا وقد كان مغرمًا بسماع بقية حكاية يعقوب وبالتفرج على شوارع المدينة وما فيها فخرج من حجرته وذهب الى محل يعقوب وقال له ان الوالد كان وعد بالخروج في هذه الليلة ثم اثر الاستراحة بسبب ما وجد في نفسه من مشقة السفر فهل ترى ان نخرج وحدنا او نقيم الليلة فقال يعقوب لا ينبغي ان نخرج الاَّ باذن فالصواب ان نصبر الى اخر النهار ثم نستأذن بعد الطعام ونتوجه اما الى التياتر واما الى البالو

فقال برهان الدين اما التياتر فقد رأيته وعرفته حين كنا بمرسيليا واما البالو فلا اعرفه فما هو

فقال يعقوب البالو محل يجتمع فيه كثير من الرجال والنساء

يلبسون فيه احسن ملابسهم ويرقصون مع بعضهم على نغم الآلات الموسيقية فقال برهان الدين لا بأس برؤية هذا المحل ولكن احب في هذه الليلة الاقتصار على المرور في البلد ورؤية شوارعها ومبانيها وفيما بعد اذا وجدنا فرصة حملنا الخواجا على الذهاب اليه وتوجهنا معه فاتفقا على ذلك وانتظرا تحصيل الرخصة وانتهاز الفرصة ثم ان برهان الدين قام من عند يعقوب ورجع الى مخدعه واخذ كراسة وصار يكتب ما علق بذهنه مما حكاه يعقوب في اثناء الطريق وضم الى ذلك ما حضره مما كان يشاهده بنفسه عند المرور ببعض الجهات واستمر على ذلك الى قبيل الغروب ثم قام وتوجه الى محل والده فوجده قائمًا يصلي فصلى خلفه فلما تمت الصلاة وما يتبعها حكى له ما اتفق عليه مع يعقوب وطلب الاذن فأذن له واوصاه ان يعود عاجلا ليريح بدنه كذلك من تعب السفر وقال له الايام بيننا وما لم نرَه في هذه الليلة سنراه فيما بعدها فقابل قول والده بالسمع والطاعة وعزم على الرجوع سريعًا بقدر الاستطاعة وحضر الطعام فاكلوا وبعد ذلك خرج مع يعقوب الى شوارع البلد ونواحيها

---

*

المسامرة الخامسة والسبعون

لمحة

في باريس

فعجب من حسن نظامها وكثرة العالم بها وسعة شوارعها وتنظيمها وحركة التجارة بها ومن زخرفة محلات التجار ونظافتها وحسن بهجتها وكان ينتقل من مكان الى مكان ومن دكان الى دكان ويقف عند بعض المحلات فيسرح فيها طرفه وينظر لما فيها من انواع البضائع النفيسة ويشرح له يعقوب كل ما سأل عنه من هذه البضائع ويذكر له اسمه ونوعه وجنسه والجهة التي يجلب منها وكانا كلما وقفا على دكان او خان احتاط بهما كثير من الناس من نساء ورجال ينظرون لهيئة برهان الدين وملبسه وكان هو ايضًا ينظر اليهم والى هيئاتهم وملابسهم ويقارن ما رآه هنالك بما

كان يراه وهو بمصر فلم يجد بينهما نسبة وما زالا ينتقلان من دكان الى دكان ومن خان الى خان الى ان مضى عليهما من غروب الشمس نحو اربع ساعات ومع ذلك كان يرى العربات متوالية مع السرعة والكثرة بحيث كانا اذا ارادا الانتقال من محل الى غيره مكثا زمانًا طويلاً ينتظران فرجة يمرون منها ورأى ضوء المصابح الغازية المنتشرة في الطرقات قائمًا مقام نور القمر او ضوء الشمس بحيث يمكن فيه قرأة الخط الدقيق ونقد الدراهم بغير عسر ولا صعوبة وكذلك رأى ضوء المصابح الغازية في الازقة والحارات يزداد بما يصل اليها من ضوء مصابيح الدكاكين وغيرها لانه ما من دكان او محل قهوة او خان الا كان امامه عدة من المصابيح نحو الخمسة او الستة او اكثر فكانت اشعتها تنبعث امامها وتزيد البضائع الموضوعة خلف الزجاج حسنًا ورونقًا وكذلك كانت اشعتها تنعكس في المرايا المركوزة في الطرق كما ان هذه المرايا كان ينعكس فيها ايضًا صور كل ما قابلها او مر امامها من الناس والعربات وغيرها فيرى فيها الرائي صورًا مختلفة واشكالاً متنوعة فمضى على برهان الدين الزمن من غير ان يشعر وذلك لاشتغال حواسه بما كان يراه من الاشكال المتنوعة والصور المتجددة واستغراق خاطره في التامل والاستغراب والاستحسان لما يراه من حسن الرونق وانتظام المنظر بحيث يتخيل الرائي ان المدينة في زينة مرتبة الخصوص لامر عظيم او موسم حاضر وكان كلما قطع مسافة رأى

فيما بعدها شيئًا لم يكن رآه وكان يتامل في الدكاكين وحواصل التجار ويعجب من حسن انتظامها وسعتها فيجد النسبة بينها وبين ما كان يراه في القاهرة منقطعة والمقارنة ممتنعة لانه رأى الدكان في باريس عبارة عن محل عظيم يشتمل على عدة محال بعضها من داخل البعض منها ما هو مفروش بالرخام ومنها ما هو مفروش بالبسط النفيسة ومنها ما بعضه من هذا وبعضه من هذا وابوابها محكمة التركيب مليحة الوضع مصنوعة من الخشب الثمين كخشب الجوز والبلوط والفرغاج ونحو ذلك مدهونة بالوان تسر الناظرين وتجذب قلوب المارين مقسمة بالواح الزجاج او البلور حتى لا يحجب شي مما بداخلها عن نصر كل من يمر بها والبضائع فيها مرتبة حسن ترتيب مصفوفة على الرفوف مع كمال الاتساق وحسن الوضع بحيث تستدعي لشرائها كل من يمر بازائها وفي كل دكان نساء حسان الوجوه متجملات باحسن الملابس والطف الهيئات مستعدات لعرض ما يلزم عرضه او بيع ما يلزم بيعه فترى الشاري لا يضطر للوقوف في الطريق امام الدكان واطالة الكلام بغير طائل بل يدخل ويطلب ما اراد من البضاعة مع اللطف والادب وعدم رفع الصوت فاذا وقع الاتفاق على الثمن أدّاه واخذ ما اشتراه في ورقة او ربطة لطيفة تلفه فيها احدى النساء اللاتي في الدكان فان بدا له عدم اخذه معه واراد ارساله الى منزله فليس عليه الاّ ان يعرف البائع نمرة الدار ونمرة المحل الذي هو مقيم .

ثم يذهب الى سبيله ويصل ما اشتراه الى محله وفي هذه الحالة
لا مانع من دفع الثمن في الحال او ابقائه الى ان يرسله صحبة من
يذهب بالبضاعة لان ذلك امر جارٍ بينهم ومعتاد لهم وما زال
برهان يسير مع يعقوب ويتفرج وهو مبتهج بما يراه مشغول الخاطر
بالتأمل فيه ويعقوب يشرح له ويوضح الى ان وصلا الى باب كبير
فرأى امامه مصابيح كثيرة منورة بالغاز ومن داخل الباب زقاق
مستطيل اسفله مفروش بالرخام واعلاه مستور بالزجاج وفي
جانبيه دواليب مدهونة باحسن الالوان فيها نقوش لطيفة وصور
ظريفة ورأى في كل جانب خلقاً كثيراً من رجال ونساء كلهم
مشتغلون بترتيب بضائع متنوعة يضعونها في صناديق وعلب كثيرة
وكان المحل يضيء بمصابيح الغاز المنتشرة في جميع ارجائه فمالت نفس
ابن الشيخ الى دخوله فدخله هو ويعقوب فوجداه ابهج من جميع ما
رأياه والطف وفي داخله طرق نافذة بعضها الى بعض فسلكا في
في احداها فوجد كل منهما صورته منطبعة امامه في مرآة مستوعبة
لجميع عرض الحائط وارتفاعه حتى يظن السالك انها نافذة وان
هذه الصور اشخاص تسير الى جهته فرجعا واخذا في مسلك أخر
ومنه الى غيره وكان في كل جهة دخلاها من هذا المحل جملة من
الناس يشتغلون بتصفيف البضائع وتنظيمها ووضعها في الصناديق
والعلب وكان كل من هولاء الناس ينظر اليهما مع السكون
والوقار من غير ان يفارق محله او يترك شغله ولم يريا هناك بيعاً

ولا شراء ولا اخذا ولا اعطاء فتعجبا من عظم هذا المحل وسعته وحسن زخرفته وارادا الرجوع من حيث دخلا فاخطأا الطريق وصارا يترددان من جهة الى جهة ومن طريق الى طريق ولا يعارضهما احد الى ان ظهر عليهما انهما اخطأا الطريق فتقدم اليهما فتى قصير القامة فحياهما باحسن تحية وكلمهما باللغة العربية وسألهما عما يريدان فقال له يعقوب ليس لنا غرض سوى التفرج وقد ضللنا الطريق ولا ندري كيف نخرج وقد تحيرت افكارنا لما شاهدناه في هذا المكان من كثرة اصناف التجارة فانا ما سلكنا في جهة من جهاته الاّ وجدنا فيها جماعة يشتغلون بترتيب اشياء من اصناف التجارة غير ما كنا رايناه من قبل فاي محل تجارة هذا

فقال الرجل هذا المحل قد بني في عهد قريب وهو خاص باثنين اخوين بني من مالهما فلما اكملا بناءه سمياه باسم مدينة باريس وجميع ما فيه من البضائع انما هو من مالهما خاصة لا يشاركهما فيه احد من الناس وفيه من جميع اصناف التجارة جليلها وحقيرها فلا يكاد يسأل الطالب عن شيء الاّ وجده فيه فمن ذلك الكشميري الثمين من شغل الهند واقمشة الحرير من عمل اهل الصين والهند والفرنسيس وغيرهم واقمشة الكتان والقطن على تعدد اشكالها وانواعها والبسط العجمية على تنوع اوضاعها وآنية الفضة والذهب وحلي الجوهر الى غير ذلك وهذه الانواع منها ما يباع على تجار البلد للبيع في داخل المدينة ومنها ما يرسل الى بلاد المشرق وبلاد

المغرب والترك واسيا الصغرى والكبرى وبلاد الغرب والاقطار الحجازية وبلاد الانكليز وغيرها فما من جهة من هذه الجهات الاّ ويرد لها من هذه الاصناف وكذلك هذه الجهات ترسل كثيرًا من مصنوعاتها واصناف تجارتها الى هذا المحل وجميع من تراه هنا من رجال ونساء انما هم خدم بمرتبات شهرية تصرف لهم من لدن هذين الاخوين وعددهم مائة وخمسة وعشرون شخصاً وانا من جملتهم وقد راكما احد الاخوين فارسلني اليكما لالازمكما واكون في خدمتكما حتى تقضيا غرضكما وها هو قريب منا فان اردتما ان تجتمعا عليه ذهبت بكما اليه فعجب برهان الدين من مقاله واثني عليه وعلى صاحبه الذي ارسله واظهر علائم الشكر والابتهاج بصنيعه ثم مشيا مع الفتى الى صاحب المحل فقام لهما واكرمها واجلسهما عنده فشكراه واثنيا عليه وامر بالقهوة فشربوا ثم قال لهما لولا ضيق الوقت اقمت معكما وطفت بكما على جميع مخازن الخان واريتكما ما فيها وقد حضر وقت انصرافنا واغلاق المحل ولكن لا مانع الآن من ان نريكما ما فيه من صنف الكشميري على حسب الامكان واذا حضرتما في غدٍ اريتكما باقي مخازنه وما فيها فاعادا له الشكر والثناء فقام معهما وتوجه بهما الى محل عالي البنيان منتظم الشكل مزخرف الاركان في سقفه صور متنوعة ورسوم مختلفة وفي مداره من اعلاه الى اسفله دواليب متقنة الصنعة كلها من خشب الجوز وارضه مفروشة بالبسط النفيسة وفي وسطه مائدة (طرابيزه) كبيرة

مستديرة معلق فوقها نجفة من البلور الصافي النفيس موقدة بالشمع الابيض النقي الطيب الرائحة ثم طاف بهما الرجل على جميع ارجاء المحل وصار يفتح الادراج ويريهما ما فيها من قماش الكشمير الخفيف الوزن الغالي الثمن فرايا كل واحد منها موضوعا على حدته في ظرف محكم لحفظه ولكل نوع منها دواليب خاصة به على حسب قيمته وجهة وروده وقد رأيا منها ما ثمنه قدر مائتي كيس فاكثر فاستغرب بن الشيخ من هذا الثمن وقال في نفسه اذا كان ثمن الواحد من هذا النوع هكذا فما يكون ثمن الجميع ثم ماذا يكون ثمن البضائع الموجودة في هذا المكان وبعد ذلك فما يكون قيمة البضائع الموجودة في غيره من محلات هذه المدينة ثم ماذا يكون قدر اموال اهلها وما صرفوه في زخرفتها وبنائها ثم بعد ان اطلعهما الرجل على جملة كثيرة من ذلك اعتذر لهما بضيق الوقت ووعدهما بان يطلعهما على سائر ما في المحل ان حضرا بعد ذلك في سعة من الوقت فاستأذناه للانصراف فشيعهما خطوات وضم اليهما من مشى معهما الى باب المحل حيث دخلا فخرجا وركبا العربة ورجعا وكان قد مضى نصف الليل فوجد برهان الدين والده قد اغلق عليه باب مخدعه ونام فدخل هو كذلك حجرته ونام فيها الى الصباح فقام وادى ما وجب عليه ثم ذهب الى والده ليقبل يده فما استقر به المقام حتى اتى يعقوب وحضر الطعام فاكلوا ما تيسر وجلسوا يتحدثون وحكى برهان الدين لابيه ما رآه في هذه المدينة

من فرط الانتظام والزينة وما يلوح عليها من علائم الفخار ومزيد الثروة واليسار وما حمله على العجب والاستغراب مما لم يكن له قبل في حساب فسر الشيخ بمقالته ورغب في ان يعلم طرفا من اخبار هذه المدينة وكيف كانت حالتها وتقلباتها في الازمان الماضية وما الاسباب التي اوصلتها الى هذه الدرجة من العز والرفعة والغنى والثروة

فقال يعقوب ان معلوماتي في هذا الامر قاصرة والاولى ان يؤخذ علم ذلك من الخواجا لاتساع دائرة معلوماته وكثرة اطلاعه على كتب التواريخ والسير

فقال ابن الشيخ قد توجهت الى محله لاسلم عليه فوجدته مشغولاً بشخص عنده فلما اردت الانصراف من عنده قال لي بلغ حضرة الاستاذ الوالد بان عندي شغلا ربما امتد الى وقت الزوال فاقرأ عليه السلام مني واعتذر له عني

فقال الشيخ عذره مقبول فان كان قد بقي عند يعقوب شي من خبره وما حصل له بعد فراقه لاخته فليحدثنا به لنقطع الزمن الى ان يقضي صاحبنا شغله وينتهي عذره ويأتي فنخرج جميعاً ونتفرج في شوارع المدينة

*

المسامرة السادسة والسبعون

الحيوان العجيب

(من حكاية يعقوب)

فقال يعقوب قد اخبرت حضرتكم اني لشدة شوقي الى اختي وما حصل لي من المشاق في البلاد التي وقعت بها كنت دائمًا اترقب فرصة الخروج من تلك الارض واخاف ان يطرأ حادث يعوقني عن رجوعي الى وطني الى ان نزلنا في السفينة وخرجنا وقد تألفت برجالها والفوني وكنت اساعدهم في اشغالهم بما عندي من المعرفة في صناعتهم فحصل لي منهم غاية الاكرام وكنت اخبرتهم بقصتي وما جرى لي ايام كنت صغيرًا الى ان صرت في يد هولاء القوم اسيرًا فعطفت قلوبهم عليّ وغمروني باحسانهم فكنت بينهم كواحد منهم كذلك مالت اليّ قلوب ضباط السفينة لما سمعوا

بما جرى لي لاني كنت تارة اقص ذلك على بعض الضباط وتارة على الاحاد فلانت لي قلوب الجميع وساعدوني باموالهم من غير ان يلزموني بشي من اعمالهم حتى ان القبطان الكبير لما علم بقصتي كتب ورقة وصدرها باسمه ومن بعده جميع من كان بالسفينة من الضباط وغيرهم ثم وضع امام اسمه ثلاثة جنيهات وكذلك جميع الضباط والاحاد كل على حسبه فاجتمع لي من ذلك خمسة وثمانون جنيهًا انكليزيًا وبعض ثياب فلما رأى ذلك السائح الذي كنت بصحبته هذه الورقة وما فيها اخذها واكملها من عنده مائة ووعدني انه عند وصولنا يوصلني الى بلدي على نفقته وان يكتب الى احد روساء بلدي بالوصية عليّ لينظر لي طريقة اتعيش منها انا واختي فشكرت الجميع على صنيعهم واقمت مكرمًا بينهم لا اجبر على عمل ولا ازعج من محل الى محل ولكن كنت في بعض الاوقات اذا رأيتهم في ازدحام اقوم من نفسي واساعدهم ثم نجتمع فيحكي كل منا ما عنده من غرائب الاخبار فبقينا كذلك ثلاثة ايام وكان الهواء فيها مساعدًا لنا وكان سير المركب مع سرعتها في غاية الانتظام الى ظهر اليوم الرابع فما نشعر الاّ واحد الملاحين قد اتى الى القبطان وكان جالسًا في حجرته واخبره ان احد روساء المركب رأى شيئًا على وجه الماء من بعد فقام بسرعة واخذ نظارته لينظر بنفسه وقمنا نحن جميعًا ننظر الى ذلك الشي فرأيناه يلوح من بُعد ولكنا اختلفنا في تعيينه فمنا من كان يقول انه زورق ومنا من كان يقول انه رمة حيوان

ومنا من كان يزعم انه حشيش جمعه الموج والقبطان ناظر اليه بنظارته لا يتكلم بشي وبعد ذلك التفت الينا وقال انه حيوان يجري له ارجل يحركها ولكن لم اتحقق ما هو وكان ذلك السائح الذي كنت بصحبته قد بلغه الخبر فحضر ونظر بظارته مثل ما نظرنا ثم قال ان الشي الذي ترونه حيوان عجيب الشكل مهول الخلقة وقد بالغ في وصفه جميع الملاحين والمؤرخين والسياحين ولغرابته وعجيب خلقته كان بعض اهل التاريخ الطبيعي ينكره ويقول ان جميع ما قيل فيه اوهام لا اصل لها فلما سمع القبطان منه ذلك قال لعله ذو الثمانية الارجل الذي تخافه الملاحون فقال نعم هو ذاك وعند ذلك امر القبطان رجاله بتوجيه السفينة نحوه وحضهم على الاستعداد له بالسلاح والمزاريق والكلاليب والاوهاق (الخيّات) فاعد كل منهم ما عنده من هذه العدة فما استعدوا الاّ وقد خرج الريح واختلف وتموج البحر وعلا موجه ومع ذلك لم نزل نرى ذلك الحيوان يسبح على وجه الماء وكأنه يريد الفرار منا لاننا كلما قربنا منه نراه قد بعد عنا ولكن مع البطئ والتأني فلما تمكنوا منه ضربوه بالبارود فاصابه نحو عشرين رصاصة فلم يظهر فيه اثر ولم يتحول من مكانه وكانها لم تصبه ثم رموا عليه الكلاليب والاوهاق فتعلق بعضها بجسمه فارادوا ان يزيدوا في عددها ليتمكنوا من ضبطه فتقلبت السفينة من شدة الموج فانفلت وغاص في جوف البحر ولم يظفروا منه الاّ نقطعة من ذنبه بقيت في وهق (خية)

من الاوهاق التي القوها عليه فعزم الملاحون على القاء الزوارق في البحر ليحيطوا به ويصطادوه فنهاهم القبطان عن ذلك خوفًا عليهم وهذا الحيوان على حسب ما شاهدته يبلغ طول جسمه قريبًا من ستة امتار وكذلك كل رجل من ارجله الثمان ولونه احمر كلون الآجر وجثته منتفخة من جهة وسطه وله عينان كالطبق مستويتان لا يظهر فيهما تحديب ولا حركة ويظهر لهما لمعان يرى من بعيد وكان في اثناء اشتغالهم بصيده يقذف من جوفه دمًا ورغوة ومواد تشم منها رائحة مسكية وبعد ان انفلت منهم صار يغطس بجانب السفينة من جهة ويظهر من جهة غيرها فيحصل للسفينة تموج اشبه بما يحصل من اشتداد الريح ولم ينقطع ذلك الاّ بعد ان بعدت عنه السفينة بقدر ميل في البحر وقد وزنوا القطعة التي وصلت اليهم من ذنبه فكانت اربع عشرة اقة فاعتبروا بنسبتها جميع هذا الحيوان فقدروه بنحو ستين قنطارًا وقد وصفه السائح الذي كنت بصحبته فقال انه حيوان كالقربة المملوءة ويتشكل في صور متعددة فتارة يكون في هيئة البيضة وتارة يكون كروي الشكل وتارة يكون مستطيلاً وله راس غليظ وعيناه متسعتان في استواء يرى في اعلى راسه شي صلب مجوف كالقرن هو فمه وله على سطح لسانه شبه الشوك وفكاه راسيان وله ارجل ثمان او عشر اصولها منضمة الى بعضها حول فمه في هيئة التاج وفي ظاهر كل منها صفان من الصمامات متوازيان كل صمامة كالفنجان اسفلها يتحرك باختيار

الحيوان فاذا اراد ان يقبض على شي الصق رجله او بعضها به فلا يتخلص منه وذلك لان تلك الصمامات اذا باشرت شيئًا من حيوان او غيره كان الغشا الذي في اسفلها اولا قريبًا من الحرف الاعلى ثم يسقط الى اسفل فيتكون من ذلك فراغ خال من الهوا كما يحصل في قرن الحجامة فتعلق بذلك الشي وتلصق به وتمسكه فاذا كان عدد الصمامات الماسة للشي كثيرة كانت قوة الالتصاق والتعلق به وامساكه عظيمة بحيث لا يتأتى فصل ذلك الشي عنها وبهذه الكيفية يتحصل على غذائه من الحيوانات البحرية فيأخذها برجليه ويوصلها للقرن الذي في اعلى راسه وهو فمه كما ذكر فيقطعها به ثم ياكلها وكأن هذه الارجل لم تكن الاَّ آلة للتخويف وللقبض بها واما كيفية تنفسه وحصوله على الهواء اللازم له فهو ان يدخل قدرًا من الماء في خياشيمه فتنقبض الخياشيم فيدخل الماء في مجرى موجود في راس الحيوان بين العينين وبعد ذلك تعود الخياشيم الى ما كانت عليه فيخرج المأ ثم يأخذ قدرًا جديدًا من الماء ويفعل به كذلك وهكذا وبهذه الكيفية يحصل له استنشاق الهواء وهذا الماء الخارج يسقط بقوة فيدفع الماء الراكد حوله فيندفع الحيوان الى جهة امامه وهي الجهة المقابلة لاتجاه الماء المقذوف فيسهل عليه بهذه الطريقة قطع المسافات البعيدة ولذلك لما رأى المتقدمون شكل هذا الحيوان وعلموا سبب اندفاعه الى جهة الامام ارادوا محاكاة ذلك في سير السفن فعملوا في بعض السفن مجاري مجوفة متسعة

يجري فيها الماء فيملأها وسلطوا عليها طلنبة تجذب هذا الماء وتقذفه الى خلف فتندفع السفينة الى الامام الاَّ انهم لما رأوا كثرة المصاريف في ذلك تركوا هذه الطريقة وهجروها وما يشاهد من هذا النوع بسواحل اوروبا وان تعددت اشكاله ليس شيئًا بالنسبة لما يشاهد في البحور العميقة على ما نقله السائحون والملاحون وقد ذكر هذا الحيوان بعض الاقدمين (كارسطو وبلين) وغيرهما ووصفوه بصفات هائلة كان المتأخرون ينكرونها الى ان عثر به الملاحون في زمننا هذا فاصطادوه ونقلوه من جهة الى جهة فصار امرًا مشهورًا معدودًا من انواع المخلوقات بعد ان كان يعد الكلام فيه من الخرافات وحكى (تربيوس) في بعض كتبه ان حيوانًا من هذا الجنس كان يخرج من البحر في جزيرة (كاريتافيا) جميع ما اصطاده الصيادون في يومهم فانهم كانوا يضعون كل ما اصطادوه في مناشر جهة البحر فيخرج هذا الحيوان كل ليلة فيأكله ويعود الى البحر وهكذا كان دأبه معهم كل ليلة حتى احرمهم ثمرة تعبهم فلما اشتد ضررهم منه نصبوا حول هذه المناشر خشبًا احاطوها بها فلم تفد شيئًا لانه كان يصعد على شجرة قريبة من المناشر ثم ينزل بها فاقام ذلك الحيوان معهم على ذلك الامر مدة الى ان اطلعت عليه الكلاب ليلة فهجمت عليه ومنعته من العود الى البحر وجاء الحرس فضربوه وصار هو يدافع عن نفسه ويضرب بارجله فما زالوا به الى ان مات ففاح منه رائحة كريهة فعجبوا من خلقته وغريب صفته لانهم كانوا لم يروه

قبل ذلك ثم انهم بعد قتله حزوا رأسه فكانت في حجم البرميل الكبير وقاسوا رجليه فوجدوا طول كل رجل ثلاثين قدماً وغلظها بقدر ما يملأ حضن الرجل ووزنوا ما بقي من جثته فكان سبع مائة اقة وهذا النوع قد يعتريه في البحار الكثيرة الصخور والاحجار ما يعوقه عن الحركة ويسوقه الى التهلكة وذلك ان تدخل رجل من ارجله بين الصخور فتعلق بها ولا يمكنه ان يستخلصها وكلما حاول تخليص رجل علقت غيرها فيقف عن السير ويبقى على هذه الحالة الى ان يموت وينتن وعند ذلك تفوح له روائح كريهة يشمها اهل تلك الجهة من عدة فراسخ فاذا شموها خافوا على انفسهم من الوباء لشدة نتن تلك الرائحة ولكنها لا تطول مدتها فان الامواج تقطع الحيوان وتقذف بقطعه الى جهات بعيدة حتى لا يبقى لرائحته اثر وهذا النوع وان كان يوجد في كثير من الجهات الاّ ان اكثر وجوده بالارض الجديدة وهناك يصطادون منه كل سنة شيئاً كثيراً يدخلونه في ماكلهم واهل الجهات الشمالية جميعاً يقولون ان الصيادين عندهم اذا خرجوا للصيد في ايام الحر وبعدوا عن شاطئ البحر بعض اميال يرون في بعض الاحيان نقصان عمق الماء من تحت زوارقهم بغتة حتى ينزل الى نحو ثلاثين باعاً بعد ان كان ثمانين فاكثر فيستدلون بذلك على وجود هذا الحيوان ويتحققون انه بين الزورق وبين قاع البحر ويكون ذلك علامة عندهم على وجود كثير من السمك في ذلك المحل فعند ذلك

يلقون سنانيرهم وآلة صيدهم ويغتنمون منه مغنمًا عظيمًا فاذا اخذ الارتفاع في النقص علموا ان هذا الحيوان يريد ان يظهر على وجه الماء لاجل ان يستنشق الهواء فياخذون في الفرار منه بغاية السرعة فاذا بعدوا عنه ونظروا رأوه قد ظهر على سطح الماء وغطى مقدارًا من البحر يقرب من ميل ونصف ميل ويرون كثيرًا من السمك يتواثب على ظهر الماء وهو في هياج عظيم واضطراب كثير ويرون ارجله قائمة مثل اعواد الشراعات وهو في غاية الصلابة والقوة حتى انه يقدر ان يحتضن السفينة بين رجلين من ارجله ويقلبها في قاع البحر فاذا اراد ان ينزل كان للبحر عند نزوله دوامات وامواج عظيمة حتى انها لو صادفت سفينة لاغرقتها وقد ذكروا في هذا الحيوان كثيرًا من الغرائب والعجائب وان كان اكثرها لا يخلو عن بعض الغلوّ حتى قال بعضهم ان الواحد منه قد يكبر حتى يكون كالجزيرة

فقال القبطان قد حكى لي قبطان امريكاني حكاية غريبة تتعلق بهذا الحيوان فقال كنت ذات يوم في بعض سياحاتي في جهات الهند قريبًا من سواحل افريقا عند جزيرة (سنت هيلينة) فسكن الهواء سكونًا تامًا فلم يمكن المسير فاقمنا هناك ثلاثة ايام ننتظر هبوب الريح وكان قد مضى على المركب مدة ونحن في غفلة عن تنظيفها فلما طالت اقامتنا في ذلك المكان نصبنا السقايل على جوانبها ونزل العمال عليها لاجل تنظيفها واذا بصياح من ناحية

من نواحي المركب فذهبت لاعلم الخبر فوجدت هذا الحيوان قد اختطف رجلين من فوق السقالة باحدى ارجله وانزلهما الى قاع البحر ومد الاخرى لياخذ بها ثالثًا كان قد صعد الى الشراعات فاصابته رجل الحيوان عند وصوله الى اول القماش ولكنها تكلبت في حبال الشراعات فلم يتأت للحيوان تخليصها وبقي الرجل معلقًا بها وهو يصيح ويستغيث من شدة الالم فقام من في السفينة الى السلاح والسنانير والفؤس والحبال والآلات الصيد وبادر بعضهم الى قطع رجل الحيوان المتعلقة بالرجل فسقطت ووقع الرجل مغشيًا عليه فلم يمكث الاّ قليلاً ومات ثم حمل باقي الجماعة على الحيوان بالسلاح والحراب والسنار فاصابه كثير منها وكانوا كلما رأوه ينزل الى قاع البحر يطاولون له الحبال ثم يجذبونه الى اعلى واستمروا على ذلك مدة ثم هبط الحيوان دفعة واحدة فانفلت من ايديهم وانقطعت منه قطعة عظيمة بقيت في الحبال وقد قاسوا ما قطع من رجله فبلغ طوله خمسًا وعشرين قدمًا في غلظ نصف متر ونسب ما بقي من رجله الى ما قطع فقدرت على هذه النسبة رجله باربعين قدمًا تقريبًا في غلظ متر عند راسها

قال يعقوب فاعتراني مما شاهدته وسمعت به ما لا مزيد عليه من القلق وبقيت طول النهار في وجل فكنت كلما رأيت موجة على بعد ظننتها حيوانًا من هذا النوع وانه يجري خلفنا ليدركنا فاشتد خوفي وفزعي وكان الملاحون يضحكون مني ويسخرون بي

لكثرة اعتيادهم على اهوال البحر وعجائبه وقلة معرفتي بذلك فكنت اتخيل انه ليس في المخلوقات اعجب من هذا الحيوان وصورته وكانت صورته مرسومة دائمًا في مخيلتي لا تفارقني في ليل ولا نهار وربما كنت اراه في النوم فاقوم من نومي فزعًا مرعوبًا فلما رأى ذلك السائح ما بي من الكآبة رثى لي واخذته الشفقة بحالي واخذني بجانبه وصار يسليني ويذكر لي نوادر وحكايات ليزيل بها ما في وهمي الى ان قال لي الا تعلم ان عجائب البحر اعظم من عجائب البر واكثر وما نظرته او سمعت به ليس شيئًا بالنسبة لما لم تره ولم تسمع به

المسامرة السابعة والسبعون

حية البحر والهائشة

(من حكاية يعقوب)

ومن اعجب حيوان البحر وحيتانه (البال) المعروف بالهائشة واعجب منه حية البحر وكل ما في البر والبحر من حيوان ليس باعجب من نوع الانسان حيث كان بتدبيره وقوة عقله لا يغلبه شي من ذلك كله مع صغر جثته وضعف بنيته فتراه يحتال على اعظم حيوان حتى يقع في قبضته ويدخل تحت تصرفه فيفعل فيه ما شاء متى شاء فقلت له ما هذه الهائشة وما حية البحر فقال اما حية البحر فقد كثر كلام الناس فيها قديما وحديثا ولغرابتها وبشاعة صورتها كان منهم من يقول بوجودها ومنهم من ينكرها مع انها مذكورة في كتب كثيرة قديمة وحديثة وقد ذكر لها حكايات غريبة

ونوادر كثيرة واقدم ذلك ما ذكر في التوراة من ان(ليفا طان)
وهو الثعبان البحري له اسنان مفزعة وعلى ظهره قشور كبيرة كالدرق
بعضها فوق بعض وعيناه براقتان كانهما يرميان بالشرر واذا فتح
فمه خرج منه لهب وكذلك انفه اذا تنفس ظهر منه شرر لم تكن
تؤثر فيه الاسلحة التي كانت مستعملة في الازمان القديمة كالسيف
والمقلاع والنشاب وعند ظهوره يحدث للماء دوامات وتموج عظيم
ويرى الماء كانه يتلهب وقد وصف هذا الحيوان بعض المؤلفين.
بانه يقدر على ان يبتلع الفيل واكثر وجوده في بحر الهند ويبلغ طوله
عشرين ذراعا ويعبر بحر الهند سابحا واذا مر في بعض سياحته على
بعض الجزائر فزع اهلها منه وخافوا خوفا شديداً ولم تشتهر معرفته
والعلم بوجوده الاَّ في سنة ١٧٥٢ للميلاد الموافقة لسنة ١١٦٦ للهجرة
بناء على ما نقله السائحون والملاحون عن اهل البلاد الشمالية
كسكان (السكنديناوة) وغيرهم وقد قالوا انه نوعان احدهما لا
يعيش الاّ في البحر والاخر يعيش في البر والبحر وهذا الاخير يبقى
في البر الى ان يكبر ويعظم جسمه فتعسر عليه الحركة خارج الماء
لثقل جثته فاذا رأى من نفسه ذلك تحول الى البحر ليقيم فيه وعند
ذلك يسمع لمشيه بين الاشجار والغابات صوت من مسافة بعيدة
فيدك كثيراً من الشجر والمباني التي يمر عليها في طريقه الى البحر
وزعم بعض السائحين ان هذا الحيوان يخرج بالليل الى السواحل
الصخرية ويأخذ مما يصادفه من السفن كل ما قدر عليه وحكى

بعض الملاحين انه رأى بقرب بعض الجزائر ثعبانا من هذا الجنس يسبح فوق الماء كما يزحف الثعبان البري على الارض ويغير ثوبه مثله وان طوله خمسون قدما وجميع ما قيل في هذا الحيوان يدل على ان راسه كراس الفرس وانه يقذف من انفه ماء فيرتفع الى الجو ارتفاعا عظيما ولا يرى هذا الحيوان في الغالب الاَّ اذا كان الهواء ساكنا والجو معتدلاً واهل (نرويج) يقولون ان هذا الحيوان قد يهجم على السفن فيغرقها بثقل جسمه ثم يلتقط رمم الغرقى من الماء وبعضهم يقول انه اذا قرب من السفينة يرفع راسه من الماء الى اعلى السفينة ويلتقم بفمه من اراد ممن يراه على ظهرها وانه يفر من رائحة المسك ولذلك يضعون فوق مراكبهم شيئا منه فلا يقربها وفي شهر اغسطس سنة ١٨١٧ للميلاد وسنة ١٢٣٢ للهجرة وصل الخبر للمجلس العلمي بجهة (ايتازوبي) من جهات امريكا بظهور حيوان بحري عظيم الخلقة بشع المنظر يشبه الثعبان في شكله وحركته ظهر عندهم على بعد ثلاثين ميلاً من ناحية (بوستون) فانتدب من الجمعية بعض اعضائها لمشاهدة ذلك الحيوان والوقوف على حقيقته وشرح ذلك في تقرير يعرض على المجلس فتوجهوا الى تلك الناحية وكتبوا تقريرًا بما شاهدوه يتضمن انهم رأوا هذا الحيوان فوجدوا طوله مائة قدم وقطره عشر اقدام وحركته سريعة وانه تارة يسير على استقامة وتارة يسير بانعطاف ويكون راسه في الغالب مرتفعا عن الماء بقدر قدمين وانه يخاف من الآدمي ولم

يعهد منه اذى لاحد ولا ياتي الى البرّ الاّ لخلع ثوبه فاذا خلعه عاد سريعًا الى لجة الماء وفي الجهات الحارة كثير من حيات الماء غير هذا الثعبان الهائل وكلها شكله مستدير وله اذيال مفترشة يستعملها في سباحته كالمجذاف واما (البال) المعروف بالهائشة فهو اكبر الحيوانات على الاطلاق برّيها وبحريها وحشيها وانسيها وهو انواع منها ما جلده املس وما ليس كذلك ومنها ما له اجنحة وما ليس له ورأس الجميع كبير مستطيل وفمه كمحل متسع مفتوح من الامام منطبق من جهة الخلف وفي ناحيتي الفم من اعلاه مكان الاسنان صفان من صفائح فوق بعضها قرنية المادة سوداء اللون تفصل عن بعضها وتباع لاغراض مختلفة وطرفها الداخل ملتصق بمادة خيطية موجودة داخل الفم واما فكه الاسفل فمجرد من الاسنان والصفائح وله شفة عريضة سريعة الحركة عرضها بقدر تلك الصفائح فاذا كان الفم منطبقًا غطت المسافة التي بين الصفين فاذا تدلت ظهر عند ذلك فتحة كبيرة فيدخل فيها جزء عظيم من الماء ومعه بعض حيوانات صغيرة ثم يخرج الماء من بين هذين الصفين وتبقى جميع الحيوانات التي كانت بالماء عند دخوله كالسمك الصغير والمحار فيكون منها غذاوه واما الحيوانات الكبيرة فانها اذا رات تموج الماء الداخل في فمه هربت وبعدت عنه وانفه في اعلى راسه وفيه خروق فاذا اراد استنشاق الهواء دخل معه من تلك الخروق مقدار من الماء فيجتمع في محل مخصوص من جهة الخلف وحين يكون في

جوف الماء تضيق مجاري حلقه فلا يصل الماء الى رئته فاذا اراد اخراج الهواء الفاسد ضغط على مخزن المآء فيخرج ما فيه من الهوا ومعه بعض ابخرة مائية ولهذا يرى دائمًا من جانب راسه خيطان من الماء مرتفعان الى الجوّ كالعامودين ولكون غذائه لايكون الا من حيوانات صغيرة اقتضت الحكمة ان يكون حلقه ضيقًا بخلاف فمه فانه واسع جدًا ومن هذا يعلم انهُ لاصحة لما قيل من ان هذا الحيوان قد يبتلع الرجل ولكن لا يخفى ان عادة الناس لاتميل الا لسماع المستغربات فكثيرا ما يمزجون المبالغة والكذب بالحقيقة و يخلطون بعضها ببعض ويصفون الشيء الغريب باغرب مما هو عليه وان كان لا اصل لهُ وتارة يجعلون لهُ مقادير فاحشة تزيده غرابة على غرابته وتمحه من الشناعة والفظاعة فوق ما يستحقه باصل خلقته اغراقًا في الوصف واغرابًا في القول فان كان المتكلم ممن يوثق بهِ اخذ الناس قولهُ بالقبول من غير مناقشة ولا بحث فيجري على الالسن حتى يملأ الارض وينتقل من جيل الى جيل فمن ذلك هذا (البال) فانه لما كان اكبر الحيوانات جعل له اغرب الصور واكبر المقادير فتارة جعلوا طوله تسعمائة قدم وتارة جعلوه اكبر من ذلك حتى قال بعضهم ان سفينة قد سارت بجنبه ثلاثة ايام ما بين راسه الى ذنبه وقال بعضهم ان الدنيا كلها على ظهر هائشة تتحرك بحركتها وتسكن بسكونها وجعل ذلك سببا لوجود الزلازل التي تحدث فيها وبعضهم يزعم ان الشيطان كان لامها على تحملها هذا

الحمل الثقيل فهمت بالقاء الدنيا من فوق ظهرها فامرها المولى باستمرارها على ما هي عليه ومن مبالغة الصينيين في شانها قولهم انها اذا تحركت في البحر ظهرت حركتها في اربعمائة وثلاثة وثلاثين فرسخا بحريا وانها اذا انتهت في الكبر وتقدمت في العمر صارت كالجبال العظيمة الشاهقة وقال بعضهم انها تحب من انواع السمك الطوبار والبوري والبقر البحري فتتبعها في سيرها فتقع بين تلال الرمال عند نزول البحر فلا يمكنها التخلص فاذا تحركت فرقت الرمل وجعلته في جنبيها كالجبال فيشعر بها اهل تلك الجهة فياتون اليها فيقطعونها وزعم بعضهم انها تقصد السفن فتهشمها بين فكيها وتاكل ما بها الى غير ذلك مما لا يعول عليه ولا يصغى اليه وكذلك قول بعضهم انها قد تقف في جهة من البحر مدة فيتراكم فوق ظهرها كثير من الطين والرمل وزبد البحر حتى تكون كالجزيرة فترسو عليها المراكب ويقيم اهلها على ظهرها اياما وليالي وهم لا يشعرون بها والصحيح من ذلك كله ان طولها خمسة وثلاثون مترًا ولها اجنحة فوق ظهرها تعوم بها وراسها عظيم جدًا وعيناها بالنسبة لراسها صغيرتان جدًا واذنها لا ترى الاَّ قليلاً وفي فكها الاعلى من خمسمائة صفيحة الى ستمائة وجلدها صلب املس ليس به قشر وتحته دهن في سمك قدم فاكثر ويعمل من صفائح الفك الاعلى عمد الشمسيات والصدور التي تلبسها نساء الافرنج

قال الشيخ ما ذكرت من ان طولها يكون خمسة وثلاثين مترًا

على الصحيح يقرب مما قاله الدميري في حياة الحيوان فقد قال ان طولها يبلغ خمسين ذراعاً وقد قرأت في بعض الكتب المترجمة من اللغة الانكليزية ان طولها في البحر الشمالي يبلغ نحو تسعين قدماً وهناك يعتادها الصيادون كل سنة ويصطادونها فاما في المحال التي تعيش مطمئنة تامة الحجم فينيف على مائة وخمسين وان رأسها عبارة عن ثلث طولها وعيناها في جرم عين الثور ولكنهما في قفاها فتمكن لها رؤية الاشياء من الخلف والامام وذنبها هلالي فاما لونها فليس على نمط واحد ففيه اختلاف عظيم ربما كان سببه السمن او غيره ومن طبع هذا الحيوان ان لا يطمح لغير زوجه ولا تمنعه مخالطته ومجانسته مع الغير عن الاقتصار عليها ثم انه وان يكن اكبر جميع الحيوانات الاَّ انه اودعها واهدأها جاشاً وبسالته انما هي في الدفاع عن نفسه وعن ذويه وله اعداء كثيرة تتعرض له وتقصده فقد يلتصق به نوع من السمك صغير له جلد صدفي فيرتفع في شحمه وآخر يسمى السمك السائف وهو ايضاً اعظم داهية عليه بعد الانسان وربما سلم من مكر خصمائه المائية باعمال القوة او بالهرب فاما من ابن آدم المسلط على جميع المخلوقات فهيهات له ذلك فانه يتبعه بحيلة وتصرف ناجح يستحثه على ذلك طمع التجارة فيه او سد خلة المعيشة وقد علم بالتحقيق انه يتأهب في كل سنة عدة سفن لصيد هذا الحيوان في شطوط (كرتيلاند) وفي البحر الجنوبي فينشبون فيه نحو كلاب مربوط فيه حبل فاذا احس بالجرح جرى

مسافة طويلة فيتركونه ريثما يتنفس ما شاء ثم يرمونه بكلاب اخر الى ان يكل ويبلغ منه الالم ويسيح منه الدم فيؤخذ حينئذٍ ويقطع منه دهنه ويوضع في براميل ثم يذاب ويجعل زيتًا يدخل في عمل الشمع واجزاء الدباغة وصناعة بعض الثياب والظاهر ان له مدخلا عظيمًا في التجارة

فقال يعقوب كانت التجارة فيه واسعة فيما سبق لكثرة وجوده اذ ذاك ثم لم يزل يتناقص ويغلو ثمنه شيئًا فشيئا الى الآن وكان المتحصل من هذا الزيت سنة ١٨٥٩ للميلاد وهي سنة ١٢٧٦ للهجرة الفين وثمانية وسبعين برميلا وفي التي بعدها الفا وتسعمائة وفي التي بعدها الفا وسبعمائة فترتب على هذا النقص افلاس شركات كومبانيات عديدة كانت مقتصرة على التجارة في هذا النوع وهذا النقص انما حصل من قلة وجود هذا الصنف فقد علم من الاخبار المحفوظة ان الذي اصطاده الصيادون منه في سنة ١٦٩٧ من الميلاد نحو الف وتسعمائة وسبعة وخمسين والذي اصطيد من سنة ١٧١٩ الى سنة ١٧٧٨ منه نحو ستة الاف وتسعمائة وستة وثمانين ومن سنة ١٧٨٤ الى سنة ٢٨٤٠ نحو ثلاثة الاف واربعمائة ومن هذا التاريخ الى سنة ١٨٥٦ للميلاد وهي سنة ١٢٧٣ للهجرة لم يضبط الا ثلاثة الاف فقط ومن هذا يعلم السبب في تناقص كمية هذا الزيت في كل سنة عن السنة التي قبلها وهو السبب في غلو سعره ففي سنة ١٨٢٠ كانت اقة الزيت منه تباع بستين سنتيما

واقة صفائح الاسنان اذا كانت على حالها الاصلي بثلاثة من صنف الافرنك ونصف واذا كانت مقطعة قطعا بعشرة منه وبلغت أقة الزيت في سنة ١٨٦٢ افرنكا واحدا وثمانية عشر سنتيما وثمن الصفائح غير مقطعة ثلاثة عشر فرنكا والمقطعة مثلها ومقدار ما دخل في سنة ١٨٦٢ من صفائح الاسنان تبلغ قيمته مليونين من الافرنك تقريبا ولحمه يوكل بل هو مرغوب جدًا عند بعض سكان الجهات الشمالية وبينه وبين لحم البقر قرب في الطعم والعادة ان ينضجوه في الماء بعد تقطيعه وجميع اهل اوروبا ياكلونه ولكن على حسب ما اعتادوا في ذلك فمنهم من يضيف له الحمص او غيره حين الطبخ ومنهم من يقليه في الزيت

قال يعقوب وحين كنا نخوض في حديث (البال) كان بالقرب منا رجل من ضباط المركب عمره يقرب من اربعين سنة وله علم باحوال البحر والصيد كان يسمع حديث السايح بتمامه فلما فرغ السايح من كلامه دنا منا وقال ان اصطياد الهوائش من البحر اصعب شي ويحتاج الى عدد واحتراسات وقوة وجرأة وصبر على اهوال البحر وشدائده وكان يسافر في الزمن السالف لصيد الهوائش مراكب عديدة من جميع جهات اوروبا ويجتمع منها في الجهات الشمالية المتجمدة اساطيل عظيمة وقبل وجود السفن البخارية لم يكن الا سفن الشراع فكانت مدة الصيد ذهابا وايابا تبلغ اربعة اشهر واكثر اذا كانت سليمة العاقبة وكان كثير من السفن يفقد

بين الصخور الثلجية فيموت ملاحوها وكل من فيها ولا يصل خبرهم لبلادهم الاَّ بالاشاعة واما الان فصار السفر على سفن البخار اسهل واسرع ولكن لا يسافر لصيد هذا النوع الاَّ سفن قليلة من فرنسا والانكليز واميركا وهولاندة وغيرها لعدم وجوده بكثرة كالاول وكانت آلات الصيد رماحًا طوالا وحرابا كبيرة وصغيرة كل واحدة منها عبارة عن قطعة حديد احد طرفيها مركب في نصاب من الخشب والطرف الاخر على شكل رقم الثمانية من الارقام الهندية هكذا (٨) وقد جعلت على هذه الصورة لتنشب في جسم الحيوان فاذا دخلت فيه فلا يكاد يتخلص منها ويستصحبون مع هذه الآلات حبالا طويلة يبلغ طول الواحد منها ثمانين قامة فاكثر الى مائة قامة وفضلا عن هذه الآلات لا بد من وجود ستة زوارق او اكثر ويكون في كل سفينة نحو اربعين رجلا غير القبطان والضباط والطبيب وهم منقسمون الى قسمين قسم يمسك الرماح والحراب لاجل طعن الهوائش بها حين رؤيتها وقسم هم الملاحون فيستعملون مدة السفر في خدمة السفينة وعند الصيد في اعمال المجاذيف لاجل تتبع الهائشة واقتفاء اثرها حين ترى في موضع من البحر فاذا وصلت السفينة محل الصيد ووجدت الهائشة تلقى الزوارق في البحر وتتفرق الرجال بحيث يكون كل ستة او سبعة منهم في زورق ويسيرون باستعمال المجاذيف الى ان يكونوا قريبًا من الهائشة وعند ذلك تقوم الرجال التي بايديها الرماح والحراب

مربوطا بها الحبال فيمسك الرجل المزراق بكلتا يديه ويهزه هزًّا موزونًا حتى اذا رضيه رمى به الهائشة فيدخل في جسمها على حسب قوة الرامي وحذقه فاذا احست السمكة بالجرح غاصت في جوف البحر وقد قبض على طرف الحبل المربوط في المزراق رجل من الملاحين فيراخي لها فيه فان لم يكفِ ربط فيه غيره ولا يزال يطاولها الى ان تظهر على وجه الماء في جهة من البحر وللصيادين من الحنكة والتدرب ما يعرفون به اين تظهر السمكة من الماء بعد ان تغطس ويستدلون على ذلك باتجاه ذنبها حين تنزل فيسيرون الى قرب المحل الذي يتعين عندهم انها تظهر منه فمتى ظهرت من الماء حملوا عليها بالمزاريق والحراب فلا يزالون يضربونها الى ان تزهق روحها ولا يخفى ان الهائشة من وقت طعنها الى ازهاق روحها يحصل منها حركات عنيفة قد توجب احيانا غرق الزورق ومن فيه خصوصا اذا كان الممسك للحبل غير مستعد لمطاولتها واطلاق الحبل لها بالتدريج الذي يترتب عليه ان تكون حركتها هينة وكثيرا ما تضرب الزوارق أو من فيها بذنبها فانها عند مكابدة طلوع الروح يكثر اضطرابها وهياجها ويكثر ضربها الماء بذنبها ويخرج منها دم كثير يتغير به لون الماء الذي حول الزوارق ويبقى متغير اللون بعد موتها مدة من الزمن فاذا ماتت الهائشة بادروا الى قطع ذنبها ثم يربطونها بحبل الى زورق ويربطون باقي الزوارق به ويسحبونها في الماء الى ان يصلوا بها الى

السفينة وترفعها الرجال بالبكرات والحبال ثم يقطعونها ويخلصون الدهن من اللحم ويذيبونه على النار لاستخلاص الزيت ولهم في ذلك طرق مختلفة

وقد اخترع في امريكا لصيد (البال) الهائشة جلة ترمى بالآلات النارية فتدخل في جسمها فتمزق في داخل الجسد فيموت الحيوان في الحال واخترع اخرون جلة ادخلوا فيها مع البارود بعض موادا سمية فمتى دخلت الجلة جسم الحيوان وتصدعت ينتشر فيه السم ويفعل افاعيله فيموت الحيوان في مدة اربع دقائق او خمس . قال وحضرت الصيد بنفسي وسني خمس وعشرون سنة فما رأيت في عمري هولاً اكبر منه وينبغي لارباب هذه الصنعة ان لا يكون للخوف سلطان عليهم بل يكونون بمكانة من الجرأة والقسوة وقوة القلب بحيث لا يهابون الموت ولا يخشون الاخطار ولا تزعجهم الاهوال ويلزم ان يكون قائد الزورق مع ذلك حديد البصر ماضي العزم وان يكون عنده مزيد تبصر وتدبر ومعرفة بما يلزم في هذه الاحوال بحيث متى نظر الهائشة بادر بمن معه الى اجراء جميع ما يستدعيه الحال من الحركات والاعمال لحصول الغرض المقصود بغير اخلال بشي من ذلك فان الهائشة لا يكفي لموتها حربة واحدة او اثنتان بل كثيرا ما يلزم ضربها عشرين او ثلاثين مرة يخاطر في كل منها بنفسه ورجاله فانها متى احست بالجرح والالم هاجت واضطربت فان لم يكن جرحها بليغًا وفي الموضع

الموجب لموتها بالسرعة تاخذ في الطرق المخلصة لها فتغوص في البحر بقوة عنيفة يندفع بها الزورق بسرعة عظيمة تفوق سرعة النبل وقد يتكرر منها هذا الصنع مرارًا عديدة فتظهر على وجه الماء ثم تغطس فيه وتعود وهكذا وتتجه اتجاهات مختلفة وتقطع في ذلك مسافات بعيدة فان لم يكن الصياد متبصرًا كل التبصر متدبراً كل التدبر فربما انقطع الحبل فلا يتحصل عليها او غرق الزورق فانها قد تمر بمواضع فيها صخور من الثلج ومحال جمد ماوها فاذا مر الزورق بهذه الاماكن متتبعًا لها فربما وقع في خطر يؤدي الى تلف جميع الملاحين او ضياع ثمرات تعبهم وتخلف مقصودهم وفي اثناء هذه الاحوال تسمع اصوات مزعجة بعضها من الهائشة وبعضها من ضرب الماء بذنبها مضافًا ذلك الى اضطراب الماء وعدم استقرار الزورق فيكون الهول عظيمًا والخطب جسيمًا فلا بد للرئيس ان يكون في هذه الاحوال ساكن الجاش غير مكترث بما يراه من تلك الاهوال ولا يشتغل باله الاّ بقتل الهائشة ويحتاج ان يكون رجاله منقادين له مطيعين لقوله متبعين لاشارته مبادرين الى تنفيذ اوامره على غاية من السكون والهدء وكل منهم يشتغل بما وكل له من الاعمال مقبلاً عليه بكليته لا يشغله عنه شاغل سواه وكلما بدت لهم فرصة لضرب الحيوان انتهزوها ولا يزالون كذلك حتى يروا شؤبوبي الماء المقذوفين من خياشيمها قد تغير لونهما من البياض الى لون الدم الاحمر فيعلمون بذلك ان الهائشة اشرفت على الهلاك

وإن علمهم قرب على الانتهاء فيهجمون عليها ويزيدون في جراحها حتى ترفع راسها الى السماء وتنظر اخر نظرة الى الشمس نظرة من يئس من البقاء ويخرج النفس الاخير ويدركها الممات وتنقطع منها الحياة

ثم ان كثيرًا من محلات صيد هذا الحيوان في فصل الصيف والخريف يرى لون الماء فيه احمر كلون الدم وسببه ظهور سمك صغير احمر اللون ينتشر في الماء بحيث يملأ فضاء تسير فيه السفن يومًا فاكثر طول الواحدة منه نحو ميليمترين اثنين وغلظها نصف ذلك ويتكوّن من هذا السمك طبقات كثيرة يبلغ طولها مسافات مختلفة فتارة عشرة اميال ومرة عشرين او ثلاثين ميلا وسمكها يبلغ ثلاثة امتار او اربعة والهائشة تحب هذا النوع اكثر من غيره فمتى وصلت احدى هذه الطبقات تسير الهوينا وتاخذ في صيده فتراها تفتح فاها وتنزل فكها الاسفل فحينئذٍ يدخل فيه ماء وسمك بقدر اتساع الفم وقدره سبعة امتار مكعبة وكلما سارت جهة امامها يدخل ماء جديد بما فيه من السمك والماء القديم يخرج من خلال الاسنان وتستمر سائرة هكذا الى ان تقطع نحوًا من اربعين او خمسين مترا ثم ترفع راسها وتحرك لسانها لضم السمك الصغير وهي تنفث الماء فيخرج ويبقى السمك على شكل كرة قدر النارنجة فتبتلعها وتبتدئ في العمل كالاول.

وهذا الحيوان مع كبر جثته وعظم خلقه في غاية من الجبن

والخور فلا يعتمد في طلب النجاة غالبا الاَّ على الهرب والفرار والهزيمة امام العدو

وفي اول فصل الخريف يرى الذكر منه منفردا عن الانثى غالبًا فيظن انه يبحث عنها وتراه كثيرًا في حركات غريبة وتقلبات عجيبة فتارة يتمرغ ويظهر في الما صدره وراسه وتارة يرفع فوق الما قريبا من ثلثه فيتموج البحر من هذه الحركات ويضطرب ويرغي ويزبد وهذه الامور علامة على ندآ غيره من جنسه واستدعآ ذوي نوعه فيجتمع كثير منها ويستمر الجميع على هذه الحركات واللعب زمنا طويلا اذا لم يقطعها عن ذلك ظهور مراكب الصيد ومتى حصل بين الذكر والانثى ائتلاف في هذه الجمعية انفردا عن البقية وسارا مع بعضها فان اصاب الانثى طعنة من الصيادين ترى الذكر يحوم حولها ويحاول خلاصها ويكثر منه ذلك حتى انه ربما حل به ما اراد ان يخلصها منه فيصير كالباحث عن حتفه بظلفه وهذا كله في ابتداء الصحبة وحداثة المحبة فاذا تقادمت المودة ومضت عليها في الصحبة مدة ضعفت علائق الحب والوفاق وصار ادنى الاسباب موجبا للفراق وهذا النوع يحب الذراري اكثر من الازواج فترى للام حنواً شديدًا على ولدها وتحافظ عليه اكثر من محافظتها على نفسها ولهذا كان من عادة الصيادين اذا رأوا مع الانثى ولدها ان يبادروا لصيده اولاً لعلمهم بانها لا تفارقه فيسهل عليهم بهذه الواسطة صيدها ايضًا فتراها في اثناء مناوشة الصيادين

لابنها تبذل في مساعدته جهدها وتاتي باقصى ما عندها فتارة تدفعه باجنحتها وتارة تدفعه بصدرها فان لم تجد فيه قوة على الهرب حملته على عاتقها وغاصت به في الماء فان لم يتبعها لما اصابه من الجراح لا نتركه بل تستمر على محاولة انقاذه باقصى وسعها وغاية ما عندها فتارة تجذبه ومرة تدفعه وتارة تحوم حوله وتحثه على الفرار والهرب ويرى عليها في اثناء ذلك من اثار الكآبة والحزن ويسمع لها من شدة النفس والصوت ما يدل على شدة تألمها وهول مصابها وتنسى نفسها في اثناء هذه الاحوال بالمرة حتى يكون ذلك سببًا لهلاكها وتقع فيما كانت تتخلص منه لولا فرط حبها لولدها وانهماكها على مساعدته وتخليصه وتبلغ زنة الواحدة من هذا النوع مائة وخمسين قنطارًا تقريبًا ان كان طولها عشرين مترا فان كان ثلاثين مترًا كان الوزن على حسبه وطول راسها ثلث طولها كما ذكرت ويختلف عرض فكيها من اربعة امتار الى سبعة وطول سنها يختلف من متر الى خمسة امتار بالنسبة لفمها وقوتها عظيمة جدًا بحيث يمكنها قذف الزورق بمن فيه في الجو الى غاية عظيمة ويوجد على جلدها بعض محار وحيوانات مائية صغار وتلد عادة فرادى ومثنى وولدها حين الوضع يبلغ طوله ستة امتار تقريبًا ومن حين الولادة تنصب عليه رواق الحنو والشفقة فترضعه وتحضنه وتعلمه السباحة

المسامرة الثامنة والسبعون

كاشالو او العنبر

(من حكاية يعقوب)

وفي الحيوانات البحرية نوع هائل يسمى بالافرنجية (كاشالو) وهو العنبر يقرب من الهائشة في الصورة الآن بينهما في بعض الاعضاء اختلافًا لان هذا الحيوان يوجد في فكه من الجانبين انياب اسطوانية او مخروطية وفي الفك الاعلى انياب غيرها صغيرة جدًا لا تكاد ترى من اللثة فاذا اطبق الحيوان فمه دخلت انياب فكه الاسفل في تجاويف مقابلة لها في الفك الاعلى وطول راسه قريب من نصف طول جسده وارتفاعه يبلغ مترين تقريبًا

ويستخرج منه مادة بيضاء زيتية تجمد اذا بردت وهذه المادة في اوعية براسه متصلة باخرى في البدن متوزعة فيه فيستخرج ما في

سائر جسده اكثر مما تحتويه الاوعية التي في الراس وقدر ما يستخرج من الحيوان الواحد نحو من اربعة وعشرين برميلا من الزيت وكل برميل يسع مائة واربعًا وعشرين (نبادية) والنبادية مكيال كانت الفرنسيس تستعمله في كيل المائعات ومقداره مائتان واربعون درهما مصريا تقريبًا وهذا الحيوان يقيم على سطح الماء اكثر من الهائشة وفي جوف الماء مدة طويلة كذلك ويستخرج منه ما عدا المادة الزيتية المذكورة دهن يذاب ويستخرج منه زيت مثل زيت الهائشة ولكنه قليل واذا كان هذا الحيوان مريضًا يخرج منه الطيب المشهور بالعنبر فليس هو الاَّ من ابرازات يخرجها عند مرضه فتكون فوق الماء او على الساحل قطعا تقرب القطعة من خمس عشرة اقة والصيادون يعرفون مواضعه فيخرجونه منهـا بمذاري طوال معدة لذلك وقد اخبرني رجل من الامريكانيين ان بعض الصيادين عثر بقطعة من العنبر بلغ وزنها خمسا وستين اقة وليس في ذلك مبالغة منه لان هذا الحيوان يبلغ طوله خمسة وثلاثين مترا ويتغذى هذا الحيوان بالحيوانات الصدفية والحيوان ذي الثمانية الارجل وفيه من الجرأة والبطش ما ليس في غيره فلا يرهب شيئًا من حيوانات البحر الكبيرة ضعيفة او قوية ولا يترك شيئًا يصادفه في طريقه سواء كان انسانا او حيوانا فاذا احس بجربة الصياد في بدنه قصد الزورق مع كمال الشهامة والسرعة ويرفع راسه اليه ويحمل عليه فان لم يتحيل الصيادون في خلاص انفسهم في الحين

هشم القارب ومن فيه من الملاحين بين انيابه الخمسين ولهذا كان اصعب حيوان يتقرب منه الصيادون وكل من يروم صيده يلزمه استعمال كثير من الحيل والتدابير للسلامة من خطره ولهذا الحيوان في السير سرعة عظيمة بحيث يقطع في الساعة الواحدة اثنى عشر ميلا واكثر ونفخه متتابع بين كل نفختين ثانية من دقيقة وعدد النفخ خارج الماء يختلف فتارة ينفخ خمس عشرة مرة وتارة عشرين واخرى ثلاثين ثم ينزل في الماء

---

*

المسامرة التاسعة والسبعون

تتمة قصة يعقوب

ثم قال يعقوب فهذا ما حضرني الان مما سمعت في هذه الحيوانات واعود لاتمام حديثي في السياحة حسب اقتراح سيدي الاستاذ فاقول قد اقمنا في السفينة التي قدمنا ذكرها عائدين الى بلادنا ثلاثين يومًا لم يكن لنا فيها شغل سوى اشغال المركب وحديث بعضنا مع بعض والنظر الى الماء والجو وكنت اميل كل الميل لسماع ما يقال حولي من الاحاديث واذا سمعت شيئًا كتبته وحفظته عندي خوفًا عليه من الضياع وقد جمعت من ذلك شيئًا كثيرًا في كراريس عديدة وهي الان عندي مصونة اعتدها من خير الذخائر اتذكر بها ما مر عليّ من الحوادث ومن اجتمعت بهم من الناس واذكر بها من احسن اليّ ومن اسآء عليّ فهي بالنسبة

لي احسن ثمر اجنيه واثمن متاع اقتنيه لان طول هذه المدة لم يساعدني الدهر فاكون من ارباب المناصب العالية ولا اكتسبت مالاً يقيني نكبات الايام العادية وقد بلغت خمساً واربعين سنة من العمر وانا لا املك شيئاً غير ما تراه عليّ من الثياب وثلاثين جنيهاً انكليزيًا اجرة ثلاثة اشهر كانت لي عند القونبانية اخذتها حين لحقت بحضرتكم وكل ما اكتسبته في الايام السابقة ضاع وذهب سدى فمنه جزء ضاع في مصر وجزء عظيم كنت اودعته عند واحد من الناس فادعى انه سلمه اليّ بالزور والبهتان واقيمت بيني وبينه قضية كانت له عليّ فيها الغلبة لمعرفته بكثير من الناس امكن له بواسطتهم غش المأمورين بالتحقيق فحكموا له عليّ فتخلص وضاع المال عليّ ومع ذلك فانا احمد الله على هذه القسمة ولست متأسفاً على ما فات ولا متكدرا بما صرت اليه من الحال في هذه الاوقات

ولا نبالي اذا ارواحنا سلمت * بما فقدناه من مال ومن نسبِ

فلما انقضت مدة هذا السفر ودخلنا سواحل بلاد الانكليز احاط بجميع من في السفينة مزيد الفرح والسرور والانس والحبور لان كلا منهم كان يترقب الاجتماع باخوته وقرابته واهله واحبته وصار كل يعانق صاحبه ويهنئه بالسلامة ويعده بالاجتماع في اماكن معينة وعلى ذلك وصلنا مينا لوندرة فلبس كل واحد افخر ما عنده من اللباس وتهيأ للخروج وانا كذلك في جملة الناس تهيأت للخروج فاحضرت خرجي واحتملته على عاتقي واردت ان

اخرج واذا بصاحبنا السائح الذي كنت معه حضر لديّ وقال لي
ماذا تصنع فقلت اريد الخروج الى المدينة فقال انت رجل فقير
ولا تعرف الناس ولك اخت فقيرة محتاجة كل الاحتياج واخشى
ان تستهلك ما عندك من الدراهم في الصرف على نفسك وتبقى
صفر الكف فقلت له وما الرأي فقال الرامي عندي ان استحسنته
ان تكون معي في منزلي فهو خير لك فشكرت صنيعه وحمدت الله
سبحانه حيث جعل لهذا الرجل العظيم الحنو والشفقة عليّ ثم اكترينا
عربة وضعنا بها ما لنا من المتاع وركبنا معًا وتوجهنا سائرين وبعد
توطني اخذت اسأل حتى عرفت محل اقامة زوجة القبطان المتوفي
التي كنت جعلت عندها مائتي جنيه فسرت اليها فلما رأتني قابلتني
بمزيد البشر والفرح والطلاقة وقالت لي بعد برهة يسيرة اني لما
وجدت غيابك قد طال ولم يصلني من اخبارك ما يوقفني على
حقيقة الحال جعلت وديعتك التي استودعتنيها في احد بيوت
الصيارفة لاجل النمو لتجد اذا حضرت اكثر مما تركت ثم قامت
وفتحت خزانة عندها واخرجت منها سند الاستلام وحسبت الربح
فوجدته يبلغ مائة جنيه تقريبًا ففرحت بذلك وشكرتها على معروفها
وحسن تدبيرها ودعوت لها ولما اردت الانصراف ابت الاّ ان
اتغذى معها فاجبت دعوتها وصرنا نتحدث معًا قريبًا من ساعتين
سألتني فيهما عن سبب طول الغيبة فانبأتها بقصتي وبما صار لي
ولمن كان معي وكيف نجوت من الغرق ووقعت في يد سكان

افريقة فبكت على ما نابني من المصائب والمصاعب وقالت هكذا حال الدهر ثم انها قامت واخذت بيدي وتوجهنا الى الصيرفي واظهرنا له السند فقال الدراهم عندي حاضرة ان شئت اخذتها وان شئت ابقيتها للربح فشاورتها في ذلك واخبرتها ان لي اختًا يتيمة فقيرة تركتها في خدمة خاتون بمدينة (بورك) ومن حين انفصالنا لم يصلني من اخبارها ولا وصلها من اخباري شي ولست اعلم أ ماتت ام هي في الحياة واريد ان امضي اليها لانظرها فان وجدتها ارسلت لحضرتك خطابًا اعلمك فيه بما يظهر لي في شان الدراهم فاستحسنت رايي وقالت انت عندي في مقام ولدي فلا تتاخر عن طلب ما يعرض لك من حاجة فستجد مني المسارعة الى اعانتك بكل ما قدرت عليه اكراما للمرحوم فعند ذلك قبلت يدها وغيرت السند باسمي وتركت الدراهم عند الصيرفي وصرت معها حتى وصلت لمنزلها ثم توجهت الى السائح واخبرته بقصة الدراهم واستشرته في الذهاب الى (بورك) لاعلم حقيقة خبر اختي وعرفته رغبتي في السفر اليها فوافقني على ذلك وقال لي ان طاب لك المقام ولم ترد ان تعود الى لندرة فاعلم اني لك صديق محب على البعد والقرب فسلني عن كل ما بدالك ولا تقطع عني اخبارك وان اردت الرجوع الى هذه الجهة فانا على ما تحب فشكرته على ذلك وبتنا ليلتنا فلما اصبح الصباح تأهبت للسفر فذهب معي الى

موقف سكة الحديد وبقي معي حتى ركبت العربة ثم ودعني وانفصلنا

المسامرة الثمانون

سوق في باريس

قال ناقل الحديث فبينما هم كذلك حضر الانكليزي وفرع الباب فقام يعقوب وقال في وقت اخر اتم لك سياق الحكاية ودخل الانكليزي فتلقاه الشيخ وولده بالتحية والاكرام واخذ يعتذر لهم عن تاخره ويشرح لهم الاسباب التي عاقته ثم سألهم عن حالهم وصحتهم فشكروا الله واثنوا عليه ثم قال الشيخ انا قضينا هذه المدة مع يعقوب في حديث ما جرى له وما رآه في البحر من حين سفره الى عوده

لبلاده فقطعنا الوقت في لذة الحديث واخبره بما رآه برهان الدين بالامس وقال له انا سألنا يعقوب عن تاريخ باريس وطلبنا منه ان يقص علينا اخبارها فاحال عليك واعتذر بقلة ما عنده في ذلك فقال الخواجا حبًا وكرامة وسنجعل مسامرتنا بعد العود من الفسحة في ذلك لاني احب ان تقضوا ايام الاقامة بهذه المدينة في لذة وطيب خاطر واريد ان اكون دليلكم في الذهاب والعود لاطلعكم على بعض ما لهذه الحاضرة من المآثر الفاخرة والان وقت الطعام فان شئت تطلبه فقال الشيخ لا بأس ثم امر الانكليزي باحضار الطعام في مكانه المعد له وقاموا فاكلوا وركبوا عربة وداروا في نواحي المدينة يتفرجون فاعجب الشيخ بانتظام طرقها وسعتها ونظافتها وحسن اشكال ما فيها من البيوت وما لها من اتقان الصنعة وتناسب الاوضاع واختلاف الصور وزيادة ارتفاع الاماكن وصار كلما ابصر شيئًا واعجبه سأل عنه الانكليزي فيصفه له ويذكر ما حضره من خبر يتعلق به او نادرة تؤثر عنه ويبين له ما طرأ عليه من صروف الحدثان وتقلبات الازمان وتنقلاته من حال الى حال الى ان آل امره الى ما آل ولم يزالوا على ذلك حتى انتهوا الى مكان واسع فيه خلق كثير من نساء ورجال في ازدحام واشتغال ورأوا سقايف من حديد مرفوعة على اعمدة منه وكلها في ازدحام عظيم من كثرة الناس الواردين من المدينة من كل جهة والمنصرفين بعد قضاء اغراضهم فكان الشيخ يرى الناس

في كثرة حركاتهم واختلاف تنقلاتهم وتقاطع مسالكهم اشبه شي
بتيارات مياه مختلفة الاتجاه فاعجبه هذا الموضع زيادة عن غيره
فاحب معرفة امره وسأل الانكليزي عنه وعن الغرض منه فقال
له قبل ان ندخل في شرح هذا المحل لنجلس برهة في احد مواضع
القهوة لنستريح ونزل الانكليزي ومعه الشيخ وولده ويعقوب فدخل
بهم الى قهوة لطيفة الشكل واسعة الارجاء كثيرة الزينة والزخرفة
في جميع جهاتها مبلطة بالمرمر وهي تشتمل على عدة اماكن يوصل
بعضها للاخر وفي كل مكان منها موائد (ترابيزات) بعضها من
الحديد وبعضها من الرخام وحول كل واحدة منها جماعة من
نساء ورجال بعضهم يقرأ اوراق الاخبار وبعضهم يلعب باوراق
القمار وبعضهم يلعب النرد وغير ذلك من آلات اللعب وبعضهم
يشرب قهوة وبعضهم يشرب غيرها من انواع المشروبات فاخذ
الخواجا مكانًا خاليًا في احد الاركان وجلسوا فيه جميعًا ثم بعد ان
جلس كل منهم في مكانه واحضر خادم القهوة جميع ما طلبوه
قال الانكليزي ان هذه السقائف العالية والابنية الخالية معدة
لبيع جميع انواع المأكولات والاسماك واللحوم والفواكه والخضراوات
ولم تكن قبل هذه الايام على ما هي عليه الان من الحسن والانتظام
الذي تراه بل كانت في غاية الضيق والوخامة من عدم التفات
الحكام وارباب الزعامة فكانت من كثرة العالم الذين يشترون
ويبيعون بها يقع ازدحام يضر بالمارين لضيق دروبها وكانت احوالها

ليست مضبوطة وامور الصحة بها مهملة غير مربوطة فكانت تتراكم بها القاذورات وتتعفن منها الطرقات وربما اضرت بصحة اهل الازقة والحارات المجاورين لها فكثر التشكي من سكان تلك الاماكن حتى من اصحاب البضائع ومأموري الضبط والصحة لعدم تمكنهم من اجراء ما تقتضيه المصلحة فلو رايته وهو على ما كان اولاً عليه لانفت نفسك من النظر اليه ولكن لما كانت هذه المدينة بسبب كثرة توارد الناس اليها آخذة في اتساع البناء تكلم ارباب المجالس في هذا الشان فاستقر رايهم على ازالة ذلك الضرر ثم عرضوا ذلك على ارباب الحكومة فصدقوا عليه وصدر الامر للمهندسين بامضائه وعمل رسم بما يقتضيه التنظيم فرسموه وكتبوا معه ما يلزم لمصلحة البلد وصحة اهلها في الحال والاستقبال وقدموه ولكن لم يظهر لذلك اثر الاّ في عهد قريب لانه لم يبدأ في اساسها الاّ في سنة ١٨٥١ للميلاد مع ان التشكي والامر بازالة الضرر كانا قبل ذلك بنحو اربعين سنة وقد تم في سنة ١٨٥٦ وهذا الميدان كله عبارة عن عشر سقائف مغطاة بالواح من التوتيا مرفوعة على عمد من الحديد ومساحتها بما فيها من الخانات والطرقات تبلغ ستين الف متر مسطح عبارة عن اربعة عشر فداناً مصريا ونصف فدان تقريباً وتحت كل سقيفة من هذه السقائف ثلثمائة وخمسون دكانا وهي كما رأيت منقسمة الى قسمين كبير وصغير يفصل بينهما شارع عرضه ثلاثون متراً فالقسم الكبير تبلغ ارضه عشرين الف

متر والصغير عشرة الاف والباقي وهو ثلاثون الف متر مساحة
الطرق والميدان والجنينة التي رأيتها فبسبب هذا الاتساع صار
هذا المحل من احسن ما يرى والطفه فهو وان كان معدًا لبيع هذه
الاصناف الاَّ انه صار معدودا من المحلات التي تهرع اليها الناس
وتجتمع بها للتفسح والاستئناس وتحت هذه السقف جميعها دور من
البناء كله مخازن في اعلا كل مخزن فتحة للاستضاءة ودخول الهواء
وبين تلك المخازن وبعضها طرق عليها قضبان من الحديد
موصلة الى السكة العمومية فترى العربات تسير في باطن الارض
بانواع البضاعة ولا يشعر بها احد ممن هناك من الباعة فبهذه
الوسائل كثر ورود جميع اصناف المأكولات من غير ان يترتب
على ذلك ادنى ازدحام ولا نوع ايلام وصار اهل المدينة على ثقة
من وجود ما يحتاجون اليه لوروده في وقت معين من جميع
الجهات وكذلك اهل البضائع صاروا في امن على بضائعهم من
العوارض التي كانت تعرض لها قبل ذلك هذا خلاصة ما يتعلق
بذات المكان قديما وحديثا واما ما يباع فيه في كل سنة من البقول
ونحوها فشيء كثير وقد احصي ما بيع فيه سنة ١٨٥٦ من الميلاد
فكان مقدار ما بيع من صنف سمك البحر خاصة ٨٫٧٨٥٫٣٢٠
كيلو جرام والكيلو جرام عبارة عن اربعة اخماس اوقة مصرية اعني
ثلاثمائة وعشرين درهما ومن سمك الماء العذب ٩٠٨٢١٣ كيلو
جرام ومن الزبد ١٧٦٠٢٢١ كيلو جرام ومن صنف البيض ما

بلغ ثمنه ٨٦٠٨٦٧١ من الافرنك ومن اصناف الخضراوات ما بلغ ثمنه اربعين مليونًا من الافرنك ومن اللحم ٢٨١٣٦٤٧٣ كيلوجرام ومن النبيذ المباع في براميله على اختلاف اجناسه مليونين من اللترات واللتر رطل انكليزي فبلغ ثمنه نحو خمسين مليونا من الافرنك وما من سنة الاّ وتزيد على ما قبلها

فقال الشيخ كذلك يجب ان تكون المدن التي وضعها على ان تكون مسكونة باهل الصناعات واصناف التجارات يرد اليها القرويون والغرباء بانواع الحيوانات الموقرة بالبضائع المختلفة وهذا من الامور المعقولة التي تضطر اليها طبيعة الاجتماع البشري فكلما مست الحاجة لسعة الطرق لزم ان توسع حتى تندفع الحاجة ويأمن الناس من الاصطدام والاصطكاك ويسلموا من اذى الازدحام فعند ذلك نظر الى الشيخ صاحبه كانه يذكره امر مصر فقال سألت بعض المعمرين بمصر عن الاسباب التي دعت اهلها لتضييق الطرق فقال حدثني بعض اسلافنا بما عاينت طرفًا منه وهو ان مصر كانت مسكونة بامم مختلفة الطباع متباينة الاخلاق لا تزال العداوة بينهم قائمة والشرور محتدمة فكان من عرف نفسه بالقوة متسلطًا على الضعفاء بالنهب والسلب مجاهرة يجوسون خلال الديار ويتسورونها فرأى الناس مدافعة تلك الشرور بتضييق الطرق حيث لا يمكن للكثير ان يمروا بها جملة واحدة واذا دخلوا اوزاعا تمكن الناس ان يحذفوهم بالاحجار فقل النهب من داخل البلد وبقيت كثيرة

في الاطراف وبذلك السبب كان المصريون يتخذون ابواب الدروب صغيرة مستورة الوجه بالمسامير المفرطحة الروس لتكون لها بمنزلة الدروع فلما هدأت الفتن وعم الامن وغلبت السلامة اخذت مصر في محاسن الاحوال ولطائف الاشكال من طرق بالغة في السعة وابنية متراصفة متناسقة تؤمن فيها غوائل المرور ويطيب الهواء وتصلح للاقامة وذلك من حسنات الدولة القائمة بامرها حرسها الله وكان لها رداء معينًا وركنًا حصينًا فانها لم تزل ناظرة في اسباب العمران واتساع دائرة الامن والرفاهية وحسن تعاون طوائف الناس بعضهم لبعض وشواهد الاحوال ناطقة بان ذلك لا يزال على احسن غاياته فالناس مقبلون على تعلم الالسنة وقرآة الكتب واجتناء ثمرات العلوم ومن العادة ان الانسان اذا ترك حالة الى احسن منها بذل جهده في تغيير ما لا يرضاه فاين مصر الآن مما كانت عليه ولو بعد بقايا كثيرة من ضيق الطرق واختلاف الابنية بالدخول والخروج وسوء الوضع الموجب لوخامة الاهوية واضطراب الامزجة وتزاحم الناس واشتغالهم بما يقل نفعه ويكثر خسرانه ثم ما احسن اتخاذ مثل هذا الميدان فانه ربما كان سببًا لكثير من المرافق كسرعة عود ذوي الاشغال الفلاحية الى اشغالهم بعد فراغهم من شان منقولاتهم وكضبط الاسعار وقلة التغابن فان الفلاح يبيع بضاعته جملة ثم اهل التجارة فيها يوزعونها حسب طلب الجهات بخلاف ما اذا كان الفلاح يتولى توزيعها بنفسه

عطلته زمناً طويلا وربما بارت عليه وبالجملة فاتخاذ الطرق لتسهيل المعاملات بحسب الامكنة والازمنة امر لا شبهة في حسنه

فقال الانكليزي هو كما قلتم لا سيما اذا كانت الامة مراعية للشركة العامة والمصالح الشاملة غير مهملة لها وقتا ما ثم قاموا سائرين وهم يتحدثون فيما يمرون عليه الى ان وصلوا محلهم فاجتمعوا جميعا في غرفة الشيخ فطلب برهان الاذن من والده بالتوجه مع يعقوب الى البالّو فاذن له وبقي الخواجا مع حضرة الشيخ

المسامرة الحادية والثمانون

باريس

فقال الخواجا قد طلبتم مني ملخص تاريخ هذه المدينة واصل
وضعها فقال له الشيخ نعم فقال لا يخفى ان حالها الآن ليس كحالها
في غابر الازمان بل لا نسبة بين الحالين لان جميع ما تراه من
الابنية الحسنة والشوارع الواسعة المستحسنة وان كان كله من
نتيجة افكار المتقدمين الّا انها لا يوجد بها الآن اثر من الآثار
الاولى لان كل جيل اتى يغير من اثار قبله فبتداول الازمان على
هذه المدينة وصلت الى هذه الدرجة التي صارت بها منفردة بين
المدن وبلغت من الفخر الغاية ومن الشهرة النهاية حتى شهد لها
غيرها من سائر المدن انها فازت بجميع انواع اللطائف وحازت
اصناف الزخارف ومع ذلك فلم تزل كل يوم تنتقل من حال

الى احسن وتجدد بها من انواع الحسن في كل يوم ما لا يتجدد بغيرها في زمن فهي في الثروة ليس لها مثيل وما تبلغه في زمن قليل لا يصل اليه غيرها في زمن طويل وهلم جرا وكل من رآها في سنة ثم رآها في اخرى قال انها تغيرت الى شكل احسن مما كان وليس في الامكان حصر ما بها من الغرائب ولا ضبط ما يحدث فيها من العجائب فان الانسان ولو اطال بها المقام واتخذها وطنًا مدة من الاعوام لا يمكنه حصر بعض ذلك ولا الوقوف على ما يحدث فيها كل يوم من البناء والمسالك ومع ذلك فاني اذكر لحضرتكم ما يحضرني من تاريخها فاقول لا يخفى ان بين كل مملكة وكرسيها ارتباطا كارتباط الجزئيات بالكليات لان كرسي كل مملكة اصل في حوادث مملكته وحوادث كل مملكة راجعة الى كرسيها سواء كانت الحوادث دينية او دنيوية فمن اراد التكلم على احداها اضطر الى التكلم على الاخرى وشرح الكلام في هذا يطول فلا نذكر الاّ ما هو ضروري فنقول

من المعلوم ان الجزء اصل للكل وان الفردية سابقة على الزوجية وان العدم سابق على الوجود وان اصل الاعداد الواحد فاذا تمهد ذلك فلا مانع من ان يكون اصل كل مدينة او قبيلة ناس قليلون ثم يتزايدون شيئًا فشيئًا اما من نسلهم او ممن ياتي اليهم طمعا في ارزاقهم او احتمائه بهم فهذا هو اصل اتساع المدن والقبائل وكثرة اهلها

فقال الشيخ هذا كله مقبول ومعقول وقد اصابوا فيما فعلوا حيث تخيروا هذا الموضع وجعلوه مقراً لهم فقد وجد فيه ما ذكروه في اتخاذ المدن حيث قالوا يجب في كل موضع اريد اتخاذه مدينة ان يكون مشتملاً على ما يقي من المضار وتسهل به المنافع والمرافق فاما ما يقي من المضار فبأن يدار حولها سياج الاسوار وان يكون وضعها في ممتنع من الارض اما على جبل ليصعب على العدو صعوده واما ان يحيط بها بحر ليصعب عليه عبوره وكذلك مراعاة الوقاية من العوارض الجوية بان تكون طيبة الهواء لان الهواء اذا كان خبيثاً بان كان ساكناً او مجاوراً لمياه فاسدة او لمناقع متعفنة اضر بما حوله من انسان وحيوان كما هو مشاهد واما ما تسهل به المنافع والمرافق فامور منها وجود الماء العذب والمرعى وقرب المزارع والاشجار منها للاحتطاب والبناء لان قرب ذلك يسهل على الساكن مرافقه ومنها قربها من البحر لتسهيل الحاجة القاصية من البلاد النائية فاذا لم تراع هذه الامور في المدينة قبل اختطاطها اسرع اليها الخراب كما وقع في بعض مدن العرب التي اختطوها بالعراق وافريقة والكوفة والبصرة والقيروان حيث لم يراعوا فيها الاّ الأهم عندهم من مرعى الابل وما يلزم لهم من الشجر ولم يراعوا الماء العذب ولا المزارع ونصوا ايضاً انه يجب في المدن الساحلية ان تكون في جبل او بين امة موفورة العدد والعُدد للاستنصار بها اذا دهم العدو لان المدينة اذا لم يكن بقربها عمران ولا طريقها

وعرًا كانت طعمة لكل من ارادها واظن ان هذه الامور جميعها كانت متوفرة فيها حين وضعها

فقال الانكليزي لا شك ان معظم هذه الامور متوفرة في هذا الموضع لان النهر موجود فيه وكذلك هواؤه خالص نقي والحجر عندهم كثير للبناء به بدل الخشب فهذا هو السبب في اختيار هذه البقعة والاقامة بها وكان ابتداء وضعها حين كانت الارض كلها سائلة وتفرق الخلق عن سطحها وعذرهم في عدم استيفائهم بجميع شروط الاختطاط ما ذكره المؤرجون من ان هذه البقعة وغيرها قبل ان تسكن لم يكن بها الاّ آكام وصحارى مملوة بمياه ملحة واستدلوا على ذلك بوجود اجزاء حيوانات بحرية واصداف عثروا بها خلال اجزاء الاحجار والظاهر ان محل باريز قبل ذلك وبعده بزمن طويل كان مغمورا بالماء وفي صورة خليج وان كان مدن (منت · ودروه · وفونتينبلو · ونومور · ومونترو) وغيرها كانت على شواطئه وكان وسط الماء اماكن مرتفعة كالجزائر وكانت سواحله خالية من النبات والمخلوقات ليس بها الاّ الصدف وميتة السمك ونحوه من الحيوانات البحرية وبعد انقضاء تلك الايام صار الماء ينحسر والارض تجمد شيئًا فشيئًا فكان كلما انحسر الماء عن موضع كسي بالنبات والشجر حتى كثر ذلك فاوجد الله بين تلك الاشجار انواعًا من الحيوانات فظيعة المنظر مهولة الخلقة فصارت تتناسل وتنتشر في جميع البقاع وبقيت هذه البقعة على حالها الى ان

جاء طوفان نوح عليه السلام وكان خروجه من الجهة الجنوبية الشرقية فقلع الاشجار والنبات وغرق اكثرما على وجه الارض من الحيوانات ولم ينج منها الاّ القليل فاختلط بعضه ببعض وتناسل حتى ملأ الارض فلما قضى الله ما اراد من الخراب وسكنت الارض بعد الاضطراب وعمرت بما بقي من نوع الانسان تفرق الخلق في ارجائها وعمروا نواحيها فكان منهم طائفة وهم على ما حققه المورخون قوم من اهل الصين ذهبوا الى تلك الجهة وكان مأواهم حين نزولهم بهذا الموضع الخيام كعرب البادية فلما سكنوا بها وعمروها سموا جال اي زراع الارض وكانوا قبائل وعشائر ولكل طائفة رئيس يحكم فيها وينظر في دعاويها ويقودها في الحرب وكانوا يصدقون بوجود الخالق ويسمونه هوذ ومعناه الخالق الاكبر المؤثر في الكون ولكنهم كانوا يعتقدون ان معه الهة اخرى وان كل اله موكل بقوة من القوى المؤثرة في تدبير الكون وهذا الاعتقاد يشبه اعتقاد اليونان فانهم يقولون بتعدد الآلهة وان منها ما هو موكل بنار الدنيا وما هو موكل بالرعد وما هو موكل بالانهر والخلجان الى غير ذلك وكانوا يزعمون ان ديانتهم ماخوذة عن توت اي ادريس عليه السلام وانه الاصل في جميع الفنون والصنائع والمزارع وكانت اعيادهم وقت دخول الفصول في بعضها فيكثرون فيها من شرب المسكر وتعاطي المنكر ويقربون من الادميين لآلهتهم قربانا ولم يزالوا كذلك الى قبيل ظهور الديانة المسيحية بنحو سبعمائة سنة فهاجر من

جهة أسيا الى حدود البحر الاسود عدة قبائل فوجدوا هناك قوماً يسمون كيرميس فازعجوهم من مساكنهم وسكنوا مكانهم فرحل الكيرميس الى جهات نهري الطونه والرين واقاموا بارض الجول التي هي الان فرنسا فتدينوا بديانتهم ورفضوا الديانة القديمة ثم انتشروا في بلاد الانكليز وهولانده وسكان بلاد الجول اي فرنسا الى الان يتكلمون بلغة الكيرماسيين فلما ارتحل الكيرماسيون الى ارض الجول تخيروا منها موضعاً وبنوا به مدينة سموها (دروه) وجعلوها مركزاً لاهل ديانتهم كمدينة رومة الموجودة الآن لاهل الديانة المسيحية وكانت تسمى هذه البقعة بالارض الوسطى ومركز الديانة العامة ومقر العلماء والمحبين لازميس وما قدمناه في شانهم من الاعتقاد انما هو معتقد كهنتهم ومن تبعهم

واما عوامهم فكان اعتقادهم مجرد اوهام وتلبيسات تلقيها اليهم كهنتهم فكانوا يكتمون عنهم عقائدهم التي يعتقدونها ليمتازوا بها عنهم ومن جملتها اعتقاد وحدة الاله وانه الذي لا نهاية لعلمه وان كل ما اراده في الكون من خير او شر لا بد ان يكون وانه الخالق لكل شي الذي يهيء كل ما خلق لما خلق له فيرفع اهل السعادة الى الدرجات العلى وهي دار النعيم ويخفض اهل الشقاء الى الدرك الاسفل وهو محل العذاب المقيم والدرك الاسفل عندهم عبارة عن الفراغ المطلق والدرجات العليا عبارة عن المحل الذي تقيم فيه الارواح المنعمة وان الانسان اذا ارتكب خطيئة او ذنباً ثم مات

نزل الى الدرك الاسفل اعني الفراغ الذي خرج منه وان كان
جاريا في عمله على مقتضى علمه لا يرجو به حصول ثواب ولا فرارً
من عقاب كان مآله النعيم المقيم وان كل من فترت عن الطاعة
قواه اهبط الى الدرك الاسفل وكان قرينه الشيطان الذي اضله
واغواه واقام في دار الشقاء والندامة وحرم من انواع اللذة والكرامة
واما من صعدت روحه الى ارواح الابرار فانه لا يجد ما يؤلمه في
تلك الدار بل يكون دائمًا في عز وصيانة آمنًا من الوقوع في الذل
والاهانة متحليًا بجميل الصفات كالراحة الدائمة وحسن الافعال
ونور الذات متخليا عن سائر الرذائل اقلها المذلة والخوف من القلة
ومن الكيرماسيين قبيلة تسمى البلج ومعناها في الاصل المحاربون ثم
اطلقت على سكان مملكة البلجيقا وتسمى عند مؤرخي العرب بالفلمنك
تحولوا من شاطئ نهر الرين الى جهة الجلوانيين وهم القاطنون
بشواطئ نهر الوان فاذنوا لهم في المقام معهم واختلطوا بهم ومن ذلك
الوقت سموا بالباريزيين اي سكان الوان هذا ما يحضرني الان
من خبر هذا الموضع وسكانه واما طباعهم فكانت وقت ذاك وحشية
واجسامهم عارية وعوراتهم بادية وكانوا يسمون اجسامهم ويتركون
شعر رؤسهم حتى يصل الى اكتافهم وكانت القبائل التي حولهم
تشهد لهم بالقوة وتخشى باسهم وكانوا اذا خرجوا للحرب وقتلوا احدا
علقوا راسه في عنق الخيل للفخر وجعلوها آنية يشربون بها الماء
والخمر وكانت الارض التي نزلوا بها اذ ذاك ضيقة لان الجوليين

محيطون بها من كل جانب فلما استقروا فيها اخذوا يرتادون محلا
يجعلونه مركزًا لحكومتهم فاختاروا موضعًا جهة نهر السين كان به
سبع جزائر يقرب بعضها من بعض فبنوا فيه مدينة جعلوها مقر
التخت وسموها لوتيس وكان ذلك قبل هجوم الرومانيين على ارض
الجول واستيلائهم عليها بمدة كبيرة فهذه المدينة التي تراها ويعجبك
ما فيها من المباني الفاخرة وزيادة ثروة اهلها قد عوضت لوتيس
القديمة بعد استيلاء الرومانيين عليها وكان بناء لوتيس من خشب
واغصان شجر ومساكنها ضيقة منخفضة ليس بها منافذ ولبرودة ارضها
كانوا يستعملون تنانير كاهل ريف مصر وكانت خالية من المعابد
فاذا ارادوا ان يجتمعوا وقت الاعياد والمواسم خرجوا الى صحراء
قريبة منهم فيجتمعون بها وكانت معائشهم من الزروع وكانوا
يزرعون فيدخرون مؤنتهم ويتجرون فيما فضل عنها ولخصوبة
الارض وحسن منبتها كانوا في ثروة وطيب عيش ثم حصل لهم بعد
ذلك اضطراب فتضعضع حالهم وآل امرهم الى الخراب وسبب ذلك
ما قرأته في بعض الكتب وهو ان الرومانيين في تلك المدة بعد
تخريبهم لبلادهم واستيلائهم على لوتيس مقر تختهم كما قدمنا كان
تحت قبضتهم قبائل من الجال خرجوا عن طاعتهم ورفعوا لواء
العصيان عليهم فلما رأى الروم ذلك وكانت عساكرهم متفرقة في
الحرب الى جهات متعددة وليس فيهم كفاية لمقاومة الجميع دبّر
قيصرهم في ايقاع الفتنة بين تلك القبائل وقال لاهل مشورته انّا

لا تتمكن منهم الاّ اذا وقع الخلف بينهم فارسل اولا اليهم يطلب
منهم مددا فابوا جميعًا فطلب منهم خيلا فمنهم من اجاب ومنهم من
امتنع ووقع الخلف بينهم فتمت حيلته وتوجه بعسكره اليهم فخرب
مدينتهم لوتيس مع جزائرها السبع وقتل من قتل وأسر من أسر ومن
ذلك الوقت غيروا اسم لوتيس بباريز واشتهرت بهذا الاسم الى الان
وهذه الحادثة كانت قبل ظهور المسيح بخمسين عامًا ومن ذلك الوقت
اختلط الرومانيون بالباريزيين وصارت ديانتهم واحدة ومكث
الباريزيون واهل فرانسا تحت حكم الرومانيين نحو الف سنة فكان
القياصرة يتوارثونها قيصرًا عن قيصر ولم ينازعهم احد منهم في ديانتهم
فبنوا بالمدينة معابد وهياكل واعلوا بنيتها ونظموا شوارعها ووسعوا
اسباب متاجرها ومزارعها وما زالوا كذلك الى سنة ٢٤٥ ثم لما
ظهرت بها الديانة العيسوية كان كلما كثر اهلها تقهقر حالهم ولكن
بقيت اهل الديانة العيسوية الى القرن الثامن من غير رئيس ومع
ذلك فكانت الديانة العيسوية هي الغالبة فلما حصل القول بباريز
بربوبية عيسى عليه السلام حدثت الكنائس ورتبت القسس
فتفرقوا في مواضع كثيرة فكان العيسويون بشاطئ نهر السين
وان واما المتمسكون بالديانة القديمة فكانوا متفرقين في مواضع
كثيرة ولكل طائفة رئيس منها يسوسها ويحكم فيها الاّ ان طائفة
الفرنج وان كانت قليلة العدد كانت تميل الى السلب والنهب
فكانت الحرب بينها وبين من جاورها من الباريزيين وغيرهم لا تنقطع

وكانت جميع القبائل تحسب حسابها وتهاب حربها وذلك لانها التقت مرة مع جيش الرومانيين فهزمته وكانت لا تبلغ اربعة الاف وجيش الرومانيين اكثر من ذلك باضعاف فمن ذلك توهموا شجاعتها وهابوا سطوتها الاّ ان الباريزيين عرفوا كيف يتخلصون من شرها ويامنون من ضررها وذلك انهم استمالوا قلوب الفرنج حتى ادخلوهم في ديانتهم وزوجوا اميرهم بنتا من بنات ساداتهم وملكوه عليهم فعدل فيهم واحسن سياستهم وذب عنهم من ناواهم حتى خلصهم من ذل الفرنج وقبضة الرومانيين وحكمهم عليهم وكان ذلك سنة ٤٧٥ من الميلاد فامنوا على انفسهم واموالهم وزادت ثروتهم وحسنت عيشتهم وملأت المعمورة شهرتهم ولاجل تاكيد الالتئام والائتلاف ودفع توهم العود الى ما كانوا عليه من الخلاف بنى ذلك الملك كنيسة باسم الحواريين اي انصار عيسى وهم بولس وبطرس واوصى ان يدفن فيها اذا مات ففعلوا وكان اسم من زوجوه بنتهم كلوفس وهو الذي قتل جميع اقاربه وكانوا ملوكًا فاستحوذ على مالكهم وخلف من الذكور اربعة فلما مات قسموا المملكة بينهم فتملك احدهم على باريز والثاني على ستير والثالث على سواسون والرابع دليان ثم مات ملك دليان وخلف ثلاثة من الاولاد فاتفق ملك باريز وملك سواسون على قتلهم وقسمة مملكة ابيهم بينهما فارسلا الى والدتهم رسولا يخبرها بان ترسل الاولاد الى عاميهم ليربوهم ويعلموهم السياسة الملوكية لانهم سيصيرون ملوكا

فتوجه اليها الرسول واخبرها بما قالوه فصدقته وارسلت الاولاد الى اعمامهم ثم ارسلوا اليها رسولا ومعه سيف ومقص وقالوا له مرها ان تختار ايهما شاءت ويخبرها انها اذا اختارت المقص فلا حق لاولادها في الملك واذا اختارت السيف فلا بد من قتلهم فلما وصل اليها واخبرها بما قالوه قالت اختار السيف وقتلهم اسهل عندي من بقائهم محرومين من حقوقهم فرجع الرسول واخبر اعمام الاولاد بما قالته امهم فقام احد اعمامهم وضرب احد الاولاد بخنجر فخر ميتا والتجأ الثاني الى عمه الثاني فلم يمكنه حمايته من اخيه وخلى بينه وبينه فقتله واما الولد الثالث ففر من بينهم ولم يوقف له على خبر ويقال انه دخل ديرًا ولم يخرج منه حتى مات وفي ايامهم حسنت حال اهل هذه المدينة وتقدمت الملة العيسوية الّا ان ملكهم مات ولم يعقب الّا ولدًا واحدًا فتملك بعده ولم تطل مدته بل مات ايضًا ولم يخلف سوى بنتين فاتفق عماه على ان يقتسما مملكة باريز وان لا يجعلاها مقرًا وان لا يدخلها احدهما الّا ومعه الاخر فمضى الامر على ذلك وهجرت باريز ولم يبقَ فيها الّا اهاليها ولما كانت سنة ٥٨٤ من الميلاد خطب ملك الاندلس لابنه ابنة ملك سواسون فاجابه وجهزها له وارسلها في موكب عظيم جمع فيه اولاد امراء باريز واعيانها وامر ان يمروا بالموكب من وسط المدينة ففعلوا ومات اكثرهم في الطريق لبعد المسافة الّا انه لم تطل ايامه بل عجل له حمامه ولم يعقب الّا زوجة وولدًا رضيعًا وكانت

امه مالأت قوما واغرتهم على قتل ملك ميتز فلما لم يتم ذلك خافت على نفسها منه فاخذت ابنها وذهبت به الى باريز وكان رئيس الديانة بها يومئذٍ رجل من ذوي المروءة والفتوة المشهورين بالشجاعة والقوة واجتمعت به فانزلها عنده وأكرم نزلها وكانت الحرب في ذلك الوقت قائمة وعيون الفتن مستيقظة غير نائمة والفرنج منقسمة قسمين كل قسم منعزل بموضع والعدوان من بينهم لا ينقطع لكن كان القسم الغربي يميل الى السلم ويغلب عليه طبع الحلم لما عنده من عوائد المتمدنين حتى كان يعد من الرومانيين واما القسم الشرقي فكان يغلب عليه طبع الخشونة والتوحش ثم ان تلك المرأة بعد ذلك ذهبت بابنها الى ملك البرجون واستغاثت به في ابقاء ابنها في ملك ابيه فشمر ذلك الملك عن ساعد الجد وشد منها العضد واخذها وذهب بها الى باريز فصادف دخوله يوم الاحد وهم مجتمعون للصلاة فدخل الكنيسة وتلا عليهم مقالة حثهم فيها على ان يساعدوه على ملك ميتز وان يمنعوه عن باريز اذا قصدها فاجابوه الى ذلك فلما جهز ملك ميتز جيوشه واتى بها الى باريز لم يتأخر من اهلها احد بل قاموا جميعا عليه وقاتلوه حتى ارتد بجيوشه خائبًا وصار مطلوبا بعد ان كان طالبا وامنت باريز من ذلك الوقت من طروق الحوادث ولم تمتد اليها يد عادٍ ولا عابث الى سنة ٨٢١ انما كان يحصل بها احيانًا بعض حوادث كقحط ووباء ومرض وغلاء ومع ذلك كان اهلها يتزايدون الى ان كانت سنة ٨٤٥ للميلاد فاغار

الجرمانيون عليها وهي اول غارة اغاروها على فرنسا فقتلوا رجالها
ونهبوا اموالها واستولوا على ارضها وكان ملكها وقتئذٍ شارل الاصلع
فلما عجز عن مقاومتهم ويئس من الخلاص من يدهم طلب الصلح
معهم فصالحوه على ان يدفع لهم ٧٠٠٠ ليرا فاعطاها لهم فاخذوها.
ورجعوا الى بلادهم ثم بعد عشر سنين رجعوا ثانيا فاعطاهم كذلك
فلما علم الجرمانيون ضعف الفرنسيس وعدم مقاومتهم لهم لم يقنعوا
بالمال بل طمعوا فيهم فصاروا ياتون كل عام لنهب اموالهم وسبي
ذراريهم وقتل رجالهم وهدم معابدهم وهتك حرمة مقدسيهم ولكن
لمحافظة الفرنسيس على حرمة مقدسيهم كانوا اذا استشعروا بقدوم
الجرمانيين يقدمون موارأة المقدسين على محافظتهم لانفسهم وفي سنة
٨٨٥ اغاروا على المدينة غارة كبيرة فدافع عنها اهلها مدة ثم حاصرها
الجرمانيون وضيقوا على اهلها وقتلوا من عثروا به في ضواحيها من
نساء ورجال واطفال والقوا رممهم في الخنادق وطال الحصار
فحصل لاهل البلد ما لا مزيد عليه من الكرب لقلة الزاد وتعذر
وصول الميرة اليها فجاء الملك شارل ودخلها بعد محاربة جرت
بينه وبين الجرمانيين ولكنه رأى من الصواب ان يصطلح معهم على
ان يدفع لهم مبلغا فاخذوه وانصرفوا ولكن كان النهب في البلاد
الاخرى لم يزل واقعًا واذا سالوهم عن فوائد الصلح يقولون لهم ان
ما اخذناه وجرى عليه الصلح انما هو عن باريز خاصة فزاد كرب
الاهالي من هذه الافعـــال الشنيعة التي هي من اثار توحشهم

وخشونتهم وقسوة قلوبهم ولما رأى اهل باريس ان ذرية مينار وهم ابناء ملك مينار قد غلب الجبن على طباعهم ونزلوا في الهمة الملوكية عن اوضاعهم وتغير شعارهم وكادت ان تخرب من القتل والسلب ديارهم وان استمرار الجرمانيين على هذه الحال مما يزيد في امرهم الاختلاف اجمعوا امرهم على ان يجعلوا لها ملكا وان تعود باريز الى ما كانت عليه من الاستقلال فولوا عليهم رجلا يسمى اود ورضوا حكمه فعمل لهم قوانين مشوا عليها ثم ان القرال الاكبر المسمى اشيل وكان مقره اذ ذاك مدينة ايكس انكر على الباريزيين امرًا حصل منهم فخرج اليهم بجيوشه وقتل رجالهم ونهب اموالهم وتغلب على مملكة باريز ولكن لم تطل مدته ولم يوجد من يقوم مقامه في مملكته من ذريته واهل دولته فولوا مكانه رجلا اسمه هوج كابي فسار فيهم احسن سير ودبر لهم كل ما فيه خير وجدد لهم مصانع ومعالم ظهروا بها بعد خمولهم بين العالم وقويت في ايامه شوكة الدولة الفرنسوية وصار لها شهرة بين الامم وشهد لها جميع الدول التي حولها من انكليز وعجم وجدد بها مدارس وورد اليها من اصناف التجارة ما لم يرد في ايام من قبله وضم اليه من اهل المعارف من ساعده وقوى في تدبير المملكة ساعده وكانت بيوتهم دورًا واحدًا من خشب فلما اتسعت عليهم الارزاق وانتهم التجارة من سائر الافاق بنوها بانواع الاحجار وجعلوها ثلاثة ادوار الدور الاول معقود كالقبة والذي فوقه مسطح ومرصص بالخزف واللبن وفتحوا في

الثالث شبابيك ووجد بالمدينة كل ما يلزم لاهلها من سلاح وملبس وطعام وكثرت بها العمارات والحوانيت في تلك الايام وثارت في ايامه فتنة بينه وبين الامراء القاطنين بالارياف وكان من حزب الملك الاشراف فحسم امرها واطفاء شررها وكانت احكام الديانة في ايامه تؤخذ بالتقليد المحض والنقل البحت سواء كان المنقول صحيحًا او غير صحيح ومعقولاً او مخالفًا للعقل

واستمروا على ذلك الى ان بنى بطرس ابيار وهو احد اغنياء الامراء اذ ذاك مدرسته بجبل المقدسة ودرست فيها الفنون فانطلقت السنتهم واتسعت دائرة معارفهم وكان اهل هذه المدينة في ذلك الوقت يبيعون ماكولاتهم في اماكن متعددة غير منتظمة ولم يكن بها معرض عمومي كالذي رايته وكانت عرضة للحوادث السماوية كالمطر والشمس الى ان كانت ايام الملك فيليب اوغست فامر بعمل سقائف وعين لكل سقيفة نوعًا يباع تحتها ويستظل اهله بها وهو الذي بنى سراية اللوفر وفرش شوارع المدينة بالحجر واول من بنى خانات للفقراء وابناء السبيل وعمل اسوارًا حول المقابر وتقدمت في مدته الفنون والصنائع فكانت ايامه كلها منافع لكن كانت ادارة البلاد محالة على مشائخها فظلموا اهلها وامتدت ايديهم الى اخذ الرشوة في الحكم وكانت المناصب تباع وتشرى ولا يولى فيها الاّ من بذل لاجلها المال او كان من اقارب شيخ البلد او اهله فحصل لاهلها من الذل والاهانة ما لم يسمع بمثله وخربت البلاد وتفرق

اهلها الى ان هلك فيليب وتملك بعده سنلويز وكان يميل لاهل الديانة والانصاف ويحب عمارة البلاد وينفر عن الظلم واهله فنشر عليهم الوية عدله وامر بابطال ما فيه شائبة ظلم من اصله ورتب لمأموري الاحكام مرتبات من طرف الدولة وانتخب من اهل كل بلد رجلا معروفًا بالصداقة ولاه عليها فعمرت البلاد وتراجع اهلها وزادت عدتهم وربحت في ايامه تجارتهم وعمل قوانين ونشرها في مملكته فيها بيان ما يجب على المحترفين في حرفتهم جزاء ارباب الجنايات ومن احكامها ان يكون اداني الناس واسافلهم في جهة مخصوصة وقد كانوا منتشرين في البلد لا يتميز ذو الشرف من الوضيع ولا الدعي من ذي النسب الرفيع ورتب مجلسًا للنظر في تنظيم البلد وجعل على ارباب الحرف اموالا تصرف في ذلك وقدر للباريزيين اوقاتهم بضرب الدفوف فكانت تضرب وقت الفجر لايقاظهم من نومهم ووقت الزوال لغذائهم واستراحتهم من اعمالهم وجعل في الكنائس نواقيس تضرب وقت العشاء فاذا ضربت امتنع عليهم الخروج من منازلهم الاّ من كان معه اذن من ضابط البلد او شيخها ووضع على ابواب الدروب سلاسل باقفال فكانوا اذا جاء الليل قفلوها فلا تفتح الى طلوع الفجر ورتب على ارباب الصنائع خفرًا يدور بالليل حول البلد وداخلها وعليهم مفتشون فاذا حدث امر كتبوه وعرضوه على الملك والمأمورين واصدر امره ان لا يعافى من الخروج الى الخفر الاّ ارباب الديانة وذووا

العاهات والزمانة وطائفة المعمار والضربخانه وروساء الحرف وجعل على كل من لزمه الخفر ولم يخرج له مائة وخمسين فرنكًا في كل سنة الاّ أن بعض الناس كان يحتمي ببعض الامراء فيتخلص بهم من اداء ما يجب عليه وربما وزعوها على غيرهم فاشتكت الفقراء ذلك اليه فصرفها عنهم والزم بها اهل الحرف خاصة وقتئذٍ وكان عدد اهالي باريز ٨٦١و٢١٥ نفسًا وعدد كنائسها ٣٦ لكن لم يبقَ الان منها واحدة على حالها بل منها ما هدم وبني ثانيًا ومنها ما ازيل بالكلية وفي زمن فيليب اشتدت رغبة الناس في سكنى باريز فاشترط انه اذا اراد احد درج اسمه ضمن عدادها لا يجاب الى ذلك الاّ اذا توجه الى شيخ البلد واشترى قطعة من ارضها وان يتم بناءها في سنة وان لا ينقص قيمته عن ثلاثمائة فرنك ويشهد عليه بذلك شاهدين ويشرط عليه ايضًا ان يحضر اوقات الاجتماع كالمواسم والاعياد ومن ذلك الوقت صار اهلها درجات

الاولى اهل الديانة وهي التي لها الكلمة على اهل الملة ورئيسهم منهم

الثانية الامراء ووجوه الناس والاغنياء

الثالثة اصحاب الاملاك والمتوسطون من الاغنياء ورئيس هاتين الدرجتين الملك

الرابعة الاغراب

الخامسة رعاع الناس وآحادهم ودرجة هاتين الطائفتين

كدرجة الارقاء فلا يخرجون من يد الأ وقعوا في اخرى وحدث
في ذلك العهد شقاق بين الملك والبابا في شان ارض فرنسا لان
البابا كان يقول ان جميعها من حقوق الكنيسة والملك يمنع ذلك
فاجتمع ارباب الحكومة واجمعوا على حسم هذه المادة واتفقوا على عقد
مجلس مشتمل على ثلاثة عشر من الاشراف ومثلهم من رؤساء
الديانة ومثلهم من اعضاء مجلس المدينة وسموا ذلك المجلس مجلس
النواب لان كل صنف من رجاله نائب عن طائفة وعينوا لهم
موضعًا يجتمعون فيه ووضعوا على بابه صورة اسد رافع راسه الى
اعلى وباسط ذراعيه اشارة الى انه يلزم كل من يريد الدخول
في هذا المكان الاذعان للحق كيف كان وكان عقد هذا المجلس في
سنة ١٣٠٢ والذي انحط عليه رأيهم هو ان الارض وما عليها لله
سبحانه وتعالى وان الخليفة عنه فيها ملكها وان لا حق للبابا فيما
يدعيه فلما اعلنوا ذلك كثرت المنازعات الدينية واختل امر الحكومة
ودخل بين رجالها الغش والنقص فيما يتعاملون به من النقود
حتى ضجر الاهالي وشكوا فلم يسمع منهم فقاموا على رجال الحكومة
ووقع بين الطائفتين قتال شديد مات فيه كثير منهما واسرت
العساكر بعض الاهالي وقبضوا على نحو عشرين رجلا منها وقتلوهم
وصلبوهم على ابواب المدينة وكان في هذه المدة ضربت نقود جديدة
فامر بابطالها والمعاملة بالقديمة فتوقف الباعة وارباب العقارات في
اخذها. وحصل بين الناس ورجال المملكة مثل ما حصل

اولا وكثرت الجرائم وتفتحت ابواب المظالم وغلت النقود غلوًا لا يطاق وضجت الخلق واشتد الامر واتقد في قلوبهم الجمر لاسباب اعظمها الانكباب على الترفه والزهو والاكثار من اللعب واللهو حتى قامت الاهالي على الحكومة سنة ١٣١٢ من الميلاد فرفعت عنهم المظالم فلم يكفهم ذلك بل طلبوا اخراج اليهود من المدينة لانهم السبب في فقرهم وذهاب اموالهم فلم تمكنهم الحكومة من ذلك فقاموا جميعًا دفعة واحدة على بيوت الصيارفة واليهود ونهبوها وقتلوا من وجدوه فيها وحرقوا دفاترهم وصاروا يتتبعون اثر اليهود فلم ينج منهم الاَّ من الحق نفسه بالعسكرية او آوى الى ركن شديد وبعد ان اخمدت نار هذه الفتنة عمل الملك لولده فرحًا زينت له المدينة واوقدت الشوارع بالشموع وفرشت الطرق وساق اهل المدينة الى الملك هدايا جسيمة واوقدت الشموع نهارًا في محلات الوليمة وكانت براميل الشراب على عربات والناس يشربونه من حنفيات ومكث الفرح كذلك اياما وبعد انتهائه امر بموكب ضرب لاجله من النواقيس ثلاثون الفًا حتى تعجب الناس من وجود هذا القدر في مدينة واحدة وفي سنة الف وثلاثمائة واربعة عشرة اتهمت الملكة واختها وامرأة معهما بالزناء فحكم على الملكة بالحبس سبع سنين وقتل الاخريين وكذلك ادعي على كثيرين بان لهم دخلا في هذا الامر فقتلوا جميعًا ولم يكن اشد على الامراء والاهالي من ايام فيليب السادس لانه من حين جلوسه على التخت انفتح

عليهم من المصائب ابواب وضاقت عليهم الرحاب فمن قسوته وعنفه قتله للامراء والاعيان سنة ١٢٤٢ واعقب ذلك وباء عظيم مات فيه اكثر اهل المدينة فلما أتت سنة ١٢٥٠ الزم اهل المدينة باموال جسيمة ليستعين بها في حرب الانكليز فادوها اليه بالرغم ولما خرج لحرب الانكليز لم ينجح له سعي بل غلب واسر كما هو شان مثله من اهل البغي فولي الحكم من بعده ولي عهده فكان اقبح منه سيرًا واعظم ضررًا وشرا ووقع بينه وبين اهل المدينة اختلاف في الاراء فقدمت اليه صكوك من جميع الامراء يرجون فيها رفع المظالم وكل مستخدم في وظيفته لا يليق بها فلم يلتفت الى ما قالوه بل جمعهم وتلا عليهم مقالة نمقها على حسب عقله فلم يقبلوا شيئًا منها وقاموا جميعًا الى بيوت الامراء ونهبوها وقتلوا من وجدوه منهم وكذلك فعلوا باتباعهم وكل من ينسب اليهم فعظم الخطب واشتد على ولي العهد وحاشيته الكرب فكان تارة يلين جانبه ان راى حزبه مغلوبًا وتارة يرجع الى طبعه وعادته ان رآه غالبًا ولم يزل الخلاف بينهم وبين اهل البلد يزداد لا الاهالي تمتثل لحكمه ولا هو ينقاد لرايهم ولما لم يدرك منهم اربًا فرّ هو ومن تبعه هربًا وكان راس العصبة التي قامت عليه شيخ المدينة فقال في نفسه اني لا يسعني الاّ الصلح مع ولي العهد والانتماء اليه وارسل له سرًا يعده بفتح باب من ابواب المدينة ليدخل منه هو ومن معه وعين له الباب والليلة والساعة فلما وصل الرسول الى ولي العهد واخبره بذلك صدقه وجاء بمن

معه في الوقت الذي عين له فلما احس شيخ البلد بمجيئه امر رئيس الحرس ان يفتح الباب فامتنع وقال له انت تريد خيانة الاهالي فاغلظ شيخ البلد عليه في الكلام فضربه ببلطة كانت بيده فخر ميتاً وشاع الخبر في المدينة بان شيخها كان مقصوده الخيانة فكانوا لا يرون احدًا من اصحابه الاّ قتلوه فقامت البلدة على ساق وتعطلت فيها الاسواق ودخل الناس بيوت الاغنياء فنهبوا ما فيها ولولا ان ادركهم اهل المجلس لهلك الاغنياء جميعًا وبقيت باريز محاصرة تدافع ولي العهد الى ان دخلها عنوة لكنه ألان لهم بعد ذلك جانبه وعاملهم بالانصاف وتتبع اهل التعصب فقتلهم واعطى بعض اهل المدينة علامات شرف والحقهم بالديوان وانشأ بالمدينة مباني فاخرة ورخص لشيخ البلد وارباب المجلس في الحضور الى مجلس النواب لسماع ما يتعلق باستحقاق ولي العهد للملك اذ بلغ عمره اربع عشرة سنة وكان رشيدًا ولما اتسعت التجارة وكثر اهل المدينة امر بتوسيع الدروب وكان الناس يصورون منازلهم بصور حيوانات ويكتبون على ابوابهم بعض كلمات وكثر في ايامه اللعب بالنرد والكرة والمنقلة وسائر الملاهي ما عدا الورق فانه لم يظهر حين ذاك فكانوا يصرفون في ذلك دراهم كثيرة فامر بابطال ذلك كله وقال انها تفسد الاخلاق وتضيق الارزاق ورخص في اللعب بكل ما فيه صحة للجسم وفائدة ولما مات حل بالاهالي ما ساءهم لان جميع ما كان مدخرًا في خزائنه ما كان حصله ايام ظلمه وعدوانه واسائته

فاخذ الكرب عند ذلك نهايته واشتد البلاء بالناس فعول كثير منهم على ان يكونوا من حزب الدوك دوبورجونيا فانضموا اليه وصارت البلد فرقتين فقامت كل فرقة على الاخرى فمن وجدوه ليس منهم قتلوه ثم حضر الدوك دوبورجونيا بعسكره فقابله الحزب الذي كان التجاء به وذهبوا جميعا الى منزل عريف البلد فقتلوه مع جميع قرابته وحزبه واحبته وقطعوهم قطعا ورموا بهم في الدروب فكانت تحوم عليهم الطير وتعبث بهم النساء والصبيان ويلعنهم اللاعنون على سؤ سيرتهم فاستقامت احوال البلد بعد ذلك وافاق اهلها مدة غير طويلة ثم عاد عليهم الجور والذل بما نغص عيشهم وازعج نفوسهم حتى كادوا يهاجرون من وطنهم خصوصًا وقد كتب ولي العهد في ذلك الوقت الى ملك الانكليز يعزم عليه ان يجيء باريس ليفوض زمام المملكة اليه فلما اتى اليهم عملوا له يوم قدومه مهرجانًا عظيمًا زينوا فيه البلد واخترعوا لعبة لم تكن معروفة قبل ذلك وذلك انهم اتوا بخشبة اطول ما يكون وطلوها بالدهن والصابون حتى صارت ملساء وجعلوا في احد طرفيها مبلغا من النقود مع بعض طير غالي القيمة حسن المنظر ثم رفعوها واباحوا ذلك جميعه لكل من وصل اليه فاستمر الناس يومًا كاملا يعانون صعود تلك الخشبة واحدًا بعد واحد لاخذ ما عليها فلم يصل اليه الاَّ واحد اخذه ونزل به ومن ذلك الوقت صار الباريزيون تحت حكم الانكليز فلم يخرجوا عن حكمهم الاَّ على

يد جان دارك المعروفة بالبكر وكانت اميرة على جيش فما خرجت في حرب الاّ عادت منصورة مظفرة فهي التي اخرجت الانكليز واجلست شارل السابع على التخت وذلك سنة ١٤٤٦ من الميلاد فسار فيهم سيرًا حسنًا الى ان أمن شرهم وتمكن منهم ثم بغى عليهم واصدر اوامر ظلمه اليهم فالزمهم باموال يؤدونها اليه لا يستثنى منها احد وجعلهم ثلاث درج

الدرجة الاولى من اربعة الاف فرنك الى الف وخمسمائة

والثانية من ستمائة الى مائة وخمسين

والثالثة من عشرين الى عشرة

ولم يقتصر على ذلك بل طمح نظره الى ما في الكنائس من النقود والحلي فاخذه جميعه وصرفه في لذاته وقضاء اوطاره الفاسدة

وبسبب انكبابه على حظوظ نفسه وغفلته عن تدبير امر الحكومة امتدت ايدي عساكر الانكليز الى البلاد فوقعت بينهم حروب تعطلت بسببها المزارع وكثر عندهم القحط والوباء فكان من مات من المدينة خمسة واربعين الفًا وخرب من البلاد ما لا يعد ولا يحصى ومع هذا كله لم يتحول الملك عن سيء حاله بل ازداد سفهًا وترك المملكة للمتصرفين فيها بالفساد

وبالجملة لو اردت حصر احوال هذه الاهوال وما لحق المدينة واهلها من الاضمحلال لطال الشرح واتسع مجال المقال ولم يزالوا كذلك الى ان هلك الملك فملك بعده لويز الحادي عشر سنة

١٤٦١ فزينت له المدينة وعملت الولائم وفرح الباريزيون به فرحا شديدا وعملوا له موكبا لم يعمل مثله لمن قبله من الملوك فكان مما ابتدعوه في ذلك الموكب ان صوروا رجلا امام الملك على صدره صورة مركب من فضة يعنون بذلك باريز وخلف ذلك الرجل خمس نساء هدية للملك على صدر كل واحدة منهن حرف من حروف باريز ووضعوا على الباب الذي دخل منه الموكب مركبا فيها ثلاثة الوية لون كل لواء غير لون الاخر اشارة الى طوائف الملة الثلاث ورسموا صورة الملك بين عمودين متساويين في البعد اشارة الى العدل ورسموا امامه صورة ملكين يقودانه الى الحق ويحفظانه من كل امر ذميم وجعلوا في صدر الموكب رجالا ونساء عليهم ثياب المتوحشين كانهم يقتتلون ومن خلفهم ثلاث بنات متجردات يغنين بالحان الآلات وخلفهن عربات عليها شي كثير من المشروبات يشرب منها كل من اراد ومما كان في هذا الموكب صورة المسيح وامه وصورة روح القدس والشهوات النفسية وطائفة في هيئة الصيادين بشباكهم وكلابهم وكأنهم يعانون الصيد وقوم في هيئة الانكليز كأنهم يحاربون رجال الملك وكأن رجال الملك غلبتهم واسرتهم وبعد ذلك كله طير مختلفة الانواع متشكلة باشكال غريبة الابداع ولم يزل الموكب سائرًا امامه حتى ادخله الكنيسة على العادة ليؤدي ما يجب على امثاله من العوائد والعبادة ولم تحضر الملكة زوجته الاّ في سنة ١٤٦٧ وكان سيرها في البحر فلما

بلغ اهل المدينة قدومها خرج لملاقاتها الامراء والاغنياء في زوارق واكرموها غاية الاكرام وصنعوا معها ما لا مزيد عليه من الاحترام وادخلوها بموكب عظيم وعملوا لها فوق ما يليق لمثلها من التعظيم وكانت سيرة هذا الملك جميلة وهمته عالية جليلة ومحبة الباريزيين له صادقة والسنتهم بالثناء عليه ناطقة يبذلون في رضاه انفسهم واموالهم و يتركون لرأيه ارآهم واعمالهم ولذلك لما وقع بينه وبين ملك الانكليز ما وقع سنة ١٤٦٧ خرج معه منهم سبعة وثمانون الف مقاتل بسلاحهم ومؤنهم فلما رأى الملك منهم ما رأى شكر فضلهم وامر بشراب لهم سرورًا بهم ومن مبتدعاته الحسنة مدرسة الطب التي بالمدينة فانه اول من احدثها وكذلك النور الذي بالشوارع حتى انه امر اصحاب البيوت والخانات ان يضع كل واحد منهم على باب خانه او بيته قنديلا وكان رأوفًا بالضعفاء شديدًا على الامراء يجلس للناس من غير حجاب ولا يمنع من الدخول اليه احد وكان حميد السيرة الاّ انه كان اذا امر بشي لا ينزل عنه وكان مولعًا بحب الطير والحيوانات الغريبة ومن شغفه بها كان اذا اعجبه شي منها كتب اسمه وخاصته والجهة التي جلب منها والكلمة التي يحكيها بصوته ومع ذلك لم يغفل عن تدبير الحكومة ولم يرتكب لسببه خصلة مذمومة بل عافى الناس من عدة ضرائب واعان ارباب الصنائع فيما يعود نفعه اليهم فمن ذلك ترخيصه في فتح دار الطباعة ولم تكن موجودة من قبل واول من فتحها بباريز جماعة من الالمانيين سنة

١٤٦٦ فلما فتحت اضرت بالخطاطين والنساخين فشكوا الى المجلس وساعدتهم ارباب الديانة بقولهم انها من افعال الشيطان فصدر امر المجلس بابطالها وضبط الكتب التي بها فلما بلغ الملك ذلك امر بفتحها الاّ ان الناس لما زالت عنهم بعدله الاكدار وامنوا مما كانوا يقاسونه من الظلم وظهرت عليهم الرفاهية تشبهت النساء البغايا بالحرائر فصرن يلبسن جميعا ملابس الاحرار ولا تعرف البريئة منهن من الفاجرة وسكنت البغية بجوار الحرة وانتظمت الصدفة في سلك الدرة فلما كثر ذلك صدر امر الحكومة ان لا يتزيّ احد بزي غيره لانه كان عين لهن ما يلبسنه كالاحزمة القصب والفساتين ذات الذيل الطويل وارسال الياقة الى خلف الظهر وكان يكثر من ذم الامراء والاعيان الذين يميلون الى التغالي بالزينة والزخرفة وكان خطيب ذات يوم يحض الناس على التباعد عن الزخارف التي تأباها الديانة والمروة فاشيع عنه انه سب الملك فقاموا عليه وكادوا يقتلونه فلما بلغ الملك ذلك سكن الفتنة وامر بابطال الخطبة وان يخرج الخطيب من البلد وينجو بنفسه ولحلم الملك ولين طبعه كانت اسافل الناس في اخر مدته يهزأون باهل الديانة حتى صوروا البابا والحواريين في الملاعب وكثر ذلك منهم في مدة من تولى بعده ولكن كانت الحكومة محافظة على ناموس الديانة فكان لا يرفع اليها احد طعنًا في الديانة الاّ عاقبته فمن ذلك ما حصل لبعض الطباعين حين تجرأ على طبع كتاب فيه

ذم الديانة فضبطت كتبه واخذ وشنق ومن ذلك انهم حين
اخذوه ليشنقوه صار الناس في اثناء الطريق يسبونه ويؤذونه فقال
لهم رجل ان قتله كافٍ في جزائه فضربوه ضربًا مبرحا وادعوا عليه
انه نسب الى العذراء والمسيح ما لا يليق بهما فحكم عليه ايضا بالقتل
والقائه في النار ومن ذلك الوقت صارت الديانة في اضطراب
وادخل فيها بعض القسس اكاذيب من كل باب ونسبوها الى
المسيح وادعوا انها من الكتب المقدسة وتمادى بهم الحال الى ان
اشتبه الصواب بالمحال وافترقوا ما بين مانع ومدافع ومجادل
ومنازع فظهرت الديانة البروتستانية فافتتن الناس بها وكثر
الراغبون فيها حتى ادعى اهلها ان ديانتهم هي ديانة المسيح وذموا
الكنيسة الرومانية ورجالها وصارت كل فرقة تبيح ذم الاخرى
وتدعي ان طريقتها اولى بالاتباع واحرى حتى قام بعضهم على بعض
ونشبت الحرب بينهم فقتل من الفريقين في ليلة واحدة زهاء
الف الف وسبب هذه الفتنة ان امرأة يقال لها (ماري دوميديسي)
دست على الملك ان الملك لا يلتئم وراحة رعيته لا تتم الاَّ اذا
قطع البروتستانيون عن اخرهم ولم تزل به حتى خدعته وصرفت
همته الى ما اليه دعته ثم ذهبت الى البروتستان وغرتهم حتى
ادخلتهم باريز واستوطنوا بها ثم اتفقت مع ووجيز ان يحصي اسماء
الدوكات من دفاتر الفردة ويعلم منازلهم بالطباشير وان يجمع
الحرس ويفرق فيهم السلاح وان ينتشروا في شوارع البلد وحاراتها

وان يستعدوا لتنفيذ امر الملك بقتلهم ففعل جميع ذلك من غير ان يشعر به احد من البروتستانيين فلما كانت ليلة الرابع والعشرين من شهر اغوسطس الافرنجي سنة ١٥٧٢ ارسل الدوك ووجيز الى اصحابه واتباعه فايقظهم من نومهم وجمعوا له العسكر والحرس وعرفهم بالعلامات التي جعلت على ابواب المنازل وامرهم انهم متى سمعوا ضرب الناقوس هجموا عليهم دفعة واحدة فقالوا سمعا وطاعة وانصرفوا فلما كان نصف الليل ضرب الناقوس فهجموا على بيوتهم وقتلوهم عن اخرهم ومن شدة كراهتهم لهم كانوا يشقون بطن الحبلى فيخرجون جنينها فامتلأت من رممهم الدروب وانتن من رائحتها شمأل وجنوب وكان عدد من قتل من امرائهم واعيانهم خاصة في هذه الوقعة ستمائة فاصبحت منازل الجميع خرابًا وقام حاكم كل بلد من بلاد باريز على من ببلده من البروتستانيين ففعل بهم ما فعلت باريز بمن بها منهم واصل هذه الفتنة امرأة فانظر كيف اعقبت الخراب والبين وابدت العداوة بين الطائفتين

فقال الشيخ هكذا فتن النساء فانهن يضرمن نار الشر حتى يصل لهبها الى عنان السماء فكم لهن مثل ذلك وكم اوقعن رجالا في مهاوي المهالك

فمن ذلك القتال الذي استمر بين بكر وتغلب اربعين عامًا حتى ضرب به المثل في الشر وليس سببه الاّ امرأة تسمى هيلة ويقال لها البسوس وهي خالة جساس ابن مرة وكان لها ناقة

يقال لها سراب وكان من عادة كليب ان يحمي اوديته فلا يرعى فيها غير ابله حتى انه كان يحمي مواقع السحاب ويقول وحش كذا في جواري فلا يهاج فمر يومًا بمرعى كان قد حماه وفيه قنبرة قد باضت فلما رأته صرصرت وخفقت بجناحيها فقال لها من روّعك وانت في ذمتي وانشد يقول

يا لكِ من قنبرة بمعمرِ

خلا لكِ الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئتِ ان تنقري

فما جسر صاحب بعير ان يدخل ذلك المرعى فاتفق ان مرت ابل كليب على ناقة البسوس فعركت الناقة عقالها حتى قطعته وتبعت ابله فلما وردت الماء مع ابل كليب عرفها وظن ان جساسًا اطلقها مغايظة له فانف وغضب ورماها بسهم فاصاب ضرعها فصارت الناقة تعدو والسهم في ضرعها حتى اتت الى فناء صاحبتها وضرعها يشخب دمًا ولبنًا فلما سمعت البسوس عجيج الناقة طرحت خمارها واقبلت اليها فاذا السهم معترض في ضرعها فصكت وجهها وقالت واذلاَّه فلما سمع جساس قولها اسكتها وقال والله ليقتلن غدًا فحل هو اعظم من ناقتك يعني كليبًا ثم انتجع الحي فمروا على نهر يقال له شبيث فنهاهم كليب عنه وقال لا تردن منه قطرة ثم مروا على نهر اخر يقال له الأحص فنهاهم عنه فمضوا حتى اتوا الذنائب ونزلوا فمر جساس بكليب وهو واقف على غدير الذنائب

منفردًا فقال طردت اهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا فقال كليب والله ما منعناهم من الماء الاّ ونحن له شاغلون فقال له جساس هذا كفعلك بناقة خالتي فقال او قد ذكرتها اما اني لو وجدتها في غير ابلي مرة اخرى لاستحللت تلك الابل فعطف عليه جساس بفرسه فطعنه بالرمح فارداه ووجد الملك فقال ياجساس اسقني فقال هيهات تجاوزت الأحص وشبيثًا ثم اجهز عليه وعطف الى اهله فلما رأته اخته من بُعد قالت لابيها ان لجساس شأنًا قد جاءنا خارجة ركبتاه فقال ابوها والله ما خرجت ركبتاه الاّ لامر عظيم يعني انه كان بركبتيه وضح لا يظهره فلما جاء قال له ابوه ما وراءك يابني قال طعنت طعنة لتشتغلنّ بها شيوخ وائل زمنًا فقال أقتلت كليبًا قال نعم ثم نظر جساس الى اخته وكان اسمها نضلة فقال لها

وانى قد جنيت عليك حربًا * تغص الشيخ بالماء القراحِ
مذكّرة متى ما يصحُ منها * فتى شبت لآخر غير صاحِ

فاجابته تطيب نفسه وقالت

وان تكُ قد جنيت عليّ حربا * فلا واهٍ ولا رثّ السلاحِ

ثم هرب جساس وقام مهلهل في طلب ثار اخيه ووضع الحرب بين الحيين فاستمرت اربعين عامًا حتى ضرب بها المثل وكم لذلك من امثال ونظائر واغرب منه ما كان من الزباء الى ان

وضع قصير من قتلها في الغرائر فحدثنا كيف كان حال المملكة بعد هذه المعركة

قال عم الخراب ضواحيها وسرى منها الى سائر نواحيها وصار من بقي من البروتستان يترقب فرصة للقيام واهل الديانة الاصلية تحزب احزاب الانتقام وتغريهم بمن بقي من البروتستان وكان الرئيس على المدينة وقت ذاك الدوك ووجيز فاراد الملك هنري الثالث الاستبداد والاستقلال فتنازعا وصار الناس قسمين واريقت بينهما الدماء حتى وصل غبار الحرب عنان السماء واختل امر الحكومة اي اختلال وتمادى الامر على هذا الحال الى ان عقد مجلس الستة عشر وانما سمي بذلك لان اعضاءه كانت اولا كذلك ثم زادوا وبلغوا اربعين فكانت امور المدينة مسندة اليهم لا يبالون بملك ولا غيره فحنق الملك من ذلك وامر بابطال المجلس فلم يلتفتوا الى قوله ولم يعول احد من اهل المدينة على رأيه فاغلظ عليهم في ابطاله فقام عليه اهل المدينة وقتلوا معظم رجاله واما هو ففر هارباً ثم وجدوه مقتولا فدفنوا رمته وعدوه من المقدسين

فقال الشيخ يحكى انه في زمن الملك قباذ والد كسرى انوشروان حدثت فتنة من هذا القبيل وكان سببها ان ظهر في ايامه رجل زنديق يقال له مزدك فادعى النبوة واحدث مقالات في اباحة الفروج والاموال وقال ان الناس في ذلك سواء لانهم جميعاً اولاد آدم وحواء وحرم سفك الدم واكل اللحم .فاتبعه خلق

كثير فكان قباذ ممن تبعه فدخل مزدك عليه ذات يوم فوجد عنده زوجته أم كسرى وكانت من اجمل النساء فاعجبته فقال لقباذ اني اريد ان انكحها فان في صلبي نبيًا واريد ان يكون منها فاطاعه قباذ لكونه على مقالته وعقيدته فلما هم مزدك بها دخل عليه كسرى وكان صغيرًا فقبل قدميه وتضرع اليه ان لا يفعل بها فوهبها مزدك له فلما مات قباذ وقعد ابنه كسرى انوشروان على التخت مكانه جمع جميع خواصه ليعاهدهم فكان مما قاله لهم اني اشهدكم على اني لا ادع احد من المزدكية الاَّ قتلته لانهم اباحوا نساء الناس واموالهم وجعلوها مشتركة بينهم لا يختص احد بامرأة ولا مال حتى اختلط اسافل الناس بعناصر الكرماء وسهل سبيل الفواجر والفاجرات الى قضاء الشهوات واتصلت السفلة اللئام بالنساء الكرام اللآئي ما كان لمثل اولئك ان ينظروا اليهن اذا رأوهن في طريق

فقال له مزدك الزنديق هذا فساد في الارض والله ولاك لتصلح لا لتفسد

فقال له انوشروان اتذكر يابن الخبيثة حين سألت والدي ان ياذن لك في المبيت عند امي فاذن لك فمضيت نحو حجرتها فلحقت بك وقبلت رجلك وان نتن جواربك ما زال في انفي الى الان وسالتكها فوهبتها لي قال نعم فامر به فقتل واحرقت جيفته ونودي باباحة دماء المزدكية والمانوية المجوسية واظهر الديانة القديمة

وكتب بذلك الى عمال الولايات فقتل منهم خلق كثير وقسم اموالهم على الفقراء ورد الاموال التي لها اصحاب الى اصحابها والحق كل مولود اختلف فيه بمن يشبهه وان كان من المزدكية جعله عبدًا لمن حملت به منهم وامر بالنساء اللاآئي تبرأ منهن اهلهن او مات من يقوم بهن فجمعن في موضع واجرى عليهن ما يلزم لهن وان يزوجن من مال والده واضاف البنين الذين لم يوجد لهم اب ولا شبيه الى مماليكه ثم قال الشيخ فغالب ما يحصل بين اهل الديانات من مثل هذه الحوادث الفظيعة سببه آكاذيب واوهام تلقيها اهل الباطل فيما بينهم ثم يدخلونها على العوام فاما ان يقيض الله لها من يدحضها والا عدت حكما من الاحكام

فلما سكت رجع الانكليزي الى بقية حديثه وقد علم رغبة الشيخ في سماعه فقال ثم انه بعد هذه الحادثة وموت هنري الثالث قام هنري الرابع وكان بروتستانيا واراد دخول المدينة فقفلت دونه الابواب وقالوا له لا نملّك علينا الاّ من كان منا فحاصرها ومنع دخول كل ما كان يرد اليها فاشتد في المدينة الغلاء وحل باهلها القحط والوباء ومع هذا كانت القسس تحثهم على القتال وتحذرهم من التسليم له فكان بعضهم وهو في اخر رمق يأخذ سلاحه ويخرج مع المقاتلين ويقول ان لم يكن في ذلك صلاح في الدنيا ففيه حفظ للدين فلما طالت مدة المحاصرة وعجزوا عن المقاومة وخلت المدينة من الفتيل والنقير والحبة والقطمير ورأوا القسس تبيع شيئًا

كثيرًا من الغلال ولا ترثي لما هم فيه من القحط لم يسعهم الاّ ان قاموا دفعة واحدة على بعض الديورة فوجدوا فيها شيئًا كثيرًا من برّ وخبز وادام ولحم قديد فاخذوه وتقاسموه ثم امر المجلس بتوزيع الفقراء وذوي العاهات على الديورة كل دير بحسبه وقدّر لكل شخص شيئًا معلومًا من الخبز والادام فلما علم القسس ان لا مفر من امر المجلس صاروا يصطادون كل ما عثروا به من الحيوانات ويطبخونه لهم بدمه وامعائه وياتون مكان الخبز بعظام الموتى فيسحقونها ويلتونها بتراب وماء ويعملون منه خبزًا فلما تمادى الحصار وراوا ان حالهم آل الى الهلاك والدمار فر منهم خلق كثير وذهبوا الى الملك وطلبوا ان يأذن لهم بالخروج لاجل ان يتحصلوا على ما يقتاتون به فاذن للفقراء والعجائز والنساء فخرج منهم نحو ثلاثة الاف نفس ثم امر بالمنع من الخروج ثم لما راى ان حصارهم قد طالت مدته ولم تحصل به امنيته دبر في نفسه انه لا يتمكن من المدينة واهلها ما دام على المذهب البروتستاني واهل المدينة كاثوليك وان الراعي والرعية لا يستقيمان الاّ اذا كانت ملتهما واحدة ودعوتهما متحدة ثم اخبر خواصه بذلك فقالوا الراي ما رأيت فلما علم انهم وافقوه ارسل الى المدينة يخبرهم بدخوله في دينهم وذلك سنة ١٥٩٥ ففرحوا به وفتحوا له الابواب وكانت مدة الحصار نحو خمس سنين فلو رأيتهم حين دخلها لرأيت منهم شيئًا عجيبًا وقد قويت منهم العزائم واكثروا لاجله الولائم ولما تملك ودخل المدينة لم يكن له غرض

سوى عمارتها وانتظام امورها فاول شي بدأ به ان عمل قوانين
للعدل بين اهلها ثم اتخذ في اسباب انتعاشهم واتساع دائرة معاشهم
فنظم طرقا وفتح شوارع ووسعها الآَّ انه عانى في فتح هذه الشوارع
مشقة عظيمة حتى ارضى اصحاب الاملاك لاسيما القسس منهم لانهم
كانوا يتعرضون للبنايين والفعلة لعدم سابقة لمثل هذا ومع ذلك
فقد تم مراده واصبحت المدينة كثيرة الميادين والشوارع خصوصاً
الميدان الذي هو داخل السراي الملوكية الآن ومن حبه لنظافة
المدينة واهلها خص قوماً بكنس قماماتها ودفع وحلها وفي ايامه وايام
من بعده وهو لويز الثالث عشر كثرت العربات وترتب على ذلك
كثرة العربجية فكثرت حركاتهم بالليل ووقعت بينهم المنازعات
حتى سرت منهم الى ابناء الامراء وسبب ذلك كله النساء فتضرر
الاهالي ولم يزل الحال على هذا الى ان عمل ريشيليو قوانين
العقاب فنقص بعض نقص ثم لما تغيرت احوالهم وانتقلت الى درجة
الرفاهية غيروا هيئة بيوتهم فبنوها بالحجر بدل الخشب وزخرفوها
بالرسوم خصوصاً اعيانهم واغنياؤهم ولم يزالوا في تقدم الى ان تولى
لويز الرابع عشر فزادوا في الرفاهية والتمدن وفتحت في ايامه مدارس
العلم واحترمت اهله وانشاء رصدخانة ومعامل لتكرير البارود
وكثرت في ايامه انواع الملاهي والملاعب المسماة بالتياترات وزين
اللوفر بالعمد التي حوله واحدث في المدينة ميادين للنزاهة منها
ميدان الكاذوريل الذي عمله للوليمة سنة ١٦٦٢ وميدان فندوم

وميدان النصر وانشأ · حول المدينة ابوابًا غير ابوابها الاصلية منها
باب النصر الذي وضع اساسه مارتان وردم بابًا كان انشأه انتون
وقد هدم سنة ١٧٧٧ وردم الخنادق وغرس الاشجار التي ترى
الآن حول البلوار وازال تلالاً كانت تضر بصحة اهل المدينة ومن
حولها وبنى محلها ابنية بديعة ورتب مصابيح في الطرق وخص
رجالا لاطفاء الحريق وظهرت في مدته العربات الكبيرة المعروفة
بالامنيبوس ولم تكن موجودة من قبل وخصصها باماكن معينة
وجعل لكل مكان اجرة معلومة ولكن لغلو اجرتها كان لا يركبها
الاَّ من لا يستطيع ركوب العربات المعتادة ومنع من ركوبها
العربجية ونحوهم وكانت اولا سبعًا ثم صارت اثنى عشرة ولهذا
كانت قليلة الربح ثم في سنة ١٨٢٨ رخص في ركوبها لكل من
اراد وفي ذلك الوقت كان مأمور الضبطية وناظر المالية واحدا
فلما راى الملك ان الواحد لا يقوم بالوظيفتين كما ينبغي امر ان يعين
لكل وظيفة واحد وبسبب هذا التنظيم أمن النـاس على اموالهم
واهليهم واتسعت عمارة المدينة وكثر الوافدون اليها حتى بلغ عددهم
في ايامه خمسمائة الف نفس وعدد الدروب خمسمائة وعدد الميادين
مائة والقناطر تسعًا وعدد المنازل اثنى عشر الفًا الكبير منها اربعة
الاف ولكن في ايامه عزت النقود وبلغ دين الحكومة غايته لما احدثه
من العمارات والتنظيمات واحصي الدين بعد موته فكان ثلاثة
مليارات من الافرنك فانشأ جان لاوو بنكا للمصارفة وجمع فيه

ستة ملايين من الليرات فجزأها الى الف ومائتي سهم كل سهم ستة الاف وستمائة وكان من شروط ذلك البنك ان يقبل فيه بدل النقود اوراق حوالات فلما اخترع ذلك تعامل بها الناس غنيهم وفقيرهم حتى صار ملحقًا بالتجارة وهرع اليه الناس ولما اشتهر امره وضع صاحب البنك في جهات امريكا عدة مساهمين ثم اجتمع البنك والكومبانية وصار مالهما واحدًا وادارتهما واحدة فبلغت قيمة السهم الواحد تسعة الاف ليرا وذلك سنة ١٧٢٠ ثم في سنة ١٧٢١ صدرت اوامر الحكومة بنقص قيمة الاسهم تدريجًا وحدد لذلك ميعاد غايته اول شهر ديسمبر من السنة المذكورة وان كل من تاخر عن الميعاد المذكور نقص قيمة سهمه فتضرر من ذلك اكثر الناس وفي سنة ١٧٧٠ اجتمع ناس وارادوا ان ينوروا شوارع باريز بالزيت وجعلوا على كل مصباح في السنة الواحدة ثلاثة واربعين ليرة واثني عشر صولدي ليس منها ثمن العواميد التي تحمل المصابيح فكانت باريز في تلك الايام على غاية في التقدم وكثر بها المؤلفون ورحل اليها كثير من اهل اوروبا وخفف فيها شان العقوبات فكان كل انسان يتكلم بحريته ويكتب ما شاء من احوال الخلق سواء كانت خصوصية او عمومية سياسية او دينية وظهر فيها رجال ذوو افكار فالفوا كتبًا انتشرت في سائر الاقطار فانجلت عنهم غياهب الجهل وتميزوا على غيرهم بالعقل وبلغ عدد منازل باريز في تلك الايام خمسين الفًا منها خمسون لوكندة وعدد الدروب

ات المصابيح سبعمائة وسبعة وستين وكان بها من الكنائس
ات النواقيس ست واربعون ومن غيرها عشرون واحدى عشر
كية للفقراء ثلاث للرجال وثمان للنساء ومن الديورة مائة وثلاثة
ثلاثون ومن المدارس عشر وكان بها تسعة وعشرون مارستانًا
خمسة واربعون مجرىً لاخراج القاذورات وستون حنفية واثنتا
شر سوقا وثلاثة ابواب يقال لكل واحد منها باب النصر وخمسة
باكل من التنج فان لحق باريز من القيام الاول بعض الاضمحلال
لاّ انها من بعده الى الآن لم تزل آخذة في التقدم بكثرة المباني
المعابد الدينية والمدارس والامكنة الخيرية كالمارستانات
اللوكاندات ومحلات اللهو والتياترات فترى كل من احب
ن يمتع نظره جاءها او يرى ابدع مخترع قصد ارجائها فهي
ركز اللهو والانبساط وكل بدعة في الدنيا لها بها ارتباط لانها
د حازت محاسن الدنيا اجمع وليس من يرى كمن يسمع ومما يدل
لى انها انتقلت من حالها الاول ان مساحتها في الاصل كانت
تزيد عن ستين فدانًا مصريًا يحيط بها سور مبني كبناء القرى
ما زالت تتسع ويكثر اهلها الى ان بلغت مساحتها خمسمائة
دان وذلك بعد موت فيليب دوكيش وبني حولها سور محكم في
اية الارتفاع وجعل فيه ابراج ومزاغل في غاية الاحكام والتحصين
بلغت في القرن الرابع عشر والخامس عشر تسعمائة فدان وفي
ام لويز السادس عشر وقيام الدولة الفرنسوية القيام الاخير

وذلك سنة ١٧٧٢ بلغت مساحتها الفين وستمائة وسبعين فدانًا ثم في سنة ١٨٠٠ بلغت ستة الآف وخمسمائة فدان واما الآن فهي ضعف ذلك ولا يخفى على حضرتكم ان سعة المكان تابعة في الغالب لكثرة السكان فقد بلغ عددهم الآن نحو مليون ونصف بعد ان كانوا في القرن التاسع والعاشر لا يزيدون عن ٢٣٠٫٠٠٠

ثم قال الانكليزي وفيما ذكرناه كفاية وان كان ما قيل بالنسبة لما يقال في حقها قليلاً الاّ ان ما لا يدرك جله لا يترك كله ولكن بقي امر اريد ان اخبركم به وهو ان صاحبنا الذي كنا اجتمعنا به حين كنا بمرسيليا ارسل تذكرة يسلم فيها على حضرتكم وعلى نجلكم ويعتذر اليكم في عدم ارساله جوابا مخصوصا لكم بان لسانه في العربية لا يفي بما يجب لجنابكم وانه بعد يومين يكون عندنا بباريس وارسل ايضا يستفهم مني عن امر يتعلق بجنابكم كان سألني اياه حين كنا هناك ولم اتفق معه فيه على شي وقد ارسل الآن يطلب الافادة عنه

فقال الشيخ وما هذا الامر

فقال انه كان تمنى عليّ ان ارجى حضرتكم في ان تعطوا بجمعية المعارف المشرقية بعض دروس من الفنون العربية وانما لم اخبركم بذلك حين كنا هناك لكونه لم يكرر عليّ فظننت انه نأى عنه وهذا الرجل من اعيان تلك الجمعية فها هو الآن ارسل يطلب الجواب وهو موقوف على راي الجناب وهولاء الجماعة كلهم امراء

علماء كرماء وتعرفكم بهم مما يزيد في شهرتكم ويرفع من درجتكم فضلا عن الحصول على مال بوجه حلال وقد اخبرني ذلك الرجل ان مرادهم ان يجعلوا لحضرتكم في كل درس خمسين فرنكا ولا مشقة عليكم في ذلك فان زمن الدرس ساعة ونصف فالراي عندي انه اذا اتى وخاطبكم في هذا الشان ان لا تمتنعوا فان فيه فوائد كثيرة اقلها اطلاعكم على غوامض عوائدهم التي لا تعلم الاّ منهم خصوصا وقد قيل بارك الله في من نفع وانتفع

فاثنى الشيخ على مقصده الحسن وكان قد حان وقت الصلاة فاستاذن وقام الى مصلاه فصلى ثم نام

*

المسامرة الثانية والثمانون

البالو

ولما اسفر الفجر قام وصلى ثم دخل عليه ولده فقبل يديه فسأله كيف كانت ليلتكم وما الذي رأيتموه فيها فقال ما رأيت الاّ نوعا من الجنون حتى تحقق عندي معنى قولهم الجنون فنون رأيت الشيخ هناك لا يوقر شيبته والامير لا يراعي مقامه وابهته وكل انسان تنازل عن قدره لا تمييز بين وضيعهم وشريفهم ولا بين غنيهم وفقيرهم ورأيت اقواما في صفات مختلفة منهم من ستر وجهه بقماش رقيق ومنهم من ستره بالجلد ومنهم من ستره بالورق ومنهم من صبغه بلون الورد ومنهم من تلثم وكأن الشيب لاح بعارضيه ومنهم من جعل له لحية وكأنها جاوزت ثدييه ورأينا الوان اجسامهم مختلفة فمنهم الاسود والاحمر والابيض والاشقر وغير ذلك من الالوان التي

لا تكاد توجد في نوع من الانسان ومنهم من ستر عورته بجلد كالجراب ومن وضع على ظهره فروة كهيئة الاعراب وغير ذلك من الهيئات والصفات وسمعت هناك اصواتا مختلفة وانغامًا متنافرة غير مؤتلفة ولما رأيت ما هم فيه من الجنون تمنيت الرجوع ولا احضر هذا المجون ولولا ان من شرط المرافقة اللين والموافقة لرجعت ولا كنت رايت ولا سمعت فان يعقوب حين وصلنا الى هناك قبض على يدي فتبعته فسار بي نحو ساعة الى ان وصلنا محل التذاكر فاخذ تذكرتين ودفع في كل تذكرة افرنكين ثم سرنا في متسع من الارض حتى وصلنا ميدانًا فيه من انواع اللطائف واشكال الرسوم والزخارف ما لا يحصى فوجدناه ملآنا نساء ورجالا وكهولا واطفالا ولاختلاف هيئاتهم لا تعلم اجناسهم وحول ذلك الميدان غرف كثيرة منها ما يسع واحدا ومنها ما يسع اكثر ومنها المظلم ومنها المضيء فقعدنا في احداها فلم يمضِ الاَّ لحظات واذا بالآلات قد ضربت وقام غالب من بالميدان فرقص عليها فكانت تسرع تارة وتبطئ اخرى وهم معها في البطئ والسرعة فكانوا يقومون للرقص مثنى وفرادى الرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل فيرقصون ساعة ثم يقعدون ليستريحوا ثم يقومون ثانيًا او بقوم غيرهم ولهم في رقصهم حالات فتارة يقومون صفين ويسيرون خلف بعضهم الى وسط الميدان ثم يعود كل صف الى موضعه الذي بدا منه او يقوم موضع الآخر وتارة ياخذ احدهما بيد الآخر ويدوران خلف بعضهما

وكيفية حركتهم في حال رقصهم ان يضربوا الارض بارجلهم فتارة يضعون واحدة ويرفعون الاخرى وتارة يضعونها ويرفعونها جميعا ومن الغريب ان غالب الراقصين والراقصات من المتفرجين لا من ارباب المحل ولكل كيفية من هذه الكيفيات اسم معروف بينهم كما اخبرني يعقوب منها ما يسمى بولكا ومنها ما يسمى الكانكان ومنها ما يسمى الولس وقد اخذني يعقوب في بعض سكتات الاستراحة ودخل بي مكانًا داخل المكان الاول فرايت فيه قومًا اخرين منهم من يلعب القمار ومنهم من يشرب السجارة وغير ذلك والكل في هيئته المعتادة لم يغير منها شيئًا فما نظرت الى رجل منهم الاَّ وهو يلاغيني ولا امرأة الاَّ وهي تناغيني ففهمت من كلامهم ان مقصودهم الرقص معي او الجلوس معهم ولكون معرفتي بلغتهم لم تبلغ درجة معرفتهم بها كان يعقوب يبادر بالاجابة عني ويخبرهم اني مصري لا معرفة لي بشي من هذا الامر من اصله وان مجيئي انما هو من باب قولهم العلم بالشيء خير من جهله وما رأيت هناك رجلا الاّ ومعه المرأة والمرأتان وتارة يكون مع المرأة الرجل والرجلان فسألت يعقوب هل بين هولاء النساء والرجال نسب فقال لا نسب ولا حسب وانه ربما يجتمع الرجل مع زوجته او امه او ابنته ويقطعون زمنا في هزليات وسخريات ثم يفترقون ولا علم لاحدهما بالآخر لما يحصل من التغيير والتشكيل الذي رأيته وانه قد يجتمع في مثل

هذه الليالي كثير من الشبان فيصرفون فيها مبالغ جسيمة وان الفاحشة بينهم ليست قاصرة على اهل المدينة لانه يحضر من الارياف بعض نساء اما لتعثر لها على خدمة واما لتنظر لها صاحباً فلذلك يكثر الفحش والمنكر في مثل هذه المواضع من غير منكر ولا مانع هذا ما كان واظن انه بعض ما حواه ذلك المكان ولا اكتم عنك ما رأيت ولا ما ارى لعل ببركتكم يغفر لي ما خطه القلم وبه جرى

فقال الشيخ لولده او قد نظرت الى ذلك كله وملأت عينيك مما لم يقل احد بحله أ لهذا ارسلتك او على مثله عودتك أما علمت ان من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم أنسيت قوله عليه الصلاة والسلام عن ربه ذي الجلال والاكرام النظر سهم مسموم من سهام ابليس من تركها من مخافتي ابدلته ايمانًا يجد حلاوته في قلبه فللتوبة استعد ولمثلها لا تعد وبينما الشيخ يعظ ولده ويعنفه على ما حصل واذا بيعقوب عليهما قد دخل فقطع الشيخ كلامه ووجه الخطاب الى يعقوب ولامه انما ألان له الخطاب ليقف على ما عنده من الجواب فقال لم يكن مقصودي من ارساله معك الاّ لتطلعه على احوال هذه المدينة واهلها لا لتطلعه على مثل هذه الامور اذ لا ضرورة الى معرفتها

فقال يعقوب يعتذر اليه يا سيدي لا تواخذني فاني اعلم يقينًا

ان حضرتكم تأنفون من حضور هذه المواضع ولكن عذري ما علمته فيكم من الرغبة في الوقوف على عوائد هذه البلاد واهلها فذهبت به اليها لتقفوا به على معرفة هذه العادة ولو كنت اعلم ان ذلك يخل بحسن التربية ما ذهبت به والذي اخبركم به نجلكم وان كان منافيا للوقار والكمال الاّ انه مألوف لهم مرغوب فيه عندهم فان لهم بالبالو والرقص شغفا زائدا حتى ان الامراء والملوك لتفعله في بيوتهم ويدعون اليه احبابهم من نساء ورجال

واما الاماكن المعدة له كالذي كنا به الليلة فلا يذهب اليها الاّ فقراء الناس وغرباؤهم

ومن عوائدهم ان كل من دعي الى البالّو ولو كان دني الحرفة لا يذهب الاّ في ثياب غالية القيمة زائدة الكلفة وانهم يعتنون بشان نسائهم اكثر من اعتنائهم بانفسهم حتى ان الرجل منهم ليرغب في ان تكون امرأته او بنته هي المنظور اليها دون من عداها فتجدهم يبالغون في حلية نسائهم ويصرفون فيها اكثر ما يصرفونه على انفسهم حتى لو اعسر الرجل لا تلتمس له امرأته عذرا بل تضايقه حتى يأتي لها بما تتزين به جبرًا وقهرًا ومن عوائدهم ان لكل وقت عندهم هياة مخصوصة لا يتعداها ولا يلبس فيه ما عداها وان نسائهم هن اللائى بيدهن الحل والربط داخلا وخارجا فلا يتصرف الرجل منهم في شي الاّ باذن امرأته

فقال الشيخ لعمري ما في هذا كله شي يمدح بل لا ثمرة له الاّ الشقاق وفساد الاخلاق فان المرأة بالنسبة للرجل كالنار بالنسبة للحطب فكما يترتب على اجتماع الحطب والنار الالتهاب والاتقاد كذلك يحصل من اجتماع الرجل بالمرأة وقوع كليهما في كثير من انواع الفساد ولولا تمكن هذه العوائد منهم وتوارثهم لها عن متقدميهم لما الفوها ولا شكروها ولكن العادة محكمة

*

المسامرة الثالثة والثمانون

اهرام مصر

والمقاييس

ثم قام الشيخ واخذ ولده ويعقوب وتوجهوا الى محل الانكليزي فسلموا عليه ثم خرج ابن الشيخ مع يعقوب وبقي الشيخ والانكليزي يتجاذبان اطراف الحديث من القديم والحديث وبينما هما كذلك واذا برجل من اصحاب الانكليزي فقام له واجلسه بجوار الشيخ ثم اخذ يعرف الشيخ باحواله وكثرة سياحته وان له معرفة تامة باللغة الفارسية والتركية والعربية وعليه في مدرسة الجمعية المشرقية دروس يلقيها بهذه اللغات فلما سمع الشيخ ذلك عظم الرجل في عينه وقال الان تم الارب حيث ظفرت في هذه البلاد برجل يعرف لغة العرب فلعلي اكتسب من معلوماته فوائد تحل من

سياحتي محل واسطة العقد من الفرائد اذ لذة مجالسة العلماء فوق لذة الظمآن بشرب الماء

ثم قال الرجل للشيخ ايها الاستاذ ان طبعنا يميل كل الميل لمعرفة اخبار بلاد المشرق وقلوبنا مجبولة على حب اهلهـــا لا سيما المصريين فان جميع العلوم النافعة في بلادنا منقولة لنا منها بواسطة الرومانيين وغيرهم والتقدم الذي تفتخر به بلادنا منشأه مصر فلها علينا الفضل بل على جميع سكان الكرة فكلما نحن فيه من التقدم والثروة سببه المصريون فيا لهم من قوم ادخروا ذخائر انتفع بها بعدهم الاواخر فانهم قد وضعوا اساسات انبنى عليها لمن بعدهم هذه التقدمات وهذه العلوم الموجودة الآن هم المؤسسون لها وهذه الصنائع الفاخرة كان لهم فيها اليد الطولى على اهل القرون الاولى وما بقي بعدهم من الاثار والماثور عنهم في كتب الاخبار من الابنية الجليلة والصنائع الجميلة يعرب عن مزيد قدرتهم وشدة مهارتهم وعلو افكارهم

فقال الشيخ ما ذكرته لمصر من المحاسن بهذا الاسلوب من باب نظر المحب للمحبوب كما قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما ان عين السخط تبدي المساويا

فقال الرجل ايها الاستاذ وحق من جعلك للعلوم كهفا وحماك كالا ولطفا انه لولا المصريون لكنا الى الآن غرقى في

بحار الجهل حائرين في اودية الضلال لا نعرف كيف التمتع بلذات الدنيا التي اعدها الله لنا سبحانه فوحقك اني منذ ازمان احب ان اسافر لتلك البلدان وادور في نواحيها واطلع على ما فيها من عجائب الآثار التي لا نظيرَ لها في قطر من الاقطار ولكن يحول بيني وبين ذلك خطوب الزمان وصروف الحدثان ومع ذلك فاني عازم على السفر في هذا العام ولعلنا نجتمع معا على شاطئ بحر النيل

نعم ان السياحين ما تركوا خبرًا الا ذكروه ولا اثرًا الاَّ تقلوه على حسب ما شاهدوه ولكن ليس الخبر كالعيان وفي هذه المدة سهل السفر في البر والبحر بواسطة آلات البخار فانها تقطع بعيد المسافات في اقرب الاوقات فخفت مشقة السفر وصار الامن عامًا وامتنع ما كان يخشى في الاسفار من الغوائل

فاجابه الشيخ بالبشر واظهار المسرة والشكر والارتياح للقائه في مصر

فشكر الرجل الاستاذ ثم قال له هل بمصر الان ما يسهل الامر على السياحين من بيوت معدة لاقامتهم ووابورات برية وبحرية تسهل امر الذهاب والاياب وغير ذلك مما يلزم ايام السفر

فقال الانكليزي الان لا فرق بين القاهرة ومدن اوروبا فان فيها لوكندات مختلفة الانواع وفي نيلها وابورات مختلفة القوى تسير على راحة السياحين وتذهب بهم حيث شاؤا فضلا عن

السفن الشراعية المزخرفة باحسن الزخارف المستكملة الآلات والادوات فتجد السائح يختار احدى السفن ويركبها مع من احب او بمفرده ولا يزيد عليه المصروف عن مائتي جنيه مدة شهري السياحة اللذين يقضي بعضهما في الاقامة بمصر وضواحيها وبعضهما السياحة جهة صعيدها ما بين اكل وشرب واجرة اماكن وسفن ورجال وغير ذلك

وان منّ الله سبحانه عليّ وكنت بمصر ذاك الوقت لازمتكم وكنت لكم الدليل لاني وان سبق لي رؤية كثير من بقاعها واطلعت على جميع الاثار الموجودة بها لكن اود ان اراها مرة ثانية فانه كلما تكرر نظرك اليها ازددت علما جديدًا واظن ان كل جيل يأتي لا بد ان يرى غير ما رايناه ويعلم غير ما علمناه فانظر الى اهرامها وعظيم بنيانها حيث وصفه كل انسان من بعد امعان النظر اليه كل الامعان جيلا بعد جيل ومع ذلك فكل وصفه بغير ما وصفه به الاخر من الكيفيات مع ان كلا ما ذكر الا ما رأى فتجد البعض وصف شكله واصله وسبب منشئه والغرض منه ولم يوافقه من اتى بعده فبعضهم قال انه مدفن لاحد الفراعنة وبعضهم قال انه كان محلا يرصدون فيه النجوم ومنهم من قال انه من الاثار الجليلة التي جعلها المصريون محلا لمعارفهم واثرا يستدل به من اتى بعدهم من الامم على ما كان لهم من الابهة والفخار والعظمة والاعتبار فهو اثر يدل بصورته وشكله على قدر ما وصلوا اليه من العلوم

الهندسية وعلم جر الاثقال وفنون انواع العمارة ويدل بوضعه الذي هو عليه وتوجيه زواياه على انه اثر فلكي وبه معبد للديانة واذا حسب ما في اجزائه من النسب الصحيحة بالنسبة لبعضها وبالنسبة للدرجة الارضية دل على انه اثر لبقاء وحدة الابنية الطويلة والسطحية وقد شرح ذلك بعض علماء الفرنساويين في مجلد ضخم

فقال الشيخ رأيت في كتب العربية انه تربة وان به دهاليز في اسفله واماكن لا يعلم ما بها

وذكر بعض الناس ان به اموالا وذخائر وقد ظن المأمون الخليفة العباسي ان به اموالا عظيمة ففتح الهرم الكبير وصرف في ذلك مالا عظيمًا فلما لم يقدر على هدمه نأى عنه وقيل انه وجد بقدر ما صرف في الهدم

ثم بعد محادثات من هذا القبيل استأذن الضيف للقيام ودعا الشيخ والانكليزي الى منزله في الليلة المستقبلة فاجاباه ووعداه بالحضور ثم بعد ذهابه ببرهة قال الانكليزي للشيخ ياحضرة الاستاذ ان جميع المؤرخين قاطعون بان قدماء المصريين بلغوا من العلم والحكمة درجة لم يبلغها غيرهم وشهد لهم جميع الملل قديمًا وحديثًا بكمال العقل فبهذا لا يسلم العقل ان هولاء الحكماء العلماء العقلاء بنوا هذه الاهرام تربا ليس غير بل لا بد لهم من مقاصد جليلة في وضعها على هذه الكيفية

فقال الشيخ نعم ولا مانع ايضًا من ان يكون بناؤها على يد

ملوك متعددة ولا بد من احتياجها الى عمال لا تحصر وتجهيزات جسيمة اقتضاها صنع هذا الاثر قبل الشروع فيه بزمن طويل

قال الانكليزي فحينئذٍ لا مانع من ان يكون لهم غرض اصلي كان هو الباعث لهم على بنائها ولكن بسبب قدم هذا الاثر وسكوت من مضى من المؤرخين عن ذكر ما له من صحيح الخبر لم يقف احد على حقيقته بل ذهب كل فيه الى ما ذهب وتنوعت الاوصاف وكثرت الاقاويل

فقال الشيخ وما الذي ترتضيه من تلك الاقوال

فقال الذي اراه هو ما قاله احد العلماء الفرنساويين من ان الغرض منه الاشارة الى ما عندهم من العلوم والمعارف بوجه موجز وطريق معجز

فقال الشيخ وكيف ذلك فقال وجد ان طول ضلع القاعدة المربعة للهرم ٢٣٠،٩٠٢ م وان الارتفاع لكل من اسطحته ١٨٤،٧٢٢ م وان الفرق بين هذين الخطين ٤٦،١٨٠ م وهذا القدر ربع مقدار ارتفاع كل من اسطحة الهرم وهو مساوٍ لضلع الفدان المصري القديم المعروف بالاورور الذي ذكر هيرودوط وغيره ان مربع قاعدته مائة ذراع ولربما كان هو الجريب المعروف عندكم فعلى هذا يكون بين قاعدة الهرم وبين ارتفاع الوجه نسبة صحيحة كالنسبة بين عددي خمسة واربعة وكذلك لو قارنّا مقادير جميع اجزاء الهرم بالارتفاع المذكور لوجدنا انها منسوبة اليه نسبة صحيحة من غير

كسر فنرى ان ارتفاع باب الدخول للهرم ١٥٫١٤ م وهو عبارة عن جزء من اثنى عشر جزءًا من الارتفاع الكلي للهرم وان مدرج المدخل من ابتداء الارض الافقية الى اول المدرج الصاعد طوله ٣٢ مترًا وهو عبارة عن عشر طول القاعدة وثمن مقدار الارتفاع وبهذه المقارنة تجد ان جميع الاجزاء منسوبة الى القاعدة او الارتفاع نسبة صحيحة ولو قسمت خمسمائة قسم لوجدت كل قسم منها ٠٫٤٦٢ م وهو طول الذراع المصري القديم ومنه نتج القدم المصري ولو قسم هذا الطول الى ستين قسما لكان القسم الواحد ٣٫٨٥ م وهذا الطول القصبة التي كانت مستعملة في قياس الارض عند دخول الفرنساوية ارض مصر وقبلهم كان ضلع الفدان بها عشرين قصبة والذي يستفاد من قول الخزاعي ان الذراع كان طوله في الزمن السابق اربعة وعشرين قيراطا في جهات الصعيد وفي وقته صار ثمانية وعشرين قيراطا وحيث كان مقياس الروضة موجودًا في وقته فبالضرورة يمكن استخراج مقدار الذراع القديم منه وحيث كان القياس الاخير ٠٫٥٣٩ م فيكون مقدار القديم ٢٤/٢٨ يعني انه ٠٫٤٦٢ م مثل ما وجدناه في الهرم وكان يستعمل اولا في قياس زيادة ماء النيل ثم زيد فيه اربعة قراريط

وان قسمت القاعدة الى اربعمائة قسم كان طول القسم ٠٫٥٧٧٥ م وهو طول الذراع البلدي ومن هنا يعلم بالبداهة ان الذراع البلدي المنسوب للبلد والقصبة المستعملة في قياس الارض

منسوبان لضلع الهرم نسبة صحيحة وكما ان الفرق بين طول القاعدة والارتفاع بقدر ربع الارتفاع كذلك الفرق بين الذراع المصري القديم والذراع البلدي بقدر ربع الذراع المصري القديم لانه باضافة ربع عدد ٤٦٢٫٠ م عليه يحصل ٧٧٥٫٠ م وكانت القصبة موجودة قديما ويستدل على وجودها بما ورد عن قدماء المؤرخين ان قدر طولها ٨٠٫٣ م فلو اضيف اليها ربعها كان الذي ينتج ٨٥٫٣ م وهو قدر القصبة التي كانت مستعملة الى دخول الفرنساوية مصر وعلى هذا فالفرق الذي بين الذراعين وبين القصبتين هو عين الحاصل بين القاعدة والارتفاع للهرم وضلع الهرم ستون قصبة بالقصبة الجديدة لزيادتها على القديمة بقدر ربعها وضلع القاعدة يزيد عن الارتفاع بقدر الربع وعلى ما نقل عن المؤرخين ان الاستادة ستون قصبة تكون الاستادة هي ارتفاع الهرم فيعلم مما سبق ان الهرم اثر للاقيسة يستدل منه على وحدة المقـابيس المستعملة في المساحة الذراعية وغيرها واتجاه زواياه مع الضبط المحكم للنقط الاربع الاصلية يدل على انه اثر فلكي

وايضا مقـــدار الدرجة الارضية للعرض المتوسط لمصر ١١٠٨٢٧٫١٦٨ م وان جزءاً من ستمائة جزء منها يساوي ارتفاع الهرم وهو ١٨٤٫٧١٢ ومن هنا يكون ارتفاع الهرم منسوبا للدرجة الارضية لمصر ويكفي لوجود مقدار الدرجة الارضية ضرب مقدار الارتفاع في ستمائة ولا يكون الفرق الا خمسة امتار او ستة وهو

فرق غير محسوس وبما نقل عن المؤرخين ان الدرجة الارضية ستمائة استادة يتضح ان هذه الاستادة مصرية وان المصريين قدروا الدرجة الارضية في الازمان السابقة ونسبوا لها مقاييسهم كما فعل المتاخرون في المتر المستعمل عندنا الان وجعلوا ارتفاع وجه الهرم علما عليها

وان ضلع القاعدة للهرم جزء من اربعمائة وثمانين جزءا منها بمعنى ان الدرجة الارضية المتوسطة لارض مصر قدر ضلع قاعدة الهرم اربعمائة وثمانين مرة

ويؤخذ من قول هيرودوط وغيره من المؤلفين ان الذراع المصري القديم جزء من اربعمائة جزء من الاستادة وهو صحيح لاننا لو قسمنا مقدار الارتفاع على اربعمائة لوجدنا ما نتج ٠٫٤٦٢ م وهو ما وجدناه للذراع فيما سبق

والاستادة التي استعملها هيرودوط وبلين وسترابون وغيرهم واطلقوا عليها اسم الاستادة الاولنبية لم تكن غير الاستادة المصرية وان الاروام وغيرهم نقلوها من مصر لارضهم

وبناء على ما سبق يكون قدر محيط قاعدة الهرم مائة وعشرين مرة هو مقدار الدرجة الارضية وقدر الارتفاع وحده وهو الاستادة عبارة عن ست ثوان ارضية ومحيط القاعدة ثلاثون ثانية او نصف درجة ارضية

والتفاضل بين ضلع القاعدة وارتفاع الوجه يكون ربع استادة

ويساوي مائة ذراع مصري قديم ويكون هو ضلع الفدان المصري القديم المعبر عنه عند الاقدمين بالاورور وعندكم بالجريب وهو الوحدة الذراعية التي كانت مستعمله في قسمة الارض بين الاهالي وعلى موجبها تجبى الاموال وتنصب الحدود بعد انحسار ماء النيل عن الارض

ويؤخذ من كلام المؤرخين ان القدم جزء من ستمائة جزء من الاستادة فاذا قسمنا الارتفاع الى ستمائة جزء كان الذي ينتج ٠،٣٠٨ م وهو مقدار القدم وحيث كان هذا هو مقدار القدم الرومي فيعلم ان اصله مصري وجميع المؤلفين اتفقوا على انه ثلثا ذراع فاذا اضيف حينئذٍ نصف ٠،٣٠٨ م اليه كان المجموع ٠،٤٦٢ م وهو مقدار الذراع كما سبق

فقال الشيخ المتعارف في الشرع وبين الناس ان الذراع هو ذراع الآدمي وبه ضبط الميل والفرسخ وغيرهما من الاقيسة وان الذراع اربعة وعشرون قيراطا او اصبعا والاصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرذون اي البغل

فقال الانكليزي نعم كان ذلك في مبدأ الامر قبل اتساع الجمعية الاولى واما بعدها فصاروا يستعملون ذراع الآدمي في قياس الاشياء التي تلزمهم كالاقمشة وغيرها ويستعملون القدم في قياس الاطوال الارضية ثم لما اتسعت دائرة المعاملات بينهم صاروا ينظرون الى شي ثابت لا يقبل التغير يقيسون عليه فلم يروا اوفق

من الدرجة الارضية فقدروا بها الذراع ونسبوا اليه مقاييس المعاملات المستعملة الى الان وما حصل فيها من التغير غير محسوس لا تدركه العامة ويوكد ذلك قول بعض المؤرخين مثل هيرودوط فانه ذكران النسبة بين القدم والذراع كالنسبة بين اثنين وثلاثة يعني ان القدم ثلثا ذراع وليست هذه النسبة موجودة بين قدم وذراع الانسان اذ النسبة بينهما كالنسبة بين اربعة وسبعة ولو فرض قسمة الذراع الى اربعة وعشرين قيراطا كما هي العادة لكان القدم الفلكي ستة عشر قيراطا منها مع ان القدم الفلكي اربعة اسباع ذلك فلا يكون الا عددا كسريا ويكون استعماله عسرا جدا بخلاف الاول لا عسر في استعماله اصلا وهذا مما يؤيد ان الذراع والقدم الجاري بينهما القياس ليسا فطريين لان طول القدم الانساني اقل بكثير من القدم المستخرج بنسبته للذراع سواء كان طبيعيا او فلكيًا فان قدم الانسان يندر ان يتعدى طوله ٠٫٢٦٥ م حيث يكون طول الرجل ١٫٧٢ م ويكون اقل من ذلك ان كان طول الرجل اقل

وقدم الانسان تبلغ القامة به ستا ونصفًا فان لم يكن المقصود هنا القدم الفلكي المتفق عليه كيف يذكر المؤرخون ان القامة ست اقدام فقط وطول قامة الانسان ثلاثة اذرع ونصف بذراعه كما هو مدون في الكتب الصحيحة فعلى هذا لا يرتاب احد في ان القدم والذراع المقدر بهما الاطوال بل جميع المقاييس هما المنسوبان

للدرجة الارضية وانهما اتفاقيان لا فطريان ونسبة القدم الى الذراع ونسبة الذراع الى القامة كنسبة اربعة الى ستة وستة الى اربعة وعشرين في حال كونهما الاجزاء الفلكية

وتدل هذه الاعداد على قبضات كل قبضة اربعة اصابيع فلكية ايضاً بمعنى ان القدم اربع قبضات والذراع ست والقامة اربع وعشرون قبضة واما نسبتها الطبيعية لبعضها فهي كنسبة اربعة وسبعة وستة وعشرين لبعضها

وجميع ما قلناه من ان جميع الاقيسة منسوبة للدرجة الارضية مذكور في كتب المؤرخين فانهم ذكروا ان الخطوة الكبيرة المصرية مساوية للقامة يعنون انها ست اقدام وليس في الآدميين من تكون هذه خطوته فعلى هذا لا يشك في انها خطوة اتفاقية منسوبة للقدم المنسوبة للدرجة الارضية كما ان الخطوة الضعيفة للمصريين خمس اقدام بالقدم الفلكي والخطوة الهندسية الرومية طولها خمس اقدام ايضاً فلكية فتكون حينئذٍ عين الخطوة الضعيفة للمصريين وتكون منقولة منها الى بلاد الروم فالخطوة الهندسية هي القامة ايضاً والباع الذي كان يستعمل في القياس وكان طوله ست اقدام فلكية او اربع خطوات بسيطة كل خطوة منها قدم فلكية ونصف او سبع اقدام بقدم الانسان والميل المصري الذي صار اساسا لجميع الاميال عند جميع الملل في الازمان القديمة مقداره الف مرة بها والى القامة او الخطوة ينسب التوآز الذي كان مستعملا عند الاوروباويين

وهي بالمتر ١٫٨٤٧٢ م وتدخل في محيط قاعدة الهرم خمسمائة مرة وارتفاع الجلسة التي تحت الهرم قامة كاملة او خطوة هندسية مصرية

والذي يوكد كون تلك الاقيسة جميعها فلكية احتواء كل من الدرجة الارضية ومحيط الكرة نفسه عليها عدد صحيح فانه لو قيس طول محيط الكرة بالقدم لوجد عبارة عن حاصل ضرب ستة مرفوعا الى الدرجة الخامسة وطول الدرجة الارضية المصرية ثلاثمائة وستون الف قدم وان قيس بالذراع كان طوله عبارة عن حاصل ضرب ستة في عشرة اربع مرات مرفوعا الى الدرجة الخامسة وفضلا عن ذلك ان الميل الرومي الذي طوله خمسة الاف قدم اذا قيس به محيط الارض اشتملت عليه سبعة وعشرين الف مرة فكيف تكون هذه النسبة صحيحة ان لم تكن القدم منسوبة للدرجة الارضية

ولو اخذ ثمن هذا الميل وجعل مقياسا وقيس به الدرجة الارضية لاشتملت عليه ستمائة مرة

وحينئذٍ يكون هو الاستادة الاولمبية التي قلنا انها ارتفاع وجه الهرم وماخوذة من مصر ولكن دخلها زيادة ونقص بتداول الايام وتغيير الدول مثلا :

الفتر قدر ثلث الذراع البلدي وهو خمسة اجزاء من اثنى عشر جزء من الذراع القديم والشبر جزآن من خمسة اجزاء من الذراع

البلدي وهو نصف الذراع القديم وهو ثلث الذراع الاسلامبولي وهو جزء من الف جزء من ضلع قاعدة الهرم وكل اربعة اشبار ثلاث أقدام مصرية

واما الذراع الاسلامبولي فلم يعرف بمصر الاّ سنة ١٥١٧ ميلادية حيث دخلت الدولة العثمانية بها والاصل غير معلوم ويزيد عن الذراع البلدي بقدر ثلثه و زيادة ثلاثة مليمتر وبالنسبة لذراع المقياس الموجود بالروضة فهو قدره مرة وربع مرة

وقد عرفنا مما سبق مقدار الذراع البلدي ونسبته للذراع القديم واما ذراع مقياس الروضة فاصله الذراع القديم باضافة سدسه اليه والفرق ليس بمحسوس لان الذي ينتج من القياس على عمود المقياس لطول الذراع ٠،٥٤٠ م والذي ينتج من الحساب يكون ٠،٥٣٩ م

وهذا الذراع لا يستعمله المعلنون بارتفاع درجة النيل بل يستعملون ذراعا صغيراً اتفاقيا لتطمئن قلوب الاهالي وبهذه الواسطة تحصل الحكومة على تحصيل المال من الاهالي وهذا الذراع ثلثا ذراع المقياس وينقسم الى اربعة وعشرين قيراطا كانقسام ذراع المقاييس اليها انما قراريط كل على حسبه فيكون صغره مقابلا للواحد وربع من تقاسيم الذراع الحقيقي وقسم العشرين يقابل قسم الخامس عشر وقسم اربعة وعشرين يقابل قسم سبعة عشر وثلاثة

ارباع وذراع المنادي يساوي ثمانية عشر قيراطا وثلثي قيراط من قراريط الذراع القديم

واما الذراع الذي تستعمله البناؤن والنحاتون فهو خمس القصبة الكبيرة القديمة وان شئت قلت هو جزء من مائة جزء من ضلع الفدان الكبير المساوي ضلعه عشرين قصبة كبيرة كما ذكرنا وضلع الهرم يشمله ثلاثمائة مرة عددا صحيحا واذا جعت مقدار الذراع القديم على القدم القديمة كان الذي ينتج هو طوله فهو قدمان ونصف بناء على ذلك

والنحاتون يسمونه قيراطا ويقسمونه ثلاثة اقسام ويسمون كل قسم منها ثلثا وكل ثلث يقسمونه نصفين ويسمون كل نصف نصف ثلث وكل نصف ثلث يقسمونه اربعة اقسام ويسمونه قراريط فيكون كانه منقسم الى اربعة وعشرين قسما ولكن لم ندرِ من اين جاء له هذا الاسم مع انه لا بد لهذه التسمية من اصل كان معروفا فيما سبق ثم جهل ولو فرض انك ضربت مقدار هذا الذراع وهو قدمان ونصف في اربعة وعشرين تجد ستين قدما مصرية وهو قياس كان مستعملا عند المصريين في قياس الارض المحروثة وقدره اربعون ذراعا بالقديم والذراع المذكور هو الخطوة البسيطة وهي تساوي ذراعا بلديا وثلثا اي ان الذراع البلدي ثمانية عشر قيراطا من قراريطه والاستادة المصرية تشمله مائتين واربعين مرة ويوخذ من قول الادريسي وابي الفدا وابي الفرج والمسعودي ان الفرسخ

ثلاثة اميال هاشمية او خمس وعشرون غلوة يعني استادة وبالذراع الهاشمي تسعة الاف ذراع كل ذراع منها اثنان وثلاثون قيراطا واثنا عشر الف ذراع بالذراع القديم الذي هو اربعة وعشرون قيراطا فعلى هذا يكون الفرسخ خمسة الاف متر وخمسمائة وواحدا واربعين وثلثي متر وهذا الفرسخ هو الفرسخ القديم المصري والعرب تسميه الفرسخ الصحيح واما الميل فهو ثمان غلوات وثلث او ثلاثة الاف ذراع هاشمي او اربعة الاف ذراع مصري قديم

ومن هنا يعلم ان الغلوة ثلاثمائة ذراع هاشمي او اربعمائة ذراع قديم والنسبة بين هذين الذراعين كالنسبة بين عددي ثلاثة واربعة ومقدار الميل المصري حينئذٍ الف وثمانمائة وسبعة واربعون مترا ومصر والعرب استعملته والدرجة الارضية تشمله ستين مرة ويكون مقدار الغلوة عند العرب مائتين وواحدا وعشرين مترا وسبعين سنتيمتر وهذه الغلوة هي التي استعملها بطليموس وعنه اخذتها العرب وتدخل في الدرجة الارضية خمسمائة مرة

ويوجد خلاف الاذرع الماضية ذراع قدره سبعة وعشرون قيراطا وهو الذراع الذي استعمله الخليفة المأمون وكان اخذه عن الفرس وهو المعروف بالذراع الاسود وقدره بالمتر ٠٫٥١٩٦ م وهو عبارة عن ذراع قديم وثمن واما الذراع الهاشمي فذراع قديم وثلث وقدره بالمتر ٠٫٦١٦ م وهو ذراع وجزء من خمسة عشر جزءا من الذراع البلدي وذراع وسبع من ذراع المقياس وذراع وتسع من

الذراع العبراني وقدمان من القدم المصري القديم الذي استعملته العرب كما استعمله غيرهم وذراع الرومانيين منسوب للذراع المصري ينقص ٢٠٪ من مقدار الذراع المصري فيكون مقدار الرومي ٠٫٤٤٣٤ م والذراع المقدس عند العبرانيين كانت نسبته الى الذراع الرومي كنسبة عدد خمسة الى اربعة وحينئذٍ فمقداره يعلم باضافة ربع على مقدار الرومي ويكون ٠٫٥٥٤٢ م وهو يدخل اربعمائة مرة في الغلوة التي تشتمل عليها الدرجة الارضية خمسمائة مرة وهي الغلوة التي استعملها بطليموس في قياساته والذراع السلطاني للبابليين كان منقسمًا الى ثلاثين اصبعًا وكل اصبع منقسم الى قسمين اي انه كان منقسما الى ٦٠ وكان طوله يزيد عن الذراع المعروف ثلاثة اصابع اي انه لو اضيف تسع عدد ٠٫٤٦١٨ م اليه كان ٠٫٥١٣١ م هو طولها وهذا المقدار هو مقدار ثالثه من الدرجة الارضية والقامة تشتمل عليه ستين مرة كما ان الميل يشمل العسلة ستين مرة وكان يوجد قياس للاطوال في الزمن السابق طوله اربعة وعشرون ذراعا به واربعون ذراعا بالذراع المصري القديم او ست قصبات بالكبيرة او عشر قامات صحيحة او اثنان وثلاثون ذراعا بالذراع البلدي

ونسبة القصبة الكبيرة الى الذراع البلدي كنسبة عشرين الى ثلاثة ومدة دخول الافرنج ارض مصر كانت هي المستعملة في جميع الجهات القبلية والبحرية وطولها بالذراع البلدي ستة اذرع

وثلثا ذراع او عشر اقدام مصرية صحيحة

والذي حصل فيه تغير كثير من بين المقايس جميعها هو القصبة وذلك لانها اساس المساحة التي يجبى الخراج على حسبها وكثيرًا ما كانت تقتصر المساحون على جعلها ستة اذرع وثلثي ذراع فقط اي ٣٫٦٥٧٥ م ونسبة هذا القدر الى طول القصبة كنسبة تسعة عشر الى عشرين فيطلب بها مال اربعين فدانا في مقابلة ستة وثلاثين فدانا بالقصبة القديمة وهكذا والقصبة الصغيرة التي مع المساحين كان طولها ٣٫٦ م عبارة عن عشرة اذرع بذراع المنادي وستة اذرع وثلثي ذراع بذراع مقياس الروضة

فمن هنا يوخذ انهم عوضوا الذراع البلدي بذراع المقياس حتى لا تخرج القصبة عن كونها ستة اذرع وثلثي ذراع كما كانت عليه زمنًا طويلا والقصبة الهاشمية طولها ستة اذرع هاشميه او سبعة اذرع وتسع ذراع بالاسود او ثمانية اذرع بالذراع القديم ومقدارها بالمتر ٣٫٦٩٤ م عبارة عن عشر اقدام عبرانية والقصبة المصرية القديمة طولها خمسة اذرع بالهاشمي الذي يسمى ايضًا في بعض الكتب بالعتيق والعسلة من ضمن الاقيسة عند العرب والفرس ومقدارها ستون ذراعا بالهاشمي اي ٣٦٫٩٤٤ م والميل الذي استعملته العرب الذي قدره الف قامة او ستة الاف قدم لم يكن شيئًا آخر غير القياس الذي كان عند المصريين ومقداره يساوي دقيقة واحدة من الدرجة الارضية لمصر وكان قدره عشر غلوات وكان يدخل في

الفرسخ المصري الصغير ثلاث مرات وفي الكبير ست مرات والميل الرومي ثمان غلوات اولنبية او مصرية والميل العبري ست غلوات مصرية وهو ٣٦٠٠ قدم مصرية والفان بالذراع العبري وبالمتر ١١٠٨ ٢/١ م وهو ست وثلاثون ثانية والوحدة الزراعية السطحية هي الفدان وهو عبارة عن مربع ضلعه بالقصب عشرون وبالذراع البلدي مائة وثلاثة وثلاثون وثلث وبالمتر سبعة وسبعون ومساحته خمسة الاف وتسعمائة ونسعة وعشرون مترًا مربعا وقاعدة الهرم تشمله تسع مرات صحيحة وضلع الفدان مائتان وخمسون قدمًا مصريًا فيزيد حينئذٍ عن ضلع الاورور اي الفدان المصري القديم مائة قدم وحينئذٍ فنسبة الفدان الكبير الى الاورور كنسبة تسعة الى خمسة وعشرين

والقصبة المستعمله الان عندكم ٥٥ ٣ م والفدان بها ثلاثمائة وثلاث وثلاثون قصبة مربعة وثلث اي اربعة الاف ومائتا متر مربع وكسر صغير فاذا نسبناه الى الفدان الذي كان مستعملا في جمع الخراج الى دخول الافرنج وبعد خروجهم بمدة سنين لا يكون غير سبعة عشر قيراطا باعتبار ان الفدان الكبير القديم اربعة وعشرون قيراطا والاورور القديم نصفه تقريبًا ففدانكم الان متوسط بين الفدان الصغير اي الاورور والفدان الكبير ونسبة الفدان الجديد الى الفدان القديم كنسبة عددي سبعة عشر الى اربعة وعشرين وبناء عليه فكل مائة وعشرين فدانًا جديدة لا تبلغ الاَّ

خمسة وثمانين بالمساحة القديمة وحيث انه في مدة الملك الاشرف سنة ٧٧٧ ومن قبله الى مدة الملك الناصر وجد ان مساحة الارض المزروعة الموضوع عليها الخراج ٣٬١٧٢٬١٣٦ وفي مدة الافرنج مسح المزروع في القطر فوجد ٣٬١٣٦٬١٨٠ وهما قريبان من بعضهما فيمكن الان ان نعرف هل حصل زيادة في المنزرع او نقص وذلك بعد رد حسابه الى القصبة القديمة

والمرحلة بناء على قول الادريسي وابي الفدا اربعة وعشرون ميلا هاشميًا او ثمانية فراسخ مصرية او ثلاثون ميلا روميا او عشرة فراسخ فارسية وتبلغ بالمتر ٤٤٬٣٣٣

ويوم الملاحة بناء على قول الادريسي وابي الفدا وهو ما يعرف عندهم بالمجرى مائة ميل بالهاشمي او درجة ارضية وثلثا درجة وبالغلوة الصغيرة المصرية الف غلوة كاملة او خمسمائة واربعون غلوة كبيرة مصرية ايضًا وبالمتر ٩٩٬٧٥٠

وفي الازمان القديمة كانت المصريون تستعمل في قياس الاطوال الكبيرة ثلاثة انواع من الفراسخ اصغرها كان عبارة عن ثلاثين غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها ستمائة غلوة وكان استعماله في الجهات البحرية من ارض مصر وقدره بالمتر ٥٥٤١٬٦٥ م والثاني يزيد عن الاول وقد استعمله هيرودوط وكان ستين غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها الف ومائة واحدى عشر غلوة وتسع وكان يستعمل في الاقاليم الوسطى من

مصر من منف ابتداء ولذلك سمي الفرسخ المصري المتوسط ومقداره بالمتر ٥٥٨٥٠٠٠ م

والفرسخ الكبير طوله ستون غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها ستمائة غلوة وكان مستعملا في الاطوال الجغرافية فكان يوجد بالجهات البحرية والقبلية وطوله بالمتر ١٠٨٣٣٠ م

والفرسخ الفارسي عشرة اميال رومية وثلاثون غلوة من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية سبعمائة وخمسين مرة وهو دقيقتان واربعة اعشار دقيقة من الدرجة الارضية ويدخل في الدرجة الارضية خمساً وعشرين مرة ولهذا كان هو المستعمل عند اغلب سكان المشرق والعبرانيين فاخذه عنهم الاوروباويون ومقداره بالمتر ٤٤٤٣٣ وهذا المقدار يطابق اربعة وعشرين ميلا او ٢٤٠ غلوة مصرية من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية ستمائة مرة فيعلم ضرورة انه ماخوذ من مصر لانه لا يقال ان العجم قاسوا الدرجة الارضية اذ لم ينسب اليهم ذلك احد من المؤرخين وفي كتب العرب ان مقداره خمس وعشرون غلوة عربية من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية خمسمائة مرة التي قدرنا انها ٢٢٢١٦٧م

وقد قلنا فيما سبق ان الوحدة التي كانت مساحات الارض تقدر بها هي الاورور وهي عبارة عما يحرث بمحراث واحد في يوم واحد وبناء على قول هيريدوط كانت مربعا ضلعه مائة ذراع يعني انها كانت عشرة الاف مربع والذراع المستعمل هو الذراع القديم

الذي هو ٤٦٢ ٫٠ م فعلى هذا تكون المساحة بالمتر المربع الفين ومائة واربعة وثلاثين

وكانوا يقيسون بخشبة طولها عشرة اذرع وطول ضلع الاورور بها عشر مرات وكانت منقسمة ثلاثة اقسام كل قسم خمس اقدام فكان طول القسم الواحد مساويًا للخطوة الهندسية ولنصف القصبة المصرية القديمة التي كان طولها عشر اقدام وضلع الاورور بها خمسة عشر مرة وكانوا في الغالب يستعملون نصفها فيبلغ ضلع الاورور به ثلاثين مرة فبناء على ذلك تكون مساحة الاورور تسعمائة خطوة مربعة وذلك عبارة عن ٢٢٫٥٠٠ قدم مربعة وبمقارنة المائة الذراع التي هي طول ضلع الاورور للثلاثين التي هي قياسه بنصف القصبة نجد ان القصبة ستة اذرع وثلثا ذراع وهذا المقدار هو نسبة ما بين الذراع البلدي الذي قدره ٠٫٥٧٧٥ م والقصبة الديوانية التي وجدها الفرنساويون بالجيزة وقدرها ٣٫٨٥ م وسمى ايضًا بقصبة الرزق ومن هنا يعلم ان الاقيسة وان صارت كبيرة عما كانت لكن النسبة منها لم تتغير عما كانت عليه قديمًا ولم يكن الاورور وحده هو المستعمل في المساحة بل كان لهم اقيسة كثيرة صغيرة وكبيرة على حسب ما يقتضيه الحال منها العسلة وهي مربع قدره عشرة الاف قدم مربعة اي ان ضلعه كان مائة قدم كما ان ضلع الاورور مائة ذراع ومنها الغلوة وهي عشرة الاف قامة مربعة اي مربع ضلعه مائة قامة ومنها العسلة المضعفة وكانت مربعًا

طوله عسلتان وعرضه واحدة ونسبتها الى الاورور كنسبة اربعة الى تسعة

ومنها الاستادة اي الغلوة المربعة كانت ٣٦٠٫٠٠٠ قدم مربع فان فرض ان ضلعها منقسم الى عشرة اقسام متساوية انقسم السطح الى مائة مربع صغير كل منها ٣٫٦٠٠ قدم مربعة او مائة قامة مربعة اي الى مربعات ضلع كل منها ستون قدما او عشر قامات او اثنتا عشرة خطوة هندسية ويتكون عنها الجزء المئيني بالنسبة الى الغلوة وكانت تستعمل في تقدير المساحات

واما الفدان الديواني وقت دخول الفرنسيس وادي مصر فكان ضلعه عشرين قصبة ديوانية وذلك عبارة عن مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع وهذا المقدار هو ثلث الاستادة وهو قدر ارتفاع وجه الهرم فعلى هذا يظن ان الاستادة كانت منقسمة الى تسعة اقسام اي مربعات كل منها اربع عسلات مربعة ضلع كل منها عشرون خشبة كما ان الفدان الديواني ضلعه عشرون قصبة ديوانية ولذلك تسمى هذه المساحة اي المركبة من اربع عسلات بربع الفدان المصري القديم وكان ضلعه بالذراع القديم مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا كما ان ضلع الفدان الديواني بالذراع البلدي مائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث وعلى هذا فمساحة الفدان القديم كانت ٣٧٩٤٫٥٦ م مربعًا ومساحة الفدان الديواني ٥٩٢٩ م مربعا ونسبة الاول الى الثاني كنسبة ستة عشر الى خمسة وعشرين

وربما كان منقسما الى اربعة وعشرين قيراطا كما ان الفدان الديواني كذلك منقسم وهذه القسمة تزيد في سهولة الحساب بسبب ان العسلة تكون مشتملة على ست منها فلو فرضنا ان الاستادة او الغلوة منقسمة قسمين متساويين وجدنا انه يحصل من ذلك تساهل عظيم في التقدير لان الشكل الذي ضلعه الغلوة يكون منقسما الى اربعة مربعات ضلع كل واحد نصف غلوة ومساحته تسع عسلات مربعة او يكون مساويًا لاربعة من الاورور وتسمى هذه المساحة ربع الغلوة وتشتمل على اربعمائة خشبة مربعة او تسعمائة نصف قصبة قديمة او اربعين الف ذراع مربع او على ثلاثة الاف وستمائة خطوة او على خمسة وعشرين جزوءًا من الغلوة او على الفين وخمسمائة قامة مربعة

ولم يكن في قياس الفدان المصري القديم صعوبة لان مساحته اربعون خطوة بالخطوة الهندسية كما ان مساحة الفدان الديواني الان اربعون نصف قصبة وضلع الفدان الديواني سبعة وسبعون مترا وهو يزيد عن ضلع الفدان القديم بقدر ربعه وهذه النسبة لاشك هي الواقعة بين الذراع القديم والذراع البلدي والفدان الديواني يزيد عن القديم اوروراً واحدا ولا شك في ان للفدان القديم نسبة صحيحة مع الاقيسة القديمة لان ضلعه ثلث ضلع قاعدة الهرم وعلى هذا فمساحة القاعدة تشمله تسع مرات وزيادة على ذلك ضلعه عبارة عن عسلتين ونصف والميل المصري القديم يشمله

اربعًا وعشرين مرة والقصبة المستعملة في قياسه تدخل في ضلع فاعدة الهرم ستين مرة

وضلع الاورور يساوي ثلاثة اخماس ضلع الفدان الديواني وربع الاستادة المربعة = ١/٤ الغلوة المربعة = ٤ اورور = ٩ عسلات مربعة وضلعها ثلاث عسلات فلو قسمنا كل عسلة من التسع قسمين متساويين وجدنا ان ثلاثا منها تكوّن ضلع الاورور واربعًا منها تكوّن ضلع الفدان القديم وخمسًا منها تكوّن ضلع الفدان الديواني والست الباقيات تكوّن ضلع ربع الاستادة وعلى هذا فالنسبة بين هذه المساحات الاربع كالنسبة بين هذه الاعداد ٩، ١٦، ٢٥، ٣٦؟ ومما يوكد ان ربع الاورور كان موجودًا قديمًا كون ضلعه ستين خطوة هندسية كما ان ضلع الاستادة ستون خشبة وبالجملة فوجود ربع الاورور بين الاقيسة القديمة يوكد وجود ربع الاستادة ونسبة الفدان المصري القديم الى الفدان الديواني الجديد على ما ذكرنا كنسبة ١٦ الى ٢٥ ونسبة اضلاعهما الى بعضها كنسبة ٤ الى ٥ اي ان الفرق الذي حصل في طول الذراع من اربعة وعشرين قيراطا الى ثلاثين قيراطا حصل ايضًا في القصب المستعمل لقياسها وبسبب ان عدد عشرين بقي ثابتا لعدة القصب الداخل في الطول حصل لسطحيها زيادة كنسبة ٢٥ الى ١٦ والنسبة بين الفدان القديم والاورور كنسبة ١٦ الى ٩ وكما ان الغلوة كانت منقسمة الى اربعة اقسام وكل قسم منها الى اربعة

اخرى تسمى الاورور كذلك الاورور كان منقسما الى اربعة اقسام وقاعدة الهرم قدر كل ربع منها مائة مرة وقدر الاستادة اربعا وستين مرة وكان طول ضلعه خمسين ذراعا او خمسًا وسبعين قدمًا وسطحه ٢٢٥ خطوة او الفين وخمسمائة ذراع وبالقصب الديواني ٣٦ قصبة مربعة وكانوا يعرفون قدر ما تأخذ الارض من البذر بمكيال لهم يسمى المد المساحي وهو اربعون ليورا فكان نصفه وهو عشرون ليورا يكفي لبذر مائة قامة مربعة فيقسمونها الى اربعة اقسام ضلع كل قسم خمس قامات ومساحته خمس وعشرون فكانوا يقدرون ما يلزم للارض بهذه الطريقة ويجعلون لكل خمس قامات مربعة ليورا من البر وهكذا فكان المد الواحد الذي وزنه اربعون ليورا يكفي لبزر مائتي قامة ونصفه لنصفها ومن الاقيسة التي كانت تستعمل في مساحة الارض الخطوة المربعة وهي جزؤ من تسعمائة جزء من الاورور وجزؤ من اربعمائة جزء من العسلة وجزؤ من الف وستمائة جزء من الفدان القديم وجزو من الفين وخمسمائة جزء من الفدان الديواني وجزؤ من اربعة عشر الفًا من الغلوة المربعة وكان ضلع العسلة عشرين خطوة وضلع الاورور ثلاثين وضلع الفدان القديم اربعين وضلع الفدان الديواني خمسين وضلع الغلوة مائة وعشرين ومنها الخشبة المربعة وقدرها مائة ذراع وهي جزؤ من مائة جزء من الاورور والقصبة وقدرها مائة قدم مربعة وهي جزؤ من مائة جزء من العسلة وكذلك

كان من القياسات قياس صغير قدره خمس قامات مربعة وضلعه ست خطوات ومساحته ست وثلاثون خطوة مربعة او اربعمائة ذراع مربع اعني ٩٠٠ قدم وكان يدخل في المد المساحي اربع مرات وفي الاورور خمسًا وعشرين وفي الغلوة اربعمائة مرة

ويمكن ان يقال ايضًا ان العسلة كانت منقسمة الى اربعة اقسام كل منها الربع وان الغلوة المربعة تشمله مائة واربعًا واربعين وربعها يشمله ستًا وثلاثين والفدان القديم يشمله ستة عشر مرة والديواني خمسا وعشرين والاورور تسع مرات وربع العسلة عبارة عن = ٢٥ خشبة اي ١٠٠ خطوة = ٢٥٠٠ قدم فجميع هذه المقاييس كانت مستعملة في مساحات الارض بحيث كان يتيسر للمساح مع غاية الضبط والسرعة معرفة مساحة الارض وما تشتمل عليه من الكسور لغاية القدم المربعة ولهذا شهد جميع المؤرخين للمصريين بفوقانهم جميع الامم في الفنون الهندسية ونسبوا لهم اختراع اصولها وقواعدها التي هي سبب تقدمهم في جميع العلوم والصنائع ولو اني اطنبت في مادة الاقيسة واطلت على حضرتكم الكلام في بيانها فليس هو الغرض الاصلي بل الغرض ان اثبت لحضرتكم اتساع دائرة معلومات علماء هذه الامة حيث وصلوا في الاحقاب الخالية الى تلك الدرجات العالية مع ان جميع الامم في ذلك الوقت كانوا خاملين وفي زوايا الذل والمسكنة قاطنين غرقى في بحار الجهل لا يعرف لهم فكر فيما جل ولا قل وكانوا راتعين في الاجم

والغابات مثلهم كمثل الحيوانات فلم يخرجهم عن هذه الحالة الاَّ اقتفاؤهم اثر المصريين وسيرهم في طريقتهم مقتدين بقول من وصل منهم الى هذه الارض وتلقى عن علمائها واساتذتها يقيمون بالمدارس والمعابد ويتلقون الاسرار عن المصريين ومن ذلك الوقت اخذت الخشونة في الزوال وانجلى عن بصائرهم غشاء الجهل والضلال واتضح الطريق فسلكوا سبيل الهدى ونالهم من الثروة والترفه ما نالهم فاسسوا المدن والقرى وبنوا المباني الفاخرة العالية الذرى وكانوا قبل لا يسمعون بها ولا يعلمون والمصريون كانوا بالغين النهاية في كل ذلك وكان بشاطئ نيلها المباني المشيدة والبساتين الفائقة العديدة وفي داخل مدنها وصحاريها من المعابد والهياكل ما يعجز عن وصفه الانسان في كل زمن من الازمان والى الان كل من دخل تلك الارض من الاغراب وتامل ما بقي فيها من الآثار التي هي من عجب العجاب يقف متحيرا ويطرق متفكرًا وذلك لا يستغرب من امة من اثارها البنائية الاهرامات الشامخة والبرابي العجيبة ولا يستبعد عليها انها قاست الدرجة الارضية ونسبت جميع اقيستها اليها ولاجل بقاء ذلك على ممر الازمان وتعاقب الملوان جعلوا نفس الهرم حافظًا لتلك الاقيسة فضلا عن حفظه لامور شتى لم يقف احد عليها الى الان

المسامرة الرابعة والثمانون

نبذة تاريخية

فقال الشيخ المستفاد من اقوال المؤرخين بناء على ما اجروه من البحث وما اخذوه عن الاوائل ان بين هبوط آدم والطوفان ٢٢٤٢ سنة وبينه وبين المسيح عيسى بن مريم ٥٥٦٢ سنة فيكون بين الطوفان والمسيح ٣٣٤٢ سنة وحينئذٍ يكون بناء الهرم قبل الميلاد باربعة الاف وخمسمائة سنة وبعد الطوفان بالف وثمانمائة وخمسين سنة وحيث انهم قدروا ما بين جلوس منيس وبناء الهرم بثمانمائة وثلاث سنين فيكون جلوس منيس بعد الطوفان بثلاثمائة وخمس وخمسين سنة اي بعد موت نوح بخمس سنين وقد قالوا ان فرعون مصر صوفى الاول الذي اطلق عليه هيردوط اسم كيوس ابتدأ البناء في هذا الاثر بعد انفصال الحكومة السياسية

من الحكومة الدينية بواسطة منيس الذي اسسها قبل الميلاد بخمسة الاف وخمسمائة وثلاث سنين وفي مدة هذا الانقلاب بل من ابتدائه يرى ان المصريين على معلومات تامة ولهم دراية بمعارف شتى وعلوم كثيرة فانهم كانوا على غاية التمدن والتقدم لكن لا يدرى هل اخذ المصريون هذه العلوم عمن سبقهم من الامم واذا كان كذلك فعن من اخذوا ام هم الموجدون له من غير واسطة غيرهم والظاهر انهم اخذوها عن غيرهم لان الارض قبل الطوفان كانت عامرة باولاد آدم عليه السلام وكانوا متصرفين في جهاتها وكانوا قد وصلوا الى درجة في العلوم والمعارف ولما اغرق الله قوم نوح عليه السلام ولم ينجُ الاّ هو واولاده ومن آمن تفرقوا في الارض وتناسلوا وكثروا فعمرت بهم الارض ثانيًا وبالضرورة كان عند من نجا معرفة بعلوم من غرق فعلموه اولادهم وانتشر فيهم ولم تكن اهل مصر الاّ من ذرية سام لانه ابو العرب والفرس والروم ولكن لا ادري هل هم اول من عبد الاصنام ام سبقهم الى عبادتها غيرهم

فقال الانكليزي ان عبادة الاصنام كانت لعاد وثمود كما لا يخفى ذلك على حضرتكم وكان عندهم السحر والكهانة كغيرهم فلم يكن المصريون في ذلك الاّ تابعين اثرهم

فقال الشيخ وما سبب اتساع دائرة العلوم عندهم دون غيرهم قال سببه انهم لما وصلهم علوم من اغرقهم الطوفان تأملوا فيها فاستنتجوا منها واستكشفوا من اثارها ما وصلوا به الى شأو بعيد في العلوم

واما كونهم مخترعين لتلك العلوم فلا يقبله العقل لانه لم يكن بين
الطوفان وبين نشأة الحكومة المصرية الفرعونية الاّ زمن قليل لا
يكفي في وصول المعارف والعلوم الى هذا الحد الذي كانت عليه
وقت ظهور منيس على التخت لاننا نرى من اقوال المؤرخين انه
من حين جلوس فرعون مصر على التخت شرع في اعمال جسيمة
فيها من الدلالة على التقدم في العلوم الهندسية ما لا يخفى منها انه
سد احد فرعي النيل الذي كان جاريًا بحذاء جبل ليبيا وحوّله
الى جهة الشرق في نصف المسافة التي بين الجبلين وادخل ماء
النيل في وادي الفيوم فازدادت بذلك سعة ارض وادي النيل
ولا جرم ان هذه الاعمال يلزم بها امور هندسية مثل ميزانيات وغير
ذلك لاجل معرفة حال هذه الارض المحصورة من جميع الجهات
بالجبال والصحاري ومنها انه ازال البرك التي تكوّنت من مجرى
النيل وبنى محلها مدينة منف وحفظها من الغرق والعدو بما انشأه
حولها من الحصون والجسور وزينها بهياكل ومعابد بقيت اعجوبة
يفتخر بها بعده ثلاثة الاف سنة زيادة على ما نظمه من القوانين
وما اودعه في المدينة من المستبدعات التي فاقت بها على طيبة
القديمة التي كانت مقرًا للسلطنة ومحلا لقوة الديانة الى وقته فلو لم
تكن العلوم عندهم في درجة الكمال ما امكنهم اجراء هذه الاعمال
ومن ورث الملك بعده الف كتابًا في التشريح ومن اتى بعده بنى
هذه الاهرام التي هي اعجوبة مدى الايام يتعجب منها كل انسان ما

بقي الزمان وما نظر اليها احد الاّ واقرّ لمؤسسيها بعلو الدرجة في العلوم وغزارة عقولهم بدلالة هذه الاثار والرسوم فان من اجرى هذه الامور لا بد له من تمام الوقوف على قواعد من علوم شتى مثل علم جر الاثقال والعمارة وحركات المياه والطب والهيئة وسير الكواكب واحوال السماء وكل هذه العلوم قبل وصولها هذا الحد تفيد بالضرورة التوغل في العلوم الاساسية لها فعلم من ذلك ان مصر كانت من قديم الزمن بالغة اقصى درجات التمدن واوضح دليل على ذلك بقاء هذه الابنية بها الى الان وايضا هذا التمدن لا يمكن ان يوجد دفعة واحدة بل لا بد انه مضى عليه قرون كثيرة حتى بلغ هذه الدرجة والسبعمائة عام التي قدرها علماء الافرنج بين الطوفان وجلوس منيس على التخت لا تكفي ايضًا في تحصيل تلك المعارف بل لا بد من وجود اصلها قبل الطوفان ان الارض قبله كان بها امم شتى منهم المتمدن وغيره وكانت العلوم بالغة الى درجة اوجبت اتساع معائشهم فكانوا ارباب قوة وثروة مما يدل على ذلك قول افلاطون عند تكلمه على سكان الاطلنطيك الذين اغرقهم الله بالطوفان ان ارضهم كانت قريبة من بوغاز طارق وان قوانينهم كانت قريبة من قوانين المصريين وهذا قول نقله سولون المشرع عن علماء مصر فانه تلقى عنهم ويوخذ من هذا ان منيس لما جلس على التخت وظهر امره اخذ له قانونا من القوانين القديمة التي وصلت اليه بواسطة النوبيين الذين

كانوا بالجهة القبلية من مصر فانهم الناقلون لجميع المعارف والعلوم التي ورثها المصريون عن اجدادهم سكان اسيا الناجين من الغرق فكانت هذه المعارف محفوظة عند طائفة القسس يرثها الابناء من الاباء جيلا بعد جيل من غير تغيير ولا تبديل وانت خبير بان تقدم العلوم واتساع دائرتها وزيادة الجهد في كشف حقائق مستجدة انما يكون بالاشتراك العام فضلا عن المساعدات من قبل الحكومة الاّ ان بمصر اموراً توجب تعطيل ذلك منها وجودها منعزلة وسط الصحاري وهذا يمنع سهولة اختلاطهم مع باقي سكان الارض من الامم وحيث لم يكن بها ممن ورث تلك العلوم الاّ طائفة الديانة فغاية ما يمكن القوة البشرية انما هو معرفة ما وصل الى هولاء من غير زيادة عليه وهيهات ان وصلوا اليه ولا شك ان هذا على طول الايام مما يوجب تقهقر المعارف عاما بعد عام كما حصل ذلك بالفعل في مصر حين سكنها غير اهلها فلولا ما شاهدناه بها من الاثار لاستبعدنا ما عزاه الى اهلها نقلة الاخبار ولعددناه من نوع الخرافات التي ضيع المؤرخون في تنميقها نفائس الاوقات

فقال الشيخ عزو المعارف والكشف عن الحقائق الى من كان قبل الطوفان مما لا مرية فيه ومما يدل على ذلك صرح النمرود الذي بناه وكان مركبًا من اثنين وسبعين برجا على كل برج كبير منهم يستحث على العمل فان ذلك كان بعد الطوفان بزمن لا يسع ان يهتدوا فيه الى معرفة بناء مثل هذا كما سنبينه فانهم بعد

الطوفان بزمن قليل تبلبلت السنتهم فتفرق بنو نوح فصار لسام واولاده العراق وفارس وما يلي ذلك الى الهند ولحام واولاده مشرقا مما يلي مصر على النيل وكذلك مغربًا الى الغرب الاقصى وليافث وولده ما يلي بحر الخزر مشرقًا الى جهة الصين وفي ذلك الوقت كانت شعوب اولاد نوح اثنين وسبعين شعبا فلو لم يكن عندهم معرفة تامة باحوال العمارة والهندسة ووضع الاحجار فمن اين لهم ان يبنوا مثل ذلك البناء اذ يلزم لجعله في العلو الذي قدروه به اصول وقواعد لا بد منها وايضًا فان النمرود كان عاملا من قبل الضحاك على سواد العراق وما اتصل به وفي تلك الاوقات كان للامم قوانين منظمة وشرائع معظمة وكان لهم رسل تهديهم الى طاعة الله فلا بد انهم كانوا ذوي ثروة عظيمة حتى اغتروا بذلك غرورًا وجعلوا قول الانبياء كذبًا وزورًا وناهيك طغيان النمرود وظلمه وبغيه وتجبره وحروبه أفلا يدل هذا كله على ان الامم قبل الطوفان كانوا ارباب معارف وكذلك معرفتهم للاشهر واسمائها والسنة ومقدارها فقد ورد عن المؤرخين ان نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب ورست بارض الموصل على الجودى لعشر بقين من المحرم فكانت المدة ستة اشهر وعشر ليال فكل هذه ادلة قاطعة وبراهين ساطعة على ان العلوم والمعارف كانت موجودة قبل الطوفان

فقال الانكليزي رأيت في الآية الرابعة والعشرين من الباب

السابع في التورية ان الماء بقي على الارض مائة وخمسين يومًا وذلك من ركوب نوح السفينة الى استقرارها على الجبل وان دخوله فيها كان في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني واستقرارها على الجبل في اليوم السابع عشر من الشهر السابع فتكون المدة حينئذٍ خمسة اشهر باعتبار ان الشهر ثلاثون يومًا والشهور شمسية وعلى هذا تكون السنة شمسية وعدد ايامها ثلاثمائة وستين يومًا وهذا يدل على ان الاقدمين كان عندهم معرفة بحركة الشمس واختلاف سيرها بطاء وسرعة بالنسبة لحركتها فيعلم من ذلك انهم كان لهم معرفة بعلم الفلك

فقال الشيخ رأيت في كتب التواريخ ان كثيرًا من اهل الهند والصين وغيرهم كانوا يعتقدون ان الله عز وجل جسم وان الملائكة اجسام لها اقدار مختلفة وان الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك الى اتخاذ تماثيل واصنام مختلفة على صورة الباري والملائكة فكانوا يقربون لها القرابين والنذور لشبهها عندهم بالله وملائكته واقاموا على ذلك مدة من الزمان حتى نبهم حكماؤهم على ان الافلاك والكواكب اقرب الاجسام المرئية الى الله وانها حية ناطقة وان الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله وان كل ما يحدث في هذا العالم انما هو على قدر ما تجري به الكواكب على مقتضى امر الله فعظموها وقربوا لها القرابين ومكثوا على ذلك دهرًا فلما راوا الكواكب تخفى في النهار وفي بعض اوقات الليل لما

يعرض في الجو من السواتر امرهم بعض من كان فيهم من الحكماء ان يجعلوا لها اصنامًا وتماثيل على صورها واشكالها فاتخذوا اصناما وتماثيل بعدد الكواكب السبعة المشهورة واخذ كل فريق منهم يعظم كوكبًا ويقرب له قربانا خلاف ما يقربه الاخر ظنا منهم انهم اذا عظموا ما صوروا من الاصنام تحركت لهم الاجسام العلوية وساعدتهم في كل ما يريدون وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا وسموا تلك الهياكل باسماء الكواكب حتى ذهب قوم الى ان البيت الحرام انما عظم على مرور الدهر لانه بيت زحل ومن شأنه البقاء والثبات ثم لما طال عليهم العهد عبدوا الاصنام نفسها على انها تقربهم الى الله والغوا عبادة الكواكب ولم يزالوا كذلك حتى ظهر بودا وكان اول ظهوره بارض الهند فخرج منه الى السند ثم الى بلاد سجستان وبلاد زابلستان ثم دخل كرمان فتنبأ وزعم انه رسول واتى ارض فارس في اوائل ملك طيمورث ملك فارس وهو اول من اظهر مذاهب الصابئة فامر الناس بالزهد في هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم واراهم ان من هناك بدء النفوس وقال بعضهم انه اول من عظم النار وقال انها تشبه ضوء الشمس والكواكب ثم افترق بعده من تبعه فعظم كل فريق منهم ما رأى تعظيمه وقد قالوا ان البيت الحرام اول البيوت السبعة المعظمة المتخذة على اسماء الكواكب السبعة والبيت الثاني مارس وهو على راس جبل باصبهان والبيت الثالث سندوساب وهو ببلاد الهند وله قرابين وفيه احجار المغناطيس

الجاذبة والرافعة والمنفردة والبيت الرابع البوبهار الذي بناه منوشهر وهو بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وكان من يلي سدانته تعظمه الملوك وتنقاد لامره وكان له اوقاف كل من ولي بسدانته يسمى البرموك ومن ذلك سميت البرامكة لان خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت والبيت الخامس عمدان وهو بمدينة صنعاء من بلاد اليمن وكان الضحاك بناه على اسم الزهرة والبيت السادس بيت كارشان شاه بناه كارش الملك على اسم المدير الاعظم من الاجسام السماوية وهو الشمس بمدينة فرغانة من مدائن خراسان والبيت السابع باعالي وهو ببلاد الصين بناه ولد يعبور بن يعويل بن يافث بن نوح وقيل انما بناه بعض ملوك الترك في قديم الزمان فجعله سبعة بيوت في كل بيت منها سبع كوى بازاء كل كوة صورة من صور الكواكب السبعة مصنوعة من الجواهر على اختلاف انواعها ولهم في هذا الهيكل سر يسرونه في بلاد الصين يعلمون به اتصال الاجسام السماوية وافعالها بما يحدث في عالم الكون من الحركات والافعال وهو سدى خيوطه من الابريسم ممدودة على خشب يتحرك على حسب حركات الطبائع فيحدث ضروبًا من الحركات فاذا اتصلت افعاله وتوالت حركاته في النسج ظهرت صورة فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر وباخر راسه وباخر رجلاه فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع فجعلوا اتصال الابريسم بآلة النسج وما يحدثه الصانع في

ذلك من الافعال مثالا لتأثير الكواكب العلوية في الاجسام الكونية فبضرب من الحركات ظهر في العالم الطائر وبضرب آخر فرخ وكذلك سائر ما يحدث في العالم ويسكن ويتحرك ويوجد ويعدم ويتصل وينفصل ويجتمع ويفترق ويزيد وينقص من جماد ونبات وحيوان ناطق وغير ناطق فانما هو من حركات الكواكب

واما العرب في جاهليتها فكانوا فرقًا منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور الموقن بان الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي

ومنهم المقر بوجود الخالق القائل بحدوث العالم واعادته الاّ انه انكر ارسال الرسل وعكف على عبادة الاصنام وهم الذين حكى الله عنهم قوله ما نعبدهم الاّ ليقربونا الى الله زلفى ومنهم من اقر بالخالق وانكر الرسالة والبعث وهؤلاء هم الذين حكى الله عنهم قوله وقالوا ان هي الاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا الاّ الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الاّ يظنون ومنهم من مال الى اليهودية او النصرانية ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجيته ومنهم من كان يعبد الملائكة ويزعم انها بنات الله وانها تشفع لهم عنده وهم الذين اخبرنا الله عنهم بقوله ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ومنهم من كان مقرًا بالتوحيد مثبتًا للوعد والوعيد كعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف

وسبب اتخاذ العرب للاصنام انه لما نشأ عمرو بن لحي وتولى

ملك الحجاز وانتشر صيته في الجاهلية واليه تنسب خزاعة وكانت العرب تطيعه احسن الطاعة وسار بقومه الى مكة واستولى على امر البيت ثم الى مدينة البلقاء من عمل دمشق من ارض الشام فرأى قومًا يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا هذه ارباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقى ونستشفي بها فنشفى فاعجبه ذلك وطلب منهم صنما فاعطوه هبلا فنقله الى مكة وجعله على الكعبة واستصحب صنمين اخرين وهما اساف ونائلة ثم دعا الناس الى عبادتها فاجابوه ثم قلده العرب في ذلك فكان لكل قبيلة صنم فكان ود لقبيلة كلب وكان بحومة الجندول وسواع لقبيلة هذيل ويغوث لقبيلة مذحج وقبائل من اليمن ونسر لقبيلة ذي الكلاع بارض حمير ويعوق لقبيلة مهران واللاة لثقيف وكان بالطائف والعزى وهبل لقريش ومنات للاوس والخزرج واساف ونائلة على الصفا والمروة واستمرت العرب على عبادتها الى ان جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام فكسر الاصنام وانقذ العباد من تلك الاوهام وكانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهرًا وتسميه النسيء وقد ذم الله تعالى فعلهم بقوله انما النسيء زيادة في الكفر

وكانت المصريون صابئة فانهم كانوا يعبدون الاصنام والصابئة اقدم الامم على الارض ولغتهم السريانية التي هي لغة آدم عليه

السلام ويزعمون انهم اخذوا دينهم عن شيت وادريس ولهم كتاب يسمونه صحف شيت فيه محاسن الاخلاق كالصدق والشجاعة واجتناب الرذائل وقد ذكر ابن الوردي احد المؤرخين عندنا صحيفتين من صحفهم الاولى وتسمى صحيفة الصلاة ومنها انت الازلي الذي تربط به الرئاسات رب جميع المكونات المعقولات والمحسوسات رئيس البرايا وراعي العوالم رب الملائكة ومنك تنزلت العقول الى مدبري الارض لانك السبب الاول احاطت قدرتك بالكل ولك الوحدانية التي لا تحد ولا تدرك مدبر سلاطين السماء وينابيع النور الدائم الانارة انت ملك الملوك آلامر بالخيرات كلها الفاعل لكل شي بالوحي والاشارة تنبت المخلوقات وبرمزك ينتظر العالم باسره ومنك النور وانت العدة القديمة السابقة لكل شي نسئلك ان تزكي نفوسنا وتوفقها لاستحقاق نعمتك الآن وفي كل اوان الى الابد ياظاهرًا متعاليًا عن كل دنس احلل عقالنا وعافنا من كل مرض وبدل احزاننا افراحا بك نعتصم ومنك نخاف نسئلك ان توفقنا لتمجيد عظمتك التي يشار اليها ولا ينطق بها منك الكل وبك يستنير الكل وانت رجاء العالمين ومعين الناس اجمعين

وفي الثانية لا يجرين احد منكم في معاملة اخيه الى ما يكره ان يعامل بمثله واياكم والتفاخر والتكاثر لا تحلفوا بالله كاذبين ولا تهجموا على الله باليمين واعتمدوا الصدق حتى يكون نعم من قولكم فيما يستحقها ولا كذلك وتورعوا في تحليف الكاذبين بالله جل ذكره

فانكم تشاركونهم في الاثم اذا علمتم منهم الحنث وليكن الامر في نفوسكم
ن تكلوهم الى الله عالم السرائر فحسبكم حاكم يعدل وناطق يفصل
لا تلهجوا بهجو الكلام وسوء المقال لا تفاوضوا الاضاليل والاباطيل
ولا تكثروا الهزل والضحك والهمز واللمز لا تبدر منكم عند الغضب
كلمة الفحش فتجر عليكم المآثم والعقوبة من كظم غيظه وقيد لفظه
ونطق منطقه واظهر نفسه فقد غلب عليه الشر كله استشعروا
الحكمة وابتغوا الديانة وعودوا انفسكم الوقار والسكينة وتحلوا
بالاداب الحسنة الجميلة ترووا في اموركم ولا تعجلوا لا سيما في مجازاة
المسيء ان يكن من احدكم فرطة وارتكب منكرة فليقطع ولا تحمله
السلامة منها على المعاودة لها فانها ان سترت عليه في الدنيا يفتضح
بها على رؤس الاشهاد يوم الدين (وهما طويلتان) . اه . وهذا
الكلام منسوب لازمان كانت قبل الطوفان وفيه دلالة ظاهرة
على ان المعارف كانت متقدمة في تلك الاعصر وكان للصابئة
اعياد وهياكل يعظمونها فاعيادهم كانت عند نزول الكواكب
الخمسة المتحيرة في بيوت شرفها والمتحيرة هي زحل والمشتري والمريخ
والزهرة وعطارد والهياكل التي يعظمونها بيت مكة وبيت بظاهر
حران يحجونه ومن هياكلهم هيكل السنبلة وهيكل الصورة وهيكل
النفس وهذه مدورات الشكل واما هيكل زحل فمسدس واما
هيكل المشتري فمثلث واما هيكل المريخ فمستطيل واما هيكل الشمس
فمربع واما هيكل عطارد فمثلث في جوف مربع واما هيكل القمر

فثمن ومن هياكلهم بيت بمدينة حران في باب الرقة يعرف بمصلينا يقول انه هيكل ازر ابو ابرهيم الخليل عليه السلام وذكر بعض اهل الاطلاع ان باقصى بلاد الصين هيكلا مدوراً له سبعة ابواب في داخله قبة مسبعة الاركان عالية البنيان وقيل ان باعلى القبة شيئاً يشبه الجوهر يزيد على راس العجل تضيء منه جميع اقطار ذلك الهيكل وان جماعة من الملوك حاولوا اخذ تلك الجوهرة فاذا صار بينه وبينها مقدار عشرة اذرع لم ير شيئًا وان حاول اخذها بشيء من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت الى هذا المقدار تثنت وانعكست وتعطلت وان رميت بشيء فكذلك فلم يجدوا لهم حيلة في اخذها ومن تعرض لهدم شي من هذا الهيكل مات لوقته وكانها دبرت من انواع الاحجار المغناطيسية وفي هذا الهيكل بئر مسبعة الفم متى اكب الانسان على فمها يسقط فيها وصار اعلاه اسفله وحول فم البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم يقال انه بقلم السند هند هذه بئر تؤدي الى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتي منه وتؤدي ايضًا الى خزائن رغائب هذا العالم لا يصل ولا يقتبس منها الاّ من ساوت قدرته قدرتنا وعلمه علمنا وحكمته حكمتنا فمن قدر على الوصول الى هذا المخزن فليعلم انه قد وازانا ومن عجز عن الوصول الى ما وصفنا فليعلم انّا اشد منه بأسًا واقوى حكمة واكثر علما واوسع دراية والارض التي فيها هذا الهيكل والقبة والبئر ارض

حجرية صلبة مرتفعة كالجبل الشامخ فاذا رأى الانسان ذلك الهيكل والقبة والبئر حصل له عند ذلك جزع وحزن وتاسف على افساد شي منه او هدمه

ويقولون ان اهرام مصر قبور احدها قبر شيت بن آدم والاخر قبر أدريس وهو اخنوخ والثالث قبر صابي بن ادريس الذي ينتسبون اليه ويعظمونه يوم دخول الشمس برج الحمل فيتزينون ويتهادون فيه ومن هنا ك يعلم ايضًا ان علم الفلك ومعرفة الكواكب وما يلزم لذلك من العلوم كان قديما واصله من ارض اسيا ومنها انتقل الى مصر والى غيرها من البلاد حين تفرق اولاد نوح بالارض بعد الطوفان وعمروها وبنوا بها المباني على مثال ما كان في اسيا قبل الطوفان

فقال الانكليزي ما ذكرته من الادلة على اثبات العلوم لمن كان قبل الطوفان في غاية الوضوح ففي التوراة وهي من الكتب القديمة ما يدل على ذلك فانه حين تكلم فيها على الخليقة من مبدئها وما يتبع ذلك من الحوادث بينه غاية البيان حتى صار كل من قراه كانه شاهد بالعيان كل حادثة من حوادث الاولين التي احدثها رب العالمين وهذا وان كان فيه مخالفة لما نقله دويودور عن المصريين في شان الخلقة وتدبيرها الاَّ انه اصح لان ما نقله دويودور ليس الاَّ عبارة عن خرافات واوهام وبيان صور واوثان لا يحصل بها معرفة السر المقصود منها واما ما في التوراة فهو حق

لا ريب فيه فانه عن موسى الكليم ومثله لا ينطق الاّ عن من هو بكل شي عليم وايضًا مذهب دويودور مأخوذ من امور ظنية نتجت من رصد الحوادث الطبيعية ولم يقف لا هو ولا غيره على ما اودعه الله فيها من الاسرار الخفية واما المكتوب في التوراة فهو بالنظر الى باطنها وحقيقة امرها لان موسى عليه السلام اوحي اليه بما قرره وكان عليه السلام بمصر وقت وجود العلوم القديمة بها على اصلها وكانت اخبار الازمان الماضية وحوادثها عند علمائها على صورتها الحقيقية بخلاف دويودور فانه لم يوجد بمصر الاّ بعد انحطاطها عن درجة علوها وفخرها بما لحقها من توالي الفتن والمظالم وعليها فان علمائها بعد استيلاء الاروام والعراقيين والاعجام عليها كانوا عن درجة قدرهم نازلين وفي قيود الذل والهوان مكبلين هاجرين العلم والمعابد لما فشا اذ ذاك من المفاسد فاستبدلوا الاشتغال بالمعارف الخفية بالاشتغال بغيرها وتفننوا فيه بظنونهم الفاسدة واوهامهم الكاسدة فعموا بعباراتهم والغزوا في تفهاتهم التي كانوا يستعملونها في وصف الهياكل وغيرها فدخل الجهل شيئًا فشيئًا وصار العلم بالحقيقة نسيا منسيا وصارت عباراتهم فيما بعد غير مفهومة للقسس فشرحوها بغير المقصود منها فاحلوا الكذب محل الصدق واقاموا الباطل مقام الحق فخيمت على عقولهم عناكب الجهالة وعششت في اذهانهم حمائم الضلالة.

ومن قال ان اول من عمر ارض مصر النوبيون يعني سودان

افريقة فقد اخطاء خطاء كبيرًا لانه لا مشابهة بين السودانيين والمصريين في شي اصلا لا في اعضائهم ولا في لغتهم بل السودان من قديم الزمان على ما هم عليه الان والذي يقبله العقل هو ما ذكرتموه حضرتكم وما هو مدون في كتب العرب من ان من نجول من الغرق كانوا من سكان الجهة المرتفعة من الارض فلا بد انهم كانوا في حدود الخراب منها وبعضهم كان سكن باسيا وهم الذين كانوا في سفح جبال توروس وجبال قاف فصارت ارض اسيا كانها منبع النوع البشري ومنها خرجت فرق متعددة وتفرقت في جهات الارض وعمرتها ومنهم من ذهب الى ارض النوبة فعمرها وانتشر فيها الى الشلالات في نهاية ارض مصر

واما قول المؤرخ ايفور ان اسم النوبة كان يطلق على اصل القبائل الساكنة قرب ارض البالستين من ارض اسيا وقول هيرودوط ان ازدشير كان من النوبيين سكان اسيا فيحتمل ان يقال ان هذا الاسم كان يطلق على جميع اهل هذه الجهة بسبب سمرة لونهم من حرارة الشمس ثم فيما بعد اطلق على سكان شاطئ النيل الاعلى وربما تشهد لذلك المشابهة الحاصلة بين المصريين السالفين والنوبيين والحبش فعلى قولها لا مانع من ان يقال ان اصل الجميع من سكان اسيا قبل الطوفان والذي يغلب على الظن انها متقدمة على من عداها في المعارف والفنون وان التمدن كان عندهم في اعلا التقدم وحينئذٍ لا غرابة في مشابهة قدماء المصريين

للصينيين في حروف الكتابة وبعض القوانين فان اصل الجميع واحد وكل منهم من ذلك الاصل مستمد وفي التوراة مدن غير بابل كانت العداوة بين اهلها لا تنقطع وكانوا كالبابليين متمتعين برياض المعارف مقتطفين منها ثمرات حسنة وكانوا يطلقون اسماء اولاد نوح عليه السلام على مواضع معينة ولا شك ان اهل هذه المدن لم تبلغ تلك الدرجة في زمن قليل بل لا بد انه بقي عند بعض عائلاتهم بعض ما كان عند ابائهم الاولين من المعارف والعلوم حتى ظهر منهم ما ظهر من الاثار فيما بعد الطوفان ولكن في كلام بعض مؤرخي الصينيين ما يدل على ان حادثة الطوفان ازالت جميع ما للامم من الاثار فان قيل اذا كان كذلك فما السبب في بقاء العلوم والفنون حتى الاخلاق والعوائد والاطوار عند المصريين هذه القرون الطويلة وفي كتبهم المقدسة مع انها من علوم الامم السابقة على الطوفان قلنا ان ارض مصر لما كانت منعزلة عن باقي الامم محصرة بين صحراوين ولم يكن بينها وبين غيرها اتصال والمسالك الموصلة لها صعبة كان ذلك هو السبب في ابقاء المعارف بها لانه لو سهل الوصول اليها لدخلت الاغراب واضاعوا معلوماتهم وما ورثوه عن ابائهم الاولين فان فتوحات سزستريس الاكبر ترتب عليها اختلاط المصريين بكثير من الامم البعيدة عنهم والاسرى التي اسروها منها نقلوا اخبارها وخصب ارضها فدعا ذلك الى رغبة كثير من الناس فيها فسكنوها واختلطوا باهلها

فحصل بذلك تغير في جميع احوال الملة في الامور السياسية والدينية وفي هذه المدة تيقظت الملل الاخر الى مصر ففتح ذلك عليها ابواب المصائب وكان اهلها قبل ذلك من حذقهم وخصوبة ارضهم متحصلين على ما يزيد عن حاجتهم وكانت العلماء وارباب الوظائف في غنية عظيمة وسعة تامة فبذلك كانت دائرة المعلومات اذ ذاك متسعة وادارة الحكومة متنظمة بقوانين عدلية فكان قانون العدل بها له السلطان ولواوه متنشراً فوق راس كل انسان من ابتداء منيس الى اخر العائلة الثامنة عشرة بخلاف سكان البقاع الاخر والكلام في هذا المبحث يطول وليس الى ساحله وصول وقد ازف الوقت ويلزمنا ان نغير الهواء ونريح الفكر بالتنزه في بعض جهات البلد ثم بعد ذلك نتوجه لصاحبنا

* * *

المسامرة الخامسة والثمانون

وصف

بعض انحاء باريس

فقام الشيخ الى غرفته وادى من العبادات ما يلزمه في ديانته ثم غير ما عليه من الملابس فلم يلبث برهة من الزمن واذا ببرهان الدين قد حضر فقال له والده يا بني تهيأ للخروج فانا مدعوون فتهيأ كما امره والده في زمن يسير ثم توجها الى غرفة الانكليزي فاخذهما وسار بهما الى ان وصلوا ميدانا محاطا بابنية عالية مجملة بصور متماثلة وغير متماثلة ووسط هذا الميدان صورة قلة مرتفعة فوق قاعدة مربعة وسط سعة مبلطة وحول تلك الصورة درابزين من كل الجهات فوقف الشيخ وولده والانكليزي ينظرون اليه والى الصورة الموضوعة في اعلاه فقال له الانكليزي الصورة التي

تراها هي تمثال نابليون الاول الذي اخذ مصر حين القيام الاول
واغار بجيوشه على جهات كثيرة من اوروبا وانتصر مرارًا عديدة
الى ان آل الامر الى اخذه اسيرًا وحبس في جزيرة سنت هيلين الى
ان مات ثم احضر الفرنسيس جثته ودفنوها لاجل بقاء ذكره
ورفعوا له هذا التمثال وهو من حجر الاَّ انه مكسوّ بتونج المدافع
الماخوذة من النمساويين وغيرهم وارتفاعه ثلاثة واربعون مترًا ومن
داخله سلم ضيق يصعد منه المتفرجون الى اعلا القلة وكان في
محل هذا التمثال قبل ذلك تمثال الملك لويز الرابع عشر المشهور
وكان على قاعدة من الرخام الابيض وكان فوق حصان من التونج
فلما حصل قيام الامة الفرنساوية كسروه ووضعوا مكانه هذه
الصورة وفي مدة الملك لويز الثامن عشر صدر الامر بنزول
التمثال في سنة ١٨١٤ فانزلوه ولكن في مدة الملك لوي فيليب
عمل التمثال الذي تراه ووضع محله وكان يوم وضعه يوما مشهودا
حضرت فيه عساكر الرديف والآلايات وكثير من اهالي المدينة
وحضر الملك بنفسه مع جميع خواصه ورجال دولته وكانت
الموسيقات تضرب والمغنون يترنمون بالالحان والناس في اعلا
درجة الفرح

فقال الشيخ الذي يظهر من ان ملة الفرنسيس عندها طيش
وخفة لان ما تستحسنه في يوم تستقبحه في غد وليس لها ثبات على
حال واحد وهذا مما يوجب دوام اسباب الخلل اذ من الواجب

عليهم بقاء احترام من اسس لهم هذه الشهرة العظيمة التي كانت سببا في رفعة قدرهم واتساع دائرتهم وقوة سطوتهم وهيبتهم واحترامهم عند جميع الامم حتى نشأ لهم من ذلك ما فيه من السعادة والتقدم ما لا يخفى وما حصل في مدته من الخلل لا يدعوهم الى تنزيله عن درجته المستحقة له فان ما وقع من الشر ايامه لم يكن مقصودًا له بل ذلك تقدير العزيز العليم ولو قدر على منعه باي حيلة ما قصر وما اسسه لهم دليل على غزارة عقله فانه احدث لهم ما يفتخرون به فكان ينبغي لهم ان يديموا تعظيم هذا التمثال واحترامه وبينا هم في هذا الحديث واذا بهم وصلوا حديقة السراية الملوكية وكان وقت الاصيل فوجدوها جنة لا يكاد يوجد لها مثيل كثيرة الازهار جارية الانهار مخضرة الاشجار مخضلة الربى معتلة الصبا بها خلق كثير ما بين عظيم وحقير ونساء ورجال وشبان واطفال ما بين فطيم ورضيع ورفيع ووضيع فالرضيع على عاتق مرضعته وابن السنتين الى الخمسة مع دادته يتنوعون في الالعاب فمنهم من بيده عصا يضرب بها كرة ويتبعها حيثما ذهبت ومنهم من بيده طارة قدر الغربال يحركها بالسرعة والنباهة ويدخل في وسطها ويخرج مع عدم قطع حركتها وآخرون يسوقون طارات مختلفة القطر بعصا فيضربها بعضهم والبعض يمسك حبلا بيده فيجره من تحت قدميه ومن فوق راسه والعاب اخر كثيرة التنوع مع نظافة الاطفال وسلامة ابدانهم وحسن صورهم وامتثالهم

للمربيات واتباعهم اوامرهن فعند ذلك تذكر الشيخ القاهرة واحوال اطفالها الوخيمة وطباعهم الذميمة ودناسة ملابسهم وكثرة بكائهم وعنادهم وقارن بين الحالتين وعوائد اطفال الامتين وتمنى ان تكون تربية اطفال المصريين كالجاري بباريز لتخلص الاطفال من ربقة الامراض الناشئة من عدم تريضهم وحبسهم داخل بيوت اهلهم فمن ازدياد فكره في ذلك واشتغاله بما رآه هنالك كان لا ينظر الى من يمر به من الناس المتجملين بالملابس الفاخرة وارباب الوجوه الناضرة وكان كلما قرب من جهة بها اطفال يمعن النظر فيهم ولا ينقل طرفه عنهم ولكن لما كان عالما ان الانكليزي لا يخرج عن رايه توهم في نفسه ان موافقته له ربما كانت على خلاف رغبته فقال يا صاحبي ارجو منك السماح وعدم المواخذة فاني حظيت هذا اليوم بنظري لهولاء الاطفال حظوة لا تعادل وسررت بروئيتهم سرورا لا يماثل وازالت روءيتهم عني هموما كثيرة فنعم ما يفعل بهذه الاولاد وان هذه الاصول التي هم عليها لفي غاية السداد فان فيها حفظا للاطفال من العاهات ولولا هذا الارتياض للحقهم ما يلحق ابناء المصريين من الامراض

فقال الانكليزي ومن عوائدهم ايضا كلما وجدوا الجو صافيا ان يذهبوا باولادهم او يرسلوهم الى محلات التنزه في اليوم مرة او مرتين الى ان تقوى بنيتهم فيرسلونهم الى المكاتب ليتحصلوا على ما فيه مصلحة لهم ولاهلهم

وبالتجارب وجد من يموت منهم قبل هذه الرياضات اكثر من يموت بعدها ففي هذه فائدة عظيمة من حيث زيادة تعداد الاهالي وبزيادتهم يزيد الخير لان ثروة الامة تابعة لزيادة عدد اهلها وفي داخل البلدة وخارجها حدائق وميادين مثل هذه وفيها من الاشجار والحيضان ما ينشرح به صدر كل انسان ونافورات وهياكل للزينة كل ذلك مجعول لتروح الناس وتريض افكارهم وقت التنزه

ثم سار الشيخ والانكليزي فما من جهة مرا بها الا قابلهما خلق كثير في زي واحد لا يفرق الانسان بين الامير منهم والحقير والغني والفقير وكانوا لا يسمعون غير خرخشة الفساتين ودوي العربات ومناغاة الاطفال والفاظ رخيمة من ربات الدلال وهكذا كان يسمع من كل جهة ثم سارا حتى وصلا الى ميدان بنيانه من احسن البنيان فمد الشيخ بصره يمينا وشمالا وخلفا واماما فوجده محاطا بمنازل عالية البناء حسنة التقاسيم وعليها درابزينات متنوعة الاشكال ملونة بالوان مختلفة لا يخرج واحد منها عن مجاوره ولا يعلو عليه ولا يتفاوت بعضها عن بعض الا بزيادة الرونق والزينة ووجد جميع الطرق مزدحمة بالخلق ازدحاماً عظيما وكانه يوم عيد لما على وجوه الناس من الفرح وعلى ابدانهم من الملابس الحسنة فصار الشيخ يتفكر في ذلك ويتامل كل التامل فلما رآه الانكليزي مستغرقا في الفكر ينظر للناس تارة ولغيرهم اخرى قال

له ايها الاستاذ هل لك ان تقف هنا هنيهة امام هذا المللك
المفارق لاهله المعزول عن ملكه بعد بقائه فيه ثلاثة الاف سنة
فلما سمع الشيخ ذلك الكلام التفت فرأى عمودًا مرتفعًا الى السماء
لا يدرك اخره البصر ولم يرَ الشيخ مثله ولا سمع به فيما مضى وغبر
فقال للانكليزي ما هذا الذي ارى فقال هذا عمود يقال له المسلة
واصله من مصر وكان بصحراء الاقصر وابي الحجاج فاهداه محمد
علي باشا لشارل العاشر فنقله الى هنا ووضعه في هذا الميدان ليكون
اعجوبة الى اخر الزمان

وبينا هما كذلك واذا بشيخ كبير انسل من بينهما وهو يقول
هذا اثر من اثار المصريين الذين اخنى عليهم الزمان دال بذاته على
عظم قدرتهم وقوة باسهم وسطوتهم وغزارة علومهم ورزانة عقولهم
وتالله انا ما علمنا الاّ بعض ما علموا ولا وصلنا الا لقليل مما وصلوا
فيا ايها الاثر الجليل انبئنا عن احاديث الماضين وما كانوا عليه في
تلك السنين فقد مر عليك سنوات واعوام وليال وايام وشاهدت
ما فعله الظالمون وجناه المعتدون فافصح لنا عن تاريخ ما رأيت
من الامم واعرب عما جرى بينهم في الزمن المتقدم وها انت في موضع
غير الاول فهل تعيش قدر ما عشت وتنظر من الحوادث قدر ما
نظرت فالتفت الانكليزي فراى الناس في ازدحام من خلف وامام
فاوسع للشيخ الطريق واخذ بيده وترك الناس في فريق الى ان
وصلوا العربة فركبوها وصار الشيخ يسئله عن تلك الاعاجيب وهو

بجيبه كانه امها وابوها فقال له ان اهل الاطلاع يقولون ان الواضع
لهذه المسلة رامسيس الاكبر صاحب الفتوحات الكثيرة والمصادمات
الشهيرة ببلاد الشام والعراق والحبش وكان يوم وضعها بباريس
يوما مشهودًا فلم يتخلف احد عن الخروج والنظر اليها حتى المللك
وعائلته ولهج الباريزيون بذكرها واطالوا البحث عن حجرها وعن
الملوك الذين في زمنهم رسمت والنوع الذي منه قطعت وهي
عندهم الى الان من اعاجيب الزمان

ثم ساروا حتى وصلوا احدى الجهات فنظر الشيخ فرأى سراية
قد تحلت بالصور العجيبة الشكل والهياكل النادرة المثل بين اعمدة
من الحجر شاهقة الارتفاع قاسمة جميع وجهات السراية اقساما متساوية
الاضلاع وعلى الباب حرس بالسلاح يتمشون فقال الشيخ ما هذا
المكان الذي اراه عجيب المنظر حسن المخبر وما هذه الاعمدة الرفيعة
والهياكل البديعة فقال الانكليزي هذا مسكن ملوك الفرنسيس
الان ويقال له سراي التويلري ومعنى هذا اللفظ في الاصل محل
ضرب الطوب وقد كان كذلك قبل بناه فبقي الاسم وذهب معناه
وبجواره سراي اللوفر كانت قبل بناء التويلري مسكنًا للملوك ايضا
ثم جعلت الان محلا للرسوم والهياكل

فقال الشيخ وهل يمكن الان ان نراها فقال انها لا تفتح الاّ في
ايام معينة واوقات مخصوصة وفيها مكان كله صور ورسوم يدخله
النقاشون والمصورون لاجل تمرنهم على صناعتهم فاذا جاء اليوم

الذي تفنح فيه ذهبنا ان شئت لننظر ما هناك من الرسم الغريب الصنع والصور البديعة الوضع

فقال الشيخ سبحان الله ان هذه الدنيا لا يبقى فيها شي على عهد بل لا بد ان يناله نصيبه من الشقاء والسعد

وإذا مررت على الديار وجدتها
تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

فقال الانكليزي صدقت ايها الاستاذ فان هذه الحدائق والمباني العالية والطرق القويمة كانت قبل ذلك بركا يخزن فيها الماء والاوساخ وكان منظرها اقبح من منظر الخراب ثم انه في القرن الثالث عشر صارت محلاً لمعامل الفخار الذي يغطون به سقف المنازل وقاية لها من الامطار وكانت الملوك اذ ذاك تسكن سراية اللوفر ولكن لم تكن وقتئذٍ مزخرفة الظاهر كما هي الان بل كانت عبارة عن برج مستدير عالي السور وحواليه خنادق متسعة عميقة لا يمكن عبورها الاّ بواسطة قناطر يرفعونها بالسلاسل في اوقات معلومة وفي ذلك الوقت بسبب كثرة تحزب الامة الفرنساوية وعداوتهم لبعضهم وللكهم كانت بينهم فتن لا تنقطع فكانت همة الملوك مصروفة لامر الحرب وقمع الاعدا والمحافظة على انفسهم فكانوا لايشتغلون بامر الزينة والزخرفة ثم ارتفع الخوف وهدأت الفتن واطمئنت القلوب وقويت علائق الاتحاد فازدادت ثروتهم واتحدت كلمتهم ووجهتهم فصاروا كانهم رجل واحد وصار يضبط حكومتهم

قانون واحد وساروا تحت راي ملك استقر رايهم عليه فذهب منهم جفاء الطباع واخذت الاحوال القديمة تذهب شيئًا فشيئًا وبعد ان كان جل همتهم صلابة البناء وقوته وارتفاعه ومتانته صار مطمح نظرهم الى حسن صورته وتناسب اجزائه ولطافته فاخذوا يزينون اماكنهم ويتغالون في زخرفها حتى وصل بناؤهم الى ما تراه وبعد ان كان لا يتمكن احد من القرب الى سراي الملك صارت الناس تمر كما ترى في طرقاتها وتحوم في حوماتها ويدخلون من جميع الابواب من غير منع ولا حجاب فلكل زمن له حكم

وفي زمن الملك فرنسوا الاول اشترى محل سراي التويلري وكان فضاء يبلغ قريبًا من مائة فدان مصري واشترت والدته ما جاوره وبنت فيه محلا لها ولم يبدأ في سراي التويلري الاّ في وقت ماري دومدس ومن ذاك الوقت سكنها الملوك وصار كل ملك يضيف اليها شيئًا ولم تكن من اول الامر متصلة بسراي اللوفر بل كان بينهما فضاء وبيوت للاهالي فصارت الملوك تشتري هذه البيوت شيئًا فشيئًا ويدخلونها ضمن السراي ولم يصل هذا المكان الى الهيئة التي تراها الان الاّ مدة نابليون الثالث امبراطور الفرنسيس وان كان نابليون الاول ولويز فيليب وغيرهما من قبلهما اشتروا كثيرا من البيوت وادخلوها ضمن السراي وصرفوا في ذلك مبالغ جسيمة من المال

وفي تقسيم المدينة اعتبرت سراي اللوفر وسطا وجميع طرق

البلد متصلة بها وتنتهي بالمحيط ولما قسموا المدينة جعلوها عشرين خطا وسموا كل خط باسم اشهر مكان فيه فالاول يسمى باللوفر لوجود سراية اللوفر به والثاني بالبرتينة والثالث بالتامبل اي المعبد والرابع بالمحافظة وهكذا

وبعد برهة وقفت العربة فنزلوا لدى مكان فطرق الانكليزي بابه ففتحه البواب ودخلوا واذا بصاحب المنزل قابلهم بالترحب وسار امامهم نحو ديوان عظيم متسع مفروش باحسن الفرش منقوش سقفه باحسن النقش وحائطه من كل جهة بالورق المنقوش بالذهب وفيه من عجائب الرسم وغرائب الصنعة ما يسر الناظر وارضه من خشب الجوز مفرغة في قوالب اشكال هندسية منتظمة وكان هناك ثلاثة من ارباب الجمعية المشرقية كلهم يتكلمون بالعربية وغيرها من اللغات المشرقية وكذلك صاحبة المنزل مع اثنتين من النساء الحسان فلما قرب صاحب المنزل من المجلس عرّف الحاضرين بدرجة الشيخ في المعارف وغزارة مادته في العلوم وفصاحته في العربية فقاموا له واجلوه واجلسوه وسطهم وآنسوه وجلست صاحبة المنزل عن يمينه فصارت تحييه باحسن ما عندها من التحيات ويترجم احد الحاضرين للشيخ تحياتها وكان مطمح نظر الحاضرين الى برهان الدين لكونه كان اشد حياء من والده حسن السمت كثير الصمت فاعجب صاحبة المنزل ادبه وكماله فكان اغلب حديثها معه وكان الانكليزي قريبًا منها فكان هو المترجم

لكليهما ولما حضر الطعام اجلسته عن يمينها والشيخ بينها وبين زوجها
ثم اخذوا يتناولون الطعام ويتجاذبون اطراف الكلام ويتساكون
اسئلة اثناس حتى رفع الطعام فرجعوا الى الديوان ودار بينهم
الحديث في كل قديم وحديث بخصوص مصر وما احتوت عليه
من المحاسن قديما وفي هذا العصر وخصوبة ارضها واعتدال قطرها
وصفاء هوائها ومن سكنها من القدماء والمحدثين ومن تصرف في
امرها من الاولين والاخرين وتداول الدول في الاواخر والاول
وما اعتورها كل زمن من المنح والمحن وكان من جملة الحاضرين
رجل قد ناهز السبعين عليه الوقار والجلالة معظم لدى الحاضرين
مسموع الكلام عندهم اجمعين طلق اللسان في اللغة العربية فظهر
للشيخ من كلامه انه مارس كثيراً من المعارف المشرقية لانه رأى
غالب كلامه اللغة العربية والفقه واشعار العرب ونوادر الادباء
ورآه حافظا لكثير من غرر القصائد ومنتخب كلام البلغاء يمزجها
بنوادر مستظرفات ويقارن بعض لطائف كلام العرب بما يقابلها
من كلام الافرنج فعجب الشيخ من ذلك كل العجب وطرب من
منادمته كل الطرب فطال بينهم الكلام وانفسح المقام ودخل معهم
الانكليزي والحاضرون اجمع منهم من تكلم ومنهم من سمع وخاضوا
بين جد وهزل ومفضول وذي فضل وحوادث البوادي والحواضر
في الغوابر والحواضر الى ان قرب الليل من الانتصاف وجاء
اوان النوم فاستاذن الانكليزي وقام الشيخ والحاضرون وتواعدوا

بالاجتماع فقال ذلك الرجل للخواجا اني اريد ان اتشرف بك وبحضرة الشيخ الليلة القابلة فاعتذر له الشيخ ووعده بان يحضر الى منزله في الليلة التي تليها وانصرف كل مسرورا بما حصل له من الائتناس بمن رآه من اماثل الناس وذهب عن قلب الشيخ ما داخله من الم الاغتراب وفراق وطنه والاحباب وشكر الانكليزي على حسن صنيعه به وعلى ما اسداه اليه من البر وتعرفه باحاسن الناس فقال ياحضرة الشيخ هذا بعض ما يجب عليّ وغاية مناي اطمئنان خاطركم وادخال السرور عليكم وقد علمت الليلة سرور من اجتمعنا به بحضرتكم لاسيما الرجل الهرم فانه انجذب الى حبكم بكليته فمن الواجب دوام الود بينكما وقد رجاني في ذلك وهذا لا باس بمعرفته فانه من مشاهير هذا الوقت علما وادبا ومن خيار هذه الامة حسبا ونسبا وله تآليف عديدة في علوم شتى ومعرفة بلغات متعددة فضلا عن كونه رئيس الجمعية المشرقية معدودا من علماء اوروبا وامريكا ومن اعضاء جمعية الملة واني لارى ان معرفة مثل هذا اصل ينبني عليه معرفة امراء البلد واكابرها

فقال الشيخ ومن لي بمثل هذا فاني استظرفت كلامه وعجبت لجودة قريحته وذكاء فطنته وتوقد ذهنه مع كبر سنه

فقال الانكليزي وكيف رايته في علومكم قال هو مع غلبة العجمية عليه في النطق لبعض الالفاظ العربية ذو قدم راسخة في العلوم وله اطلاع على كثير من كتب العرب وتضلع من علم

الادب ولا بد انه ساح في كثير من بلادنا ومارس فضلاء العباد حتى تمكن مما تمكن

فقال الانكليزي نعم فانه حكى لي انه اقام بمصر مدة سنين وتوجه الى الحجاز واقام بجدة مدة ثم سافر الى عراق العرب ونزل بغداد وساح تلك البلاد ثم ذهب نحو عراق العجم وسكن تخت ملك فارس وكل ذلك كان لطلب العلم فجنى منه ثمرات واقتطف زهرات واما بلاد اوروبا فلم يترك منها بقعة الاّ وله فيهـا شهرة وسمعة حتى جنى من ثمار معارف كل جهة احاسنها واقتطف من ازهار كل فن اطايبها وفي مدة تغربه حاز الفضائل من الافاضل واكتسى الوقار من معاشرة الاماثل وستسبر غوره متى كثر الاجتماع وتاكدت علائق الالفة

المسامرة السادسة والثمانون

تعدد الزوجات

ثم وصلا محل سكنهما فحيي كل صاحبه ودخل الشيخ غرفته فتوضأ وصلى صلاته وقرأ بعض ادعية ثم دخل فراشه ونام حتى الصباح فلما استيقظ من نومه دخل ولده عليه وجلس بجانبه بعد تقبيل يديه ثم قال له والده قد آنسنا اهل مجلس الليلة فانهم اذكيا ظرفاء واظن انك كنت في غاية الانس بصاحبة المنزل فاني ما رأيتها فارقتك ولا رأيتك مللت حديثها وكنت احيانا تحدق النظر نحو صواحباتها وهن كذلك فغض برهان طرفه وتبسم واطرق راسه ولم يتكلم فقال له والده ما الذي دار عليه حديثكم لا بد ان

تخبرني بما جرى بينكم فقال سالتني صاحبة المنزل عن حال النساء
عندنا وعن والدتي واخوتي فاجبتها بما يليق ثم سألتني أمتزوج ام لا وهل
والدك معه غير امك ام لا فقلت لها اما انا فلم اتزوج واما والدي
فليس معه غير والدتي ولم يتزوج بغيرها فقالت وكيف ذلك مع
ان المشرقيين يحبون تعدد النساء فقلت لها كثير من المسلمين
لا يتزوجون بغير واحدة وليس التعدد محتما عليهم. وانما قد تعرض
للانسان اسباب تلجئه الى ان يعدد نسائه والشرع عندنا لا يمنع الاَّ
ما زاد عن اربع واما ملك اليمين فلا حظر فيه ولو كان ما كان
فضحكت احدى النساء متعجبة وقالت حينئذٍ يمكن الغني ان يقتني
الوفًا للتمتع بهن فقلت لها نعم فقالت حين ذاك لا يعرف لاحداهن
فضل عن غيرها فاي بلدة تصنع بنسائها هكذا وكيف تكون معيشة
النساء بها لا جرم انها عيشة غير مرضية ولا شك في ان نسائهم
لا ينقطع لهن زفير من الم الغيظ الكامن في انفسهن وان كل واحدة
انتهزت فرصة من الاخرى تفعلها بها لتحظى بزوجها او سيدها
دونها واظن انه اذا كان صاحب عائلة على هذا النسق لا يسر
خاطره ولا يروق ناظره ويقضي يومه وليلته في دعاويهن مع بعضهن
ومعه فتارة يكون خصما وتارة حكما وربما لا يأمن على نفسه وماله
من عائلته فالعجب كل العجب من هذا الاصطلاح الذي هو منشا
الفساد في حياة الانسان وبعد موته فان ما يحصل بينه وبين

عائلته في حال حياته لا بد ان يحصل اشد منه بينهن وبين اولادهن بعد مماته خصوصًا عند قسم التركة أتظن ان هناك قانونًا للزواج احسن من القانون الذي عندنا فقلت لها ان احسن قانون واحقه قانون شريعتنا الغراء فانه قانون الخالق المدبر لامورنا المتكفل برزقنا وقد جاء به الانبياء المرسلون المطهرون المقربون عليهم الصلاة والسلام وكل ما جاء به الرسل يجب علينا السير بمقتضاه من غير زيادة فيه ولا نقص ومن خالف الشرع وتعدى عن حدوده استوجب الحد كما لو خالف افرنجي انجيل عيسى عليه السلام او يهودي تورية موسى فانه يعاقب على مقتضى شريعته ولا يسوغ لاحد أن يسير بمقتضى عقله ويترك ما وردت به الشريعة فان عقل الانسان محل للخطاء وايضًا ليس في النوع الانساني من هو اوفر عقلا من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولله فيما نراه من الخلاف بين الشرائع عند التشريع حكمة خفية لا تدركها عقولنا ولو اطلعنا عليها لرجعنا الى الحق وتركنا ما سوّله الشيطان حتى وقع عند بعض العقول موقع قبول واستحسان واما اشتغال البال بالذي يحصل من منازعات الضرات فلا يحسن وجها للتحسين والتقبيح فقد يكون هناك من له امراة واحدة وهو منغص العيش من قبلها مشوش الفكر بسببها فكل نفس جعل الله لها من هموم الدنيا وحظوظها نصيبا على قدرها وقد يحصل التوافق بين زوجات وينتظم الحال ويحسن المآل

فقالت الجميلة منهن البديعة بينهن ليس للانسان الاّ قلب واحد فلا يهوى غير شي واحد وكيف يقسم بين اثنتين فقلت لها دوام الحال من المحال فانه لو تعلق قلب الانسان بذات من الذوات والفها اشد ما يكون من الالفة وتولع بها وهام فلا تثبت له هذه الصفة على الدوام بل متى انقضت مدة التعلق قصيرة كانت او طويلة وتخلى القلب عما علق به سكن غيره فيه واظن انا لو تاملنا لوجدنا هذه الحالة لدى كل الناس لاتخص جهة دون اخرى ولا خلقا دون اخرين ففي قانون شرعنا لو وجد الرجل بقلبه كراهة لزوجته يسوغ له فراقها وكذلك هي لها ان تشتري منه عصمتها او تطلب منه ان يفارقها ويتخلص كل من الم الكراهة واما عندكم فلا حيلة ولا خلاص لاحد الزوجين من صاحبه تحابا او تباغضا فتبسمت صاحبة المنزل من قولي وقالت لمن تحادثني قد الزمك المصري الحجة فخجلت ولم تتكلم بعد ذلك وكان صاحبنا الانكليزي معنا وهو المترجم لي ولها عما دار بيننا من الحديث فكان يقوي حجتي فقد فهمت من كلامه ان قال لهن ان بقاع الارض مخالفة لبعضها في احوالها وكل امة سكنت بقعة منها كانت امور نظامها واحوالها على حسب ما تقتضيه حال بقعتها تتميما للنظام وتوافقا بين البقاع وما فيها من الحيوان والنبات والمياه والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وغير ذلك وايضًا فان المقصود من

الزواج انما هو زيادة النوع الانساني فلو فرضنا انه جار في بلاد المشرق كجريانه في بلاد المغرب لحصل الخراب في ارض المشرق او العكس لما وسعت بلاد المغرب اهلها فان المولودين في اوروبا اكثرهم ذكور والمولودين في الشرق اكثرهم اناث فنسبة الاناث المولودين بارض المانيا مثلا الى الذكور المولودين بها كنسبة مائة واربعة الى مائة هذا وان كان من يموت هناك من الاناث صغيرًا اكثر ممن يموت من الذكور فان العبرة في التعادل بمن بلغ سن البلوغ من النوعين واما زيادة الذكور عن الاناث في ارض فرنسا على العموم فهي جزوء من خمسة عشر جزاء بخلاف باريز فان زيادة المولودين الذكور عن الاناث بها جزوء من سبعة وعشرين جزاء وفي لوندرة نسبة المولودين الذكور الى الاناث كالنسبة بين عددي تسعة عشر وثمانية عشر وفي مدينة نابولي من بلاد ايطاليا كنسبة اثنين وعشرين الى واحد وعشرين وفي بلاد الفلمنك وما جاورها كنسبة ثلاثة وعشرين الى اثنين وعشرين وليس ذلك مجرد قول بل كله ثابت بجميع نتائج تعداد هذه الجهات في نحو من مائة سنة فظهر من هذا ان الذكور ببلاد اوروبا اكثر من الاناث بخلاف ارض مصر وبلاد النوبة وبلاد الشرق فقانون الطبيعة عندهم جار على عكس ما عندنا لان المولود من الاناث عندهم اكثر من الذكور بقدر ثمن عدد الذكور وهذه حكمة ابدية وارادة ازلية وفي

بلاد الصين ويابونيا زيادة الاناث عن الذكور بقدر السدس وقانون الفناء جار تقريبا على هذا المنوال ففي اوروبا النسبة بين الاموات الذكور والاناث كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين وخمسة وعشرين وفي مصر على مقتضى الجداول التي حررتها الافرنج تكون النسبة بين من يموت من النساء ومن الرجال كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين الى عشرين فمعناه ان من يموت من النساء اكثر ولكنه غير مساوٍ لكمية المولودين هذا مآل ما فهمته من كلامه معهن ثم ضرب لي مثلا بمديرية المنيا وبني مزار فقال ان الملك الاشرف شعبان بن الملك الناصر محمد كان مسح قطر مصر كله وعد اهل المنيا وجميع قرى المديرية وكان ذلك سنة ثمانمائة وخمسة عشر فوجد اهالي تلك المديرية قريبًا من العدد الذي وجدته الافرنج حين عدوا تلك المديرية فان رجال اهلها كانوا مدة الناصر تسعة عشر الفًا وثمانمائة في ثلاث وثلاثين قرية وخمسة عشر الفًا وسبعمائة في ستة وستين كفرا والفين وثمانمائة وواحدًا وعشرين في ثلاث وعشرين نزلة والفا وستمائة وثلاثة وثلاثين في ثمانية وثلاثين نجعا فمجموع ذلك تسعة وثلاثون الفا واربعمائة واربعة وخمسون رجلا وبجعل عدد النساء اكثر من عدد الرجال بقدر الثلث كما دلت على ذلك التجاريب يكون مجموع النساء اثنين وخمسين الفًا وسبعمائة وخمسين فيكون جميع اهالي المديرية من

الذكور والاناث مائة الف وثلاثة الاف نفس وثمانمائة وفي وقت الافرنج وجدوا اهالي المديرية المذكورة مائة الف واربعة الاف وستمائة وخمسين نفسا فيكون الفرق ما بين مدة الملك الناصر وبين عدد الافرنج لهذه المديرية اي من سنة الف وثلاثمائة وخمسة عشر الى الالف وسبعمائة وثمان وتسعين نحو ثمانمائة نفس في ظرف اربعمائة وثلاث وثمانين سنة وهو شي يسير جدا لكن يلزم ان يلاحظ انه في تلك الاوقات كان ياتي الطاعون في كل اربع سنين مرة وفرار اناس كثيرين بسبب ما كان يحصل اذ ذاك من الجور والظلم هذا ما لاح بفكري وبناء على ما سبق يعلم سبب تعدد النسا في بلاد المشرق دون بلاد المغرب وارجو ان اسمع من جنابكم ما عندكم في هذه المسئلة

فقال الشيخ لا شبهة في ان القوانين العامة التي يراد بقاؤها على مرور الازمان يجب ان تكون ملحوظة الاصول والفروع بلواحظ الاستحسان وان تكون مربوطة بعلل صحيحة واغراض حميدة يفهمها كل احد ويرى ان لا سداد لاعماله وحسن حاله ومآله الاّ بالركون اليها والتعويل عليها سواء كان القانون من الفيض الالهي الذي لا يكون مسبوقا باجالة فكر وتدقيق نظر وهو المسمى وحيًا والهامًا وحَملته الانبياء والرسل وتسمى تلك القوانين باسم الشريعة والدين او كان القانون باجالة الفكر وتدقيق النظر ومقارنة الاحوال وموازنة العواقب فما كان منها اسهل مسلكا واعلى

غاية وابعد من شوائب الفساد واقرب الى الضبط واجمع للخير انحط عليه الاختيار وتطابقت فيه الاراء واصحاب اولئك القوانين يسمون باسم الحكماء وقوانينهم تسمى الحكمة العملية وهي قسيمة الحكمة العلمية والحكمة العلمية منقسمة الى اربعة اقسام القسم الاول سياسة الشخص نفسه وهذا القسم هو المسمى بين اهل الاسلام بعلم الاخلاق والتصوف الظاهر وقد وضع علماء المسلمين فيه كتبا جمة كقوت القلوب لابي طالب المكي ونصف احياء العلوم لحجة الاسلام الغزالي (ويشرح في هذا العلم ما جبل عليه الانسان من القوى وآثارها وتقسيمها الى اصول وفروع فيبين مثلا ان الانسان ذو قوة غضبية هو من جهتها سبع وقوة شهوية هو من جهتها بهيمة وقوة عاقلة هو من جهتها ملك من الملائكة وروح من الارواح المقدسة وان لكل من القوى توابع هي لها بمنزلة الخدم والعمال والقوة العاقلة هي السلطان الاكبر وانه يلزم الانسان ان يكون تصرف قواه تحت اوامر القوة العاقلة ونواهيها) القسم الثاني سياسة المنزل بان يعرف ما للمنزل وعليه من الحقوق وما لاهلـــه من الوظائف اللائقة باشخاصه فيسلم لكل شخص وظيفته بعد ايقافه على حدودها واعمالها وغاياتها القسم الثالث سياسة المدينة وهو كالقسم الذي قبله وغاية الامر ان المدينة منزل اكبر القسم الرابع سياسة القطر وبالتامل يعلم ان جميع السياسات مرتبطة ببعضها ارتباطا متينا كما هو من مقتضى النظام الفطري الذي عليه مجموع العالم ازمنة وامكنة اذ لا ريبة

في ان العالم شخص واحد ذو اعضاء واذا تمهد هذا علمت انه
يجب في كل قانون شرعا كان او غيره ان ينظر الى علله التي
اسس عليها وغاياته التي يرشد اليها فانها الحافظة له الموجبة لبقائه
المكنة له من القلوب فان مدار امر الحي على ما يحفظ به حياته اصلا
وتوابع فكل امر له دخل في ذلك فهو محبوب مطلوب وكل امر
اوجب فيه نوعا من الفساد فهو مبغوض غير انه اذا نظر في احكام
المصالح العامة وتابيدها وتمتين قواها كانت المصالح الخاصة تابعة لها
جارية على منهاجها ومتى كان النظر مقصورًا على المصالح الخاصة
نجم الفساد واستحكم ولم يتم امر مصلحة لما يكون في الاستئثار من
المباغضة والمشاحنة ومن الامور العظيمة التي يجب مراعاتها والمحافظة
عليها بقانون منتظم امر اجتماع الذكور بالاناث فانه مع كونه مانعا
من لحوق ما ينشاء عن الامتلاء فهو السبب في بقاء النوع وتكثيره
وللانسان بين طبيعته التي يشارك بها سائر الحيوان واسطة يتميز
بها عنه وهي العقل فهو لا يسعى في تحصيل مقتضيات طبعه الاَّ
تبعا للاحكام العقلية ولما لم تكن الانظار العقلية والطباع الفطرية
كافية في ذلك منّ الله علينا بان ارسل لنا انبياء تلقينا منهم ما لا
تفي به الانظار العقلية فكان من شريعة موسى عليه السلام ان يجمع
الرجل في عصمته ما شاء من النساء فلما جاءت شريعة عيسى عليه
السلام نسخت ذلك واوجبت الاقتصار على واحدة وتوسطت
الشريعة المحمدية كما هو شانها في كثير من الاحكام فاجازت

العدد الى الاربع ومنعت ما وراء ذلك كما اجازت فراق واحدة واخيتار اخرى وحيث كانت الشريعة المحمدية مبنية على العدل والاحسان واجتناب انواع الظلم والعدوان وكسر عادية القوى السبعية والبهيمية وقد امرنا باتباعها والاهتداء بانوارها لم يكن امر تعدد النساء محذورًا لا في الحال ولا في المآل فانه اذا نظر لبقاء النوع وتكثيره كما هو المأمور به في قوله صلى الله عليه وسلم تناكحوا تناسلوا تكثروا كان التعدد اعون على ذلك الغرض وانجح وان نظر الى المساعدة والمعاونة فالكثرة مع الائتلاف واتحاد الغرض خير من عدمها ولا نظر في الدين لمجرد الشهوات اذ لو نظر لها لوجدنا ان المرأة الواحدة تعجز كثيرًا من الرجال واذا كانت النساء في بقعة اكثر من رجالها والضرورة داعية الى توزيعهن فتعدد الزوجات لازم غير ان استحكام الجهالة والغاء مدارسة الديانة وترك بناء الاعمال على احكامها وانقطاع المواعظ الحسنة النافعة المفيدة بين الرجال والنساء تولد منه العود الى مقتضيات الطبائع من الغيرة والمحاسدة وحب الاستئثار والاسترسال مع الشهوات والدخول في الامور من غير تقدير للحاجة ونظر للعاقبة فاختل قانون الازدواج ولحقه الفساد وقامت المشاقة فخلاصة القول ان جميع الاشيا حسنها وقبحها ومدحها وذمها تابعة لكيفياتها ونتائجها فما طابت كيفيته وعظمت نتيجته لم يختلف احد في حسنه . اه .

المسامرة السابعة والثمانون

التعداد او الاحصاء

ثم دخل الانكليزي والشيخ يلقي لابنه هذا الكلام فانتقل الحديث بهم الى مسئلة تعداد اهل الارض وذكر ما في ذلك من الفوائد السياسية وبيان ما وضع له من التقريبات فكان من الانكليزي ان قال لو قلنا مثلا ان النسبة بين الموجودين بارض فرنسا وبين المولودين بها في السنة الواحدة كالنسبة بين عددي واحد وواحد وثلاثين فهم منه معرفة جميع اهل فرانسا تقريبًا بضرب عدد المولودين في عدد واحد وثلاثين ومثل ذلك ما لو قدرنا ان النسبة بين اهالي جهة من المانيا والجهات الشمالية وبين المولودين بها كالنسبة بين عددي واحد وتسعة وعشرين وثلث والقصد عن ذلك معرفة عدد الامة على سبيل التقريب وهذا لا

باس به بل قد يجب على الحكام ليبنوا عليه مقاصدهم في اصلاح حال رعاياهم وهذا علم نفيس معتنى به عند الامم الاوروباوية وله فوائد عندهم منها معرفة من بقي ممن ولد في يوم واحد مثلا بعد مضي عدد من السنين ولهم في ذلك جداول يذكرون فيها ان بعد سنتين الاَّ ربع سنة يموت ربع من ولد في اولها ويبقى الثلاثة الارباع وبعد اربع سنين الاشهر يبقى ثلاثة اخماس فقط وبعد تسع يبقى ثلاثة اتساع وبعد عشرين سنة الى الثلاثين النصف وبعد خمس وثلاثين الى اربعين يكون الباقي خُمسيَن وبعد الاربعين يبقى الثلث وبعد مضي خمس وخمسين سنة لا يبقى الاالربع ثم بعد سبع وستين يكون الباقي ثلاثة اجزاء من عشرين جزاء من الاصل ومتى بلغ العمر سبعا وسبعين سنة يكون الباقي جزاء من ثمانية عشر جزاء من الاصل وبعد مضي خمس وثمانين سنة يكون الباقي اثنى عشر جزاء من الف جزء من الاصل وبعد اربع وتسعين سنة يكون الباقي ثلاثة اجزاء من الفي جزء وبعد مائة وخمس سنين وثلاثة ارباع السنة يكون الباقي جزاء من مائة الف جزء ومتى بلغ العمر مائة سنة وتسع سنين يكون الباقي جزاء واحدًا من الف الف جزء من الاصل اي انه لو فرض ان الاصل كان المولود في يوم واحد الف الف لا يبقى منهم بعد هذه المدة الاَّ واحد عمره مائة سنة وتسع سنين

فبهذه الوسائل تكون افكار الحكام تابعة لسير الامة في جميع

تنقلاتها وحركاتها نحو السعادة والفقر والقوة والضعف والكثرة والقلة فعلى مقتضى ما يرونه ينحون نحو ما فيه الاصلاح

فقال الشيخ من المعلوم ان الافرنج لم يقيموا بمصر غير ثلاث سنين وهم في قتال دائم فكيف تفحصوا هذا التفحص واستكشفوا هذا الاستكشاف مع انها بقيت في يد غيرهم اعوامًا وقرونا ولم يحدثوا من ذلك شيئًا

فقال الانكليزي لا غرابة في ذلك فان الاعمال تابعة للنيات فمن سبق على الافرنج كان لا يشغله عن شان نفسه شأن وما كان يحصل عليه كان كافيًا لما يلزمه واما الافرنج فكانت نيتهم غير نية من سبقهم وباختلاف الاغراض تختلف الاعمال انظر الى المرحوم محمد علي باشا حين وليها بعد الافرنج فاحدث فيها امورًا عجيبة وجلب اليها من البلاد الاجنبية كل صنعة غريبة ثم تبعه في ذلك من بعده ممن ورثها من ولده فتراها بعد ان كانت في زوايا النسيان مهجورة العمران لا ذكر لها بين الامصار قد كساها التمدن حلل الفخار فقصدها العافون من كل واد وغلت مزارعها واضحت نزهة للناظرين وبساتينها عقود جمان رصعت بالدر الثمين وما من سنة تاتي الاّ ويستجد بها من المنافع ما يفوت الحصر من فوائد جديدة ومحاسن عديدة والمغارس تزداد والثمرات تنمو وبعد ان كان كثير من ارض الزراعة بها قد استحوذ عليه العدم وصار لا ينبت من طفو ماء البحر الملح عليه او تغطية الرمال له حصل الالتفات

في مدته ومدة اولاده فصلح اكثرها وزرع وظهرت الثمرة لاهلها وقد كان بالجهات البحرية من مصر مناقع مياه متسعة وبها كثير من الحشائش فكانت بطول مكث الحشائش وركود الماء يحصل منها تعفن وامراض يترتب عليها تلف للاهالي فصارت الان لا يرى لها اثر وتبدلت حشائشها بالزراعات النافعة كالارز والقطن والحنطة وغير ذلك

فقال الشيخ ان ذلك متوقف على العلم بما كان عامرا وغامرا بمصر قديما فلو عرفنا ذلك امكن الحكم بتفضيل احد الحالين وتفاوت ما بين الزمانين فان من المؤرخين كابن اياس من يقول ان المنزرع من ارض مصر زمن المسعودي اعني في حدود القرن الرابع كان مائة وثمانين الف الف فدان ويبلغنا الان عن بعض صيارفة البلاد ان جميع المنزرع من ارض مصر ما بين الاربعة الاف الف والخمسة الاف الف فتكون نسبة ما بين الزمانين كنسبة واحد الى ستة وثلاثين او خمسة واربعين ولا اظن ان هذا الفرق كان يزرع ثم هجر فلعل في عبارة ابن اياس تحريفا والاّ فهو خطاء والذي يؤيد ذلك قوله ان في ذاك الوقت كان لا يجبى الخراج على بكرة ابيه الاّ اذا بلغ عدد من يشتغل بالزراعة اربعمائة وثمانين الف نفس في جهات القطر مع ان الموجود حين التعداد الذي صار في زمنه ليس الاّ مائة وعشرون الف نفس وكان المنزرع اذ ذاك ربع الزمام فان اراد الفدان المصطلح عليه

خص كل شخص من المائة والعشرين ثلاثمائة وخمسة وسبعون فدانا ولا يعقل زراعة هذا القدر بشخص واحد وان اراد بالفدان اقل من الذي نستعمله كالقيراط مثلا فيخص كل شخص من المائة والعشرين الف نفس حينئذٍ خمسة عشر فدانا فيكون القدر الذي اراد وضعه الف الف فدان وستمائة الف فدان وليس مائة وثمانين الف الف فدان واذا كان للشخص الواحد خمسة عشر فدانا لا يبعد عليه زراعتها وما يدل على ان في عبارة ابن اياس تحريفا او خطاء ما ذكره في موضع اخر عن المسعودي ايضًا من ان مساحة ارض الزراعة جميعها بالقطر المصري مسير ستين يومًا فان كان قصده سعة طولها وعرضها ستين بسير الانسان فالمساحة الذاتية الان لا توافق المساحة الاولى اصلا والذي يغلب على ظني غلبة تقرب من اليقين ان الاصل الف الف وثمانمائة الف فدان وان الناسخ لكتاب ابن اياس اضاف صفرًا فحصل منه هذا الخطاء الفاحش

فقال صاحبه الانكليزي قد قلت صوابا فان المساحة التي صارت مدة الافرنج ومن قبلهم توافق ما ذكرت فقد صار حصر جميع الارض المضروب عليها الخراج في جميع الجهات وتحرر بها قوائم من طرف صيارف الجهات فوجدت ثلاثة الاف الف فدان ومائة وثلاثة وستين الف فدان وستمائة وثمانية عشر فدانا وقوبل ذلك على ما استنبطه مهرة المهندسين وحرروه من رسم الارض وهو

ثلاثة الاف الف ومئتان وسبعة عشر الف فدان وستمائة وسبعة عشر فدانا فوجد بينهما فرق قليل نشأ من اختلاف طرق الحساب بين مساحي الاهالي والمهندسين وحينئذٍ فهذا المقدار اعتباره صحيح لا شك فيه فانه موافق لما وجد في دفاتر المساحة زمن الملك الناصر سنة ٧١٥ هجرية الموافقة لسنة ١٣١٥ ميلادية وهو ثلاثة الاف الف ومائة واثنان وسبعون الف فدان ومائة وستة وثلاثون فدانا ولا عبرة بما بينهما من الفرق لانه ناشئ من اختلاف طرق الحساب والقياس

ثم قال ولا يخفى على حضرتكم ما حصل في القطر المصري بعد زوال ملك الفراعنة واستيلاء الاغراب عليها من الاسباب التي اوجبت تاخيرها وعدم انتظام حالها ونشأ من ذلك تلف كثير للارض بتركها واهمالها وفرار اهلها حتى خرب كثير من البلاد فمن ذلك يعلم ان ما وجده الافرنج مزروعا بوادي مصر ليس جميع ما كان يزرع في الازمان السابقة بل لا بد من اضافة ما كان قابلاً للزراعة ولم يزرع في ايامهم وكذلك الترع والجسور التي انشئت وارض البلاد التي استجدت وما اتلفه البحر المالح بعد تلف الجسور وترك المحافظة وضمه الى ما كان يزرع زمن الفراعنة وهذا الامر لا صعوبة فيه من بعد ما حرروه من الرسوم وقد امكن بسببه معرفة مساحة القطر وما اشتمل عليه بغاية الدقة كالمبين ادناه

فدان	
٧٣٠٥٨	ارض مشغولة بالسكن
٣٢١٦٧١	مساحة المنزرع والقابل للزراعة
٧٤٩١٤٠	غير الصالح للزراعة
٣٦٦١٣	جزائر النيل
١٢٠٥٦٣	ترع وخلجان وجسور
١٦٣١٦	اماكن السكن والخراب
١٥٨٩٤١	مساحة مجرى النيل المشغول بالماء
٩٤٢٨١٠	البحائر والبرك
٢٢٧١٣٤	الارض الرملية
٥٥٢٤٢٥٠	جملة ذلك

اي خمسة الاف الف فدان وخمسمائة واربعة وعشرون الفا ومائتان وخمسون فدانا من الفدان الذي مساحته خمسة الاف وتسعمائة وتسعة وعشرون مترًا مربعا وهذا القدر يعادل من الفراسخ المربعة التي كل فرسخ منها يدخل في الدرجة الارضية خمسا وعشرين مرة الفا وستمائة وثلاثة وستين فرسخًا مربعا وثلثي فرسخ تقريبًا والمزروع من ذلك يعادل تسعمائة وخمسة وستين فرسخًا مربعا ونصفا فان اضيف الى ذلك

٢٢٤٨٧ مساحة الخرس وهى

١٠،٩٩	ومساحة الجزائر المتروكة وهى
٨٣،٩٠	ومساحة ما عدم من الجسور والترع وهى
٢٦،٨٢	ومساحة التلال والخراب وهى
٦٨،١٨	ومساحة الرمال من ارض الزراعة وهى
٣٣٠،٠٠	ومساحة ما تلف بسبب البرك وهى
٤،٩٠	ومساحة ما غطته الرمال وهى
٢٢٠٠،٦١	كان المجموع

اي ان الذي كان يظن زرعه في عهد الفراعنة الفان ومائتان فرسخ مربع تقريبًا منها في الوجه القبلي الف وخمسمائة فرسخ وفي الوجه البحري سبعمائة فرسخ والمنتفع به من ذلك الان قريب من الفين وخمسمائة فرسخ مربع والمتروك مع امكان زرعه وانتفاع الاهالي به عند قدرتهم وثروتهم سبعمائة فرسخ مربع وهذا موافق لقول ابن اياس بعد التصليح الذي ذكرنا وذلك انا اذا ضربنا المنزرع في وقته وكان قدر ربع ما كان يزرع قديمًا في اربعة يحصل سبعة الاف الف فدان ومائتا الف فدان وهو عبارة عن الفين ومائة وخمسة وخمسين فرسخًا مربعا والفرق بينه وبين ما قدرته الافرنج قليل جدًا

فبناء على ما ذكرنا يكون ما يزرع في الايام السابقة قريبا من سبعة الاف الف فدان وما كان يزرع مدة الافرنج اقل من النصف وكذا ما كان يزرع مدة الملك الناصر

فقال الشيخ اذا كان ما يزرع الان نحو خمسة الاف الف فدان فيكون قد زاد عما كان يزرع ايام الفرنج نحو الثلث وهذا مما يفيد التقدم بلا شك

فقال صاحبه الانكليزي حصول التقدم بمصر امر غير منكر وارض مصر قابلة لان يزرع بها ضعف ذلك واكثر واذا التفت الى قطر مصر امكن ان يزرع به كل ما كان يزرع سابقا وان يرجع ما كان له من الثروة القديمة والذي يغلب على ظني ان في هذا التقدير خطاء فان قدر الفدان المستعمل في جباية الاموال الان سبعة عشر قيراطا من الفدان الذي كانت الافرنج قدرته بمعنى انه ثلث وربع الفدان القديم واذا لاحظنا ذلك وجدنا ان الخمسة الاف الف هي الثلاثة الاف الف وخمسمائة وثلاثة وستون الف فدان ومائة وثلاثون فدانا فيكون الفرق عن مدة الافرنج ثلاثمائة واربعة وخمسين الف فدان فقط وهذه نتيجة اعظم من النتيجة الحاصلة من ابتداء الملك الناصر الى دخول الافرنج وهذه مدة تقرب من اربعمائة وثلاث وثمانين سنة حصل فيها نقص ثمانية الاف فدان وخمسمائة وثمانية عشر فدانا باعتبار المقرر في قوائم الصيارف ودفاتر الخراج

وعمار قطر مصر ليس الا بتقدم الزراعة فكلما حصل زيادة الالتفات الى الزراعة واتسعت ارضها زاد تعداد اهالي القطر وكلما حصل اهمال في الزراعة وضاقت ارضها نقص التعداد ففي الازمان

السابقة كان تعداد الاهالي كثيرًا جدًا لان الفراعنة كان لهم اعتناء بامر الزراعة وقد بلغ عدد الاهالي في زمنهم الى مقدار عظيم وان لم تتفق المؤرخون على قدر معين فان هيردوط وهو اقدمهم قال انه كان بمصر في وقت امزيس نحو عشرين الف مدينة وقرية وفي زمن بطليموس وديودور الصقلي اقتصر على ثمانية عشر الفًا وجعل عدد الاهالي سبعة الاف الف نفس في زمن الفراعنة وفي زمنه نقص الى ثلاثة الاف الف وكانت جيوش الفراعنة الف الف نفس وعدد العساكر التي ساقها سيزوستريس من مصر في محارباتها ستمائة الف من المشاة واربعة وعشرون الفا من الخيالة خلاف سبعة وعشرين الف عربة حربية ويتوكريت فاق الجميع وجعل العدد ثلاثة وثلاثين الفا في زمن بطليموس فيلدولغوس وغيرهم قدر ان تعداد المدن ثلاثة عشر الفا فقط ومن قول يوسف الاسرائيلي يؤخذ انه لم يتعدَّ تعداد الاهالي في قطر مصر عن سبعة الاف الف خلاف الاسكندرية التي جعل عدد اهاليها ثلاثمائة الف وقال انه كان في مدينة بيلوز عساكر للمحافظة على القطر من جهات الشرق يبلغ عددهم مائتين وخمسين الفًا

ومؤرخو هذا الوقت لم يكتفوا في عدد المصريين بمبالغة من سبقهم من المؤرخين الذين ذكرناهم بل زادوا عليهم بما لا يتصوره العقل فمنهم من قال ان عدد الاهالي سبعة عشر الف الف ومنهم من قال سبعة وعشرون الف الف ومنهم من قال اربعون الف

الف ومبالغة الجميع ظاهرة لانه لا يتصور في بلدة نسبتها الى فرنسا كنسبة جزء الى اثنى عشر جزءاً ان يعيش بها هذا القدر

ونحن وإن كنا لا ننكر كثرة اهالي مصر مدة الفراعنة لكن لا يمكننا ان نقول انهم يزيدون عن سبعة الاف الف فان سعة ارض القطر حسب ما قدره الاقدمون الفان ومائتا فرسخ وهذا موافق ايضاً لما هو الان ولتقدير الافرنج بعد رسمهم سطح الارض جميعه ومن القدر هذا مدينة طيبة ومنفيس وباقي المدن وهو مع وروده عن اقدم المؤرخين الذين ساحوا ارض مصر في زمن يقرب من الزمن الذي زال فيه ملك اهلها وانحط فيه مقدارها مناسب لسعة ارضها الزراعية التي بها حياتهم وما قاله بعض المؤرخين يمكن ان نبرهن عليه ولا مانع من انه كان الموجود بها ثمانية الاف مدينة وقرية وكفر كما قال بعضهم لا كما قال ديودور من انه كان بها ثمانية عشر الف مدينة لان في الجزء الاخير من البطالسة كان عدد القرى والكفور والمدن ثلاثة الاف وكانت ارض الزراعة اقل من نصف ما كان يزرع سابقا ولا مانع من ان عدد البلاد كان قدر ذلك مرتين ايام كانت القوانين العدلية القديمة هي المتسلطة وذلك قبل دخول الاغراب من العجم واليونان وغيرهم هذا القطر وخراب ارضه وهدم بنائه

فقال الشيخ اني سمعت ان مدينة طيبة كانت اكبر مدن الدنيا عماراً وانها كان لها مائة باب كل باب يسع مائتي فارس

فاذا كان كذلك فلا شك انها تشغل سعة من الارض عظيمة وانها كانت مسكونة بخلق يزيدون عن ساكني القاهرة الآن بمرار كثيرة

فقال الانكليزي ولو ان ايدي الزمان وصروف الحدثان غيرت معالمها ودرست رسومها واعفت مبانيها واخنت على مفاخرها الاّ أن ما بقي الان من اثارها دال على ان شكل المدينة في الزمن القديم كان عبارة عن اربعة اضلاع عظيمة الامتداد وان احدى الزوايا تنتهي الى المحل المعروف الان بكفر جرجس والثانية الى الشاطئ الايمن للنيل والثالثة الى شاطئه الايسر وتسمى الان تل الايسر عند تل قبور الملوك والزاوية الرابعة الى المعبد او البربى الصغيرة الموجودة على الميدان الكبير فكان بناء على ذلك يمر الضلع البحري بالقرية المعروفة بالتحتاني وبجزيرة الورزية وينتهي قريب القرية والضلع القبلي كان يمر في قربه مائة عمود قاطعا للجزيرة الجديدة وخراب الكربك كان يوجد على بعد سبعمائة متر من الضلع الجنوبي ومساحة الارض المحدودة بهذه الحدود تقرب من سبعة الاف فدان مصرية

وطول اعظم قطر في هذه الاربعة الاضلاع احد عشر الف متر ومحيطه ستة وعشرون الف متر فاذا استنزل من ذلك مساحة مجرى النهر وهي خمسمائة فدان تقريبا مع مساحة الميدان الكبير وخراب السراي الملوكية الموجودة في جنوب الاقصر على بعد ثلاثة

الاف متر كان الباقي ما كان مسكونا من هذه المدينة في الازمان السابقة وقدره خمسة عشر الف اورور او خمسة الاف فدان مصرية كبيرة

واذا قارنا تخت مصر القديم بتختها الان وهو القاهرة فلا يكون اهل طيبة في الزمن السالف اقل من سبعمائة الف نفس لان محيط القاهرة ثلاثة عشر الف متر وخمسمائة متر بدون اعتبار الاعوجاج الداخل والخارج وباعتباره يبلغ محيطها اربعة وعشرين الف متر ومساحتها الفا وخمسمائة وثمانين فدانا تقريبًا وهو ربع مساحة ارض باريز وعدد اهلها بالتفحصات التي صارت مدة الافرنج يقرب من مائتين وستين الفا وذلك سنة الف وسبعمائة وثمان وتسعين ميلادية فعلى ذلك يكون قد خص الفدان الواحد مائة واربعة وستون شخصًا بادخال ارض المساجد والخانات والميادين وغيرها وقياسا على ذلك تكون اهل طيبة ثمانمائة وعشرين الف نفس او سبعمائة الف بالاقل ومما تقدم يعلم ان اهل القطر المصري كانوا كثيرين ولذلك كانت اشجار الثروة والرفاهية باسقة الاصول مورقة الافنان وكانت ارضها لما اشتملت عليه من البر والاحسان هي المشار اليها باطراف البنان وكانت ارباب الحاجات ما بين قاصد لها وآت وكانت وفود التجار ياتونها ليلا ونهارًا وثمرات العلوم تجنى من مدارسها بواسطة ما بها من العلماء واستمر ذلك ايامًا مديدة واعواما عديدة حتى دخلها الفرس وبددوا شملها

فحلت باهلها المصائب واحاط بهم الظلم من كل جانب فاختل نظام
احوالهم القديمة وذلت علماؤهم واحتقروا فرجع سعدهم القهقرى
وفارقت زراعهم ارضها ومن كثرة الفتن الثائرة بين المصريين
والفرس تلف اكثر الاثار الشهيرة وهدمت المباني الفاخرة ثم استولى
على الاقليم البطالسة فاخذوا في رد كل شي لاصله لكن لم يتم
ذلك فانه ان كان يحصل من بعضهم ما يوجب التقدم يجيئ
الوارث فيفعل ما يوجب التاخر فبقيت حالة التاخير الى ان
استولت الروم وضمت مصر الى ملك القياصرة وجعلت طعمة لرومة
فنهبوا اموالها وغيروا احوالها ثم وقع الفشل بين الرومانيين وبعضهم
فزاد انحطاط قدر مصر وذهب ما بقي من فضلها وما زال اهلها
كذلك يتناقصون الى ان تولى عليها عمرو ابن العاص من قبل
الخليفة عمر بن الخطاب فكان تعداد اهلها حينئذٍ لا يزيد عن اربعة
الاف الف وستمائة وثلاثين الف نفس بناء على ما ذكره المورخون
فقد نقل ابو الحسن عن ابن خطير انه ضرب على اهل مصر
خمسين الف الف يدفعونها على ثلاثة اقساط متساوية اذا كان
النيل وافيا وبلغ حده المعلوم واذا نقص عن حده ينقص من
المضروب عليهم على حسبه ومن يرضى من الروم وغيرهم بالشروط
المعقودة مع اهل مصر يعامل بما يعاملون به ومن يأبى من الاهالي
دفعها اسقطوه من العدد فلو امكن معرفة ما دفعته المصريون
وما ربط على كل نفر لم يصعب معرفة عدد الاهالي ويتوصل

لذلك ما ذكره مؤرخو العرب في هذا الخصوص

فمن قول ابن عبد الحكم يعلم ان في مدة الروم كانت الارض منقسمة الى اربعة وعشرين قيراطا وكان المجعول على الفدان من الخراج اردب قمح وويبتان من الشعير

وهذا غير فردة الرؤس فانها كانت تدفع نقدا وان عمرو بن العاص ابقى الخراج على ما كان عليه في مدة الروم

وذكر القدوري انه جعل على كل غني في كل سنة ثمانية واربعين درهما وعلى كل اجير اثنى عشر درهما وانها كانت مضروبة على اليهود والنصارى ما عدا عبدة الاوثان من العرب دون المرتدين والنساء والاطفال وذوي العاهات والفقراء والمساكين ومن يدخل في دين الاسلام وعلى هذا كانت الجزية اخذة في النقص بزيادة من يتدين بدين الاسلام الى ان اعطيت التزاما في زمن القاضي الفاضل أي سنة ٥٨٧ وكان مقدارها اذ ذاك واحداً وثلاثين الف دينار ثم نقصت بعد ذلك كثيرًا الى ان صارت سنة ٨١٠ احد عشر الف دينار واربعمائة

مع انها كانت في زمن عمرو بن العاص اثنى عشر الف الف دينار وفي زمن المقوقس عشرين الف الف

وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حصل عبدالله بن سعيد عامله من مصر اربعة عشر الف الف

وفي زمن المقريزي نقصت نقصًا كليًا فكانت تدفع منفردة تارة

وتضم الى الخراج اخرى وكانت في زمن عمرو بن العاص لا تؤخذ الاّ ممن بلغ الحلم وكانت النساء والاطفال معافة منها وكان قدرها اربعين درهما من الفضة او عشرة دنانير خلاف اردب من البر

ويوخذ من قول يزيد وابي الحسن ان الذي كان مضروبًا على كل رجل من القبط ديناران ولا بد ان هذا كان الحد الوسط يعني ان البعض كان مضروبًا عليه اربعة والبعض ثلاثة والبعض اثنان والبعض اقل كما صار ذلك في توزيع ما ضربته الافرنج على اهالي القاهرة سنة ١٧٩٨ ميلادية فقد ضربوا عليهم تسعين الف حصة جعلوا منها تسعة الاف على الاغنياء قيمة الحصة اربعمائة واربعون ميديًا وثماني عشر الف حصة على من يليهم في الثروة قيمة الواحدة مائتان وعشرون ميديا وثلاثة وستون الف حصة على من يليهم كل حصة قيمتها مائة ميدي وعشرة والنسبة بين هذه الحصص كالنسبة التي كانت في زمن القدوري

والذي يدل على ان الدينارين الحد الوسط ما نقله المقريزي عن حسين بن شالي في الكلام على القرن الاول من الهجرة من ان اهل اسكندرية كانوا ستمائة الف خلاف النساء والاطفال حين استيلاء عمرو بن العاص عليها وانه ضرب على كل رجل من اهل القطر دينارين الاّ اهل الاسكندرية فانهم دفعوا الفردة زيادة عن الخراج لانها اخذت عنوة فمن جميع ما تقدم يفهم ان الخمسين الف الف التي ضربت على اهالي القطر هي دراهم

ولا بد لنا الان من معرفة قيمة الدينار لانه تغير بتغير الازمان فانه كان مدة الحاكم بامر الله يساوي اربعة وثلاثين درهما وبعده بزمن صار يساوي واحدًا وثلاثين ثم ستة وثلاثين ثم ثمانية عشر درهما وكان الدينار المصري يساوي خمسة عشر درهما ونصفا ثم صار يساوي ثلاثة عشر درهما ونصفا وفي الصدر الاول كان الغالب في المعاملة الدينار ثم صارت الغلبة للدرهم ثم الميدي فلو فرض ان قيمة الدينار كانت خمسة عشر درهما لكان مبلغ الخمسين الف الف درهم عبارة عن ثلاثة الاف الف دينار وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين الف دينار فاذا اخذنا نصف ذلك كان عدد الرجال الذين كانوا يدفعون الجزية اي الف الف نفس وستمائة وستة وستون الف نفس وقد يمكن معرفة عدد الاطفال وغيرهم من جدول وضعوه لامة مركبة من عشرة الاف الف نفس مثلا ومن هذا الجدول يعلم ان بعد احدى عشرة سنة ونصف لا يبقى الاّ ثلاثة ارباع الاصل ونصف سدس قيراط

وبعد ست عشرة سنة يكون الباقي ستة عشر قيراطا وثلث سدس قيراط

وبعد عشرين سنة يكون الباقي اربعة عشر قيراطا ونصفا

وبعد خمس وعشرين سنة يكون الباقي اثنى عشر قيراطا وثلثا

وبعد ثلاثين سنة يكون الباقي عشرة قراريط ونصفا

وبعد سبع وثلاثين سنة يكون الباقي ثمانية قراريط ونصف سدس القيراط

وبعد ثلاث واربعين سنة ونصف يكون الباقي ستة قراريط

وبعد خمس واربعين يكون الباقي خمسة قراريط وثلثي قيراط

وبعد ثمان واربعين سنة يكون الباقي اربعة قراريط الاّ سدس سدس القيراط

وبعد ٥١ سنة يكون الباقي اربعة قراريط الا سدس سدس القيراط

وبعد خمس وخمسين سنة ونصف يكون الباقي ثلاثة قراريط

وبعد ثمان وخمسين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وثلثًا

وبعد ستين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وربع سدس قيراط

فاذا تقرر ذلك علمنا عدد من وصل من الاطفال الى سن احدى عشرة سنة من أمة عددها عشرة الاف الف بطرح الباقي بعد الاحدى عشرة وهو ثلاثة ارباع تقريبا من الاصل الذي هو عشرة الاف الف فيكون الباقي هو عدد من بلغوا في العمر احدى عشرة سنة وكذلك لو اردنا معرفة من بلغ عمره عشرين سنة الى خمس وعشرين نسقط المقدار المقابل للخمس والعشرين وهو الاثنى عشر قيراطا وثلث قيراط من المقابل الى العشرين وهو اربعة عشر

قيراطا ونصف قيراط فيكون التفاضل ويكون الباقي قيراطين
وسدس قيراط وهو تعداد من بلغ العمر المذكور ولا بد من
الملاحظة في قسمة العشرة الاف الف الى اربعة وعشرين قيراطا
ولاجل استعمال هذا الجدول في معرفة عدد اهل مصر زمن عمرو
بن العاص نقول حيث كانت الاطفال معافة من الجزية فيخرج
العدد المقابل لسن الاحدى عشرة سنة وهو خمسة قراريط وثلثا
قيراط ونصف سدس قيراط فيكون ذلك بالنسبة للعشرة الاف
الف الفي الف وثلاثمائة واثنين وسبعين الفا وثمانمائة واثنين
واربعين والباقي وهو سبعة الاف الف وستمائة وسبعة وعشرون
الفا ومائة وواحد وخمسون هو عدد الرجال والنساء معا فعلى
تقدير ان عدد النساء مثل عدد الرجال يكون نصف الباقي وهو
ثلاثة الاف الف وثمانمائة وثلاثة عشر الفا وخمسمائة وتسعة وتسعون
هو عدد الذكور ثم تنسب نسبة بان تقول نسبة عدد الرجال الى
العشرة الاف الف كنسبة العدد الذي وجدناه من حساب الجزية
وهو الف الف وستمائة وستون الفا الى العدد المطلوب ايجاده
وبالحساب تجد انه اربعة الاف الف وثلاثمائة وتسعة وستون الفا
فباضافة ثمن هذا القدر لزيادة النساء عن الرجال وباضافة جزء
قليل في مقابلة الفقراء والمساكين يعلم ان عدد الاهالي اربعة
الاف الف وستمائة وثلاثون الفًا تقريبًا

فقال الشيخ يظهر من ذلك ان تعداد الاهالي منذ دخل

الاسلام مصر نقص نقصا كثيرًا عن المدة القديمة خصوصا في المدة
الاخيرة من ايام المنتصر با لله فان في وقته تصرفت ايدي العدوان
وزادت اسباب الطغيان وانتهب الحكام ايراد الحكومة واهملت
السياسة بتولي غير المستحق عليها لاحتفال والدة الخليفة وقتئذٍ
بطائفة العبيد فاشتعلت نيران الفتن اشتعالا لا اضر باهالي القطر وطمت
الجداول والخلجان وعجزت الاهالي عن زراعة ارضها لانه كان اذا
علا النيل غرقت واذا لم يعلُ شرقت لعدم اجراء الطريق اللازم
للريّ وتصريف المياه فأدى ذلك الى صيرورة كثير من الارض
مناقع ماء وخرب كثير من الجهات البحرية واستمرت هذه الاحوال
بل زادت زيادة فاحشة في زمن الباشاوات الذين كانوا منتدبين
لسياسة الديار المصرية فان من اتى منهم كان لا يشتغل في السنة
التي يقيمها الا بجمع المال لنفسه صارفا اوقاته في التمتع واللذات
جاعلا زمام الحكومة بيد من يوافقه على اغراضه من البيكوات
وبهذا السبب كان الفشل مستديما وعصا الخلاف بينهم مشقوقة
وكثيرًا ما يكون السبب في ذلك الباشا نفسه الذي هو منوط
بادارة الامور فنشاء من هذا مضار اضعاف ما صار من قبل
وامتدت ايدي الجند والعرب للنهب والسلب في الجهات البحرية
والقبلية فلم ينج من شرهم الاّ من دخل في حمى قبيلة من العرب
فحصل من هذا نقص كثير وبدا بالقطر خلل كبير ومما يؤيد ذلك
قول العلامة المقريزي انه في زمن المنتصر بالله كان ايراد مصر من

جوالي وخراج الف الف دينار في مبدأ امره وبعد مدة من حكمه وصل الى ثمانمائة الف دينار ثم نقص فوصل الى خمسمائة الف دينار الى ان عجز عن تأدية مرتبات الجند فاين هذا ما ضربه عمرو بن العاص وعبد الله بن سعيد وما كان في زمن الخليفة المامون والخليفة المعتصم فانه بلغ في ايامهما اربعة الاف الف ومائتين وسبعة وخمسين الف دينار اذا بلغ النيل حد الوفاء وهو سبعة عشر ذراعا وعشرة قراريط وكان خراجها ايام الحاكم الفي الف دينار وثمانمائة الف دينار ولما تولى بدر الجمالي وكانت ولايته سنة ٤٨٢ بلغ ثلاثة الاف الف ومائة الف دينار وفي زمن ابنه الافضل بلغت خمسة الاف الف دينار ولم ينقص عن هذا القدر زمن صلاح الدين وكانت مرتبات جنده ثلاثة الاف الف وستمائة وسبعين الفا وخمسمائة دينار ومرتب المتقاعدين الف الف دينار وفي زمن الملك الناصر بلغ الخراج تسعة الاف الف دينار وخمسمائة واربعة وثمانين الف دينار ومائتين واربعة وستين دينارًا بالدينار الحبشي الذي قيمته ثلاثة عشر درهما منها ستة الاف الف ومائتان وثمانية وعشرون الفا واربعمائة وخمسة واربعون دينارًا تجبى من الجهات البحرية وثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة وخمسون الفا وثمانمائة من الجهات القبلية

فقال الانكليزي ياحضرة الشيخ ان تعداد اهالي مصر وقت دخول الافرنج ارضها كان الفي الف وستمائة وثمانية عشر الف

نفس وتسعمائة وخمسين نفساً وكان عدد اهالي كل مدينة هكذا

عـدد	
١٥٠٠٠	اهل رشيد
٢٠٠٠٠	اهل دمياط
١٧٠٠٠	اهل محلة الكبرى
١٥٠٠٠	اهل سكندرية
١٢٠٠٠	اهل اسيوط
٠٥٠٠٠	اهل قنا
٠٧٠٠٠	اهل جرجا
٠٥٠٠٠	اهل بني سويف
٠٤٠٠٠	اهل قليوب
٠٣٠٠٠	اهل بلبيس
٠٧٠٠٠	اهل المنصورة
١٥٥٠٠	اهل طنتدا ومنوف
١١٠٠٠	اهل المنيا وملوي

فعلى هذا تكون اهالي المدن مائة وسبعة واربعين الفًا وسبعمائة وخمسين نفسًا واما اهل القاهرة نفسها فكانوا مائتين وثلاثة وستين الفًا وسبعمائة نفس وكان اهل القرى والكفور والعزب والنزلات الفي الف وسبعة وسبعين الف نفس وخمسمائة فيكون اهل القطر

جميعهم الفي الف نفس وستمائة وثمانية عشر الف نفس وتسعمائة وخمسين وذلك اقل مما كان زمن دخول عمرو بن العاص بالف الف واحد عشر الفا وخمسين نفساً

وكان عدد قرى الوجه القبلي وكفوره وعزبه خمسمائة وخمسة عشر وعدد قرى الوجه البحري الف وسبعمائة وتسعة وسبعين فكون جميع البلاد بالوجه البحري والقبلي الفين ومائتين واربعة وسبعين على مقتضى ما وجد في دفاتر الخراج واما على مقتضى ما وجد على الخرطة فهو ثلاثة الاف وستمائة والفرق بينهما انما حصل من كونهم في بعض الجهات يعدون عدة كفور بلدة واحدة فيقيد في الدفاتر كذلك ويقرب من هذا العدد ما كان في زمن الملك الناصر لانه كان الفين ومائتين وتسعة وخمسين بلداً منها خمسمائة واثنتا عشرة بلدة في الوجه القبلي في ثمان مديريات وهي بلاد

٠٥٠ بلاد مديرية شرق اطفيح

٠٩٧ بلاد مديرية الفيوم

١٥٦ بلاد مديرية البهنسا

١٠٣ بلاد مديرية الاشمونين

بلاد مديرية منفلوط

٠٢٣ بلاد مديرية اسيوط

١٠٠٦

٠٢٦ بلاد مديرية اخميم

٠٤٨ بلاد مديرية قوص

والف وسبعمائة وسبع واربعون في الوجه البحري في ثلاث عشر مديرية

بلاد

٠٢٠ ضواحي القاهرة

٠٥٩ بلاد مديرية قليوب

٢٨٠ بلاد مديرية الشرقية

٢١٧ بلاد مديرية الدقاهلية

٠١٢ بلاد مديرية دمياط

٤٧١ بلاد مديرية الغربية

١٣٢ بلاد مديرية منوف

٠٤٦ بلاد مديرية ابيار وبني نصر

٢٢٢ بلاد مديرية البحيرة

٠٢٦ بلاد مديرية فوه

٠٠٦ بلاد مديرية نستروية

٠٠٨ بلاد مديرية سكندرية

٢٥٨ بلاد مديرية الجيزة

فمن ذلك يعلم ان اهالي القطر في القرن العاشر من الهجرة

كانوا قريبًا من الفي الف وخمساية الف وهو قريب من عدادهم مدة الافرنج وبناء على ذلك يمكن مقارنة الازمان القديمة بالازمان التي تلتها ومعرفة تقدم الامة المصرية كل زمن وتاخرها

والكلام على مصر كثير فلنقتصر منه الان على ما ذكرنا وكان قد دعا الانكليزي بعض احبته ينزه نفسه في جنينته

*

المسامرة الثامنة والثمانون

الفلاحة والزراعة

فقال للشيخ قد دعانا احد المحبين لان نتروح في روضة له خارج المدينة بمسافة يسيرة واني مستصوب قضاء بقية هذا اليوم عنده في تلك الروضة ولنغتنم بهذه الطريقة رؤية جنينة فرانسا وسرايتها وننعم نظرنا برؤية بعض ضواحي المدينة وطيب هواء هذا اليوم وصحو السماء ولطافة شمسه ونلحق هذا اليوم بامسه وصاحب المنزل من الذين اجتمعت عليهم بالامس وهو من اعضاء الجمعية المشرقية ورئيس مجلس الزراعة وَوُلّي من عهد قريب نظارة الجفللك المعد لتجربة اختبار النباتات الغريبة وطرق نجحها في ارض فرنسا وله ممارسة تامة في امر الفلاحة وتنوع طرقها في جهات مختلفة وله في فن الزراعة كتب مفيدة واختراعات جديدة واقوى باعث لي

على اجابته كون بيته في نفس الجفلك فنطلع هناك على تجرباته وطرقه التي يستعملها مع استنشاقنا الهواء النقي والنظر لضواحي هذه المدينة وقد ارسلت يعقوب ليجهز لنا ما يلزم من الاكل وامرته بان يحضر العربة بعد ذلك

فقال الشيخ هذا ما قام بفكري فكانك عالم بسري فما تم كلامهم الاَّ ويعقوب قد حضر فقال للخواجا ان هناك مسافراً يسئل عنك فقام الانكليزي متوجها اليه وغاب قريبًا من ساعة ثم رجع واخذ بيد الشيخ وتبعهما ولده فقال له الشيخ من هذا فقال هذا صاحبنا الذي اجتمعنا به في مرسيليا وقد حضر منذ يومين بالمدينة والان جاء الى منزلنا ليسلم علينا فاخبرته بما عزمنا عليه فطلب ان يكون معنا فقال الشيخ قد اصاب فانه من خير الاحباب وتم به انسنا ثم ساروا حتى دخلوا منزلهم وكان المسافر قد سبقهم اليه فقام لهم وسلموا عليه ثم حضر الاكل فاكلوا وشربوا وكانت العربات حاضرة فركب الشيخ وصاحبه والمسافر واحدة ويعقوب وولد الشيخ اخرى وساروا الى ان وصلوا سكة الحديد فنزلوا جميعًا في عربة واحدة واخذ الحديث بينهم يدور فيما للدنيا من الاحوال والامور الى ان وقف الوابور بعد ربع ساعة فنزلوا بالقرب من محطة وجدوا صاحبهم الذي دعاهم عندها ينتظرهم فسلم على الشيخ وولده وعلى صاحبيه ثم امر بتقديم العربات فركبوها وبعد بعض دقائق نزلوا قريبًا من قصر مشيد عالي البناء يحيط بثلاث جهات

منه بساتين فيها من جميع انواع الاشجار المتوجة باحاسن الازهار ووجدوا بباب القصر صاحبة المنزل وولدها ومعها بعض النساء اترابها فلما اقبل زوجها بالشيخ ومن معه قابلتهم بالتحية واجرت ما يلزم كعادتهم وبعد ذلك اخذ بيدها حضرة الخواجا الانكليزي ودخلوا الى ديوان بهج المنظر فيه احسن انواع الفرش فمكثوا به برهة ثم قال الانكليزي لصاحب البيت انما جئنا هنا لنرى سرايي فرسايي وما بارض حضرتكم ليطلع حضرة الشيخ على محاسن مبتدعاتكم في فن الزراعة

فقال ذلك قصدي ولكني ارى الباقي من النهار قليلا والذي اراه ان تقيموا عندنا الليلة ليتم لنا الانس بكم وفي غد نذهب جميعًا واطلعكم على ما اعلمه من امر هذه السراية منذ انشئت الى الان وما مر عليها من الاحوال

فقال الانكليزي الراي ما رأيت ولكن فيمَ نمضي بقية هذا اليوم فقال بالانس بحضرة الاستاذ والاطلاع على ارض التجربة وانواع آلات الفلاحة القديمة والجديدة

فقال الخواجا نرجوكم السماح في المبيت هذه المرة فان عندي بعض اعذار ولا بد لي من العود

فقالت صاحبة المنزل انّا ممنونون لك حيث احللت الانس بساحتنا وشرفتنا بحضرة الشيخ وحياتكم ان تفضلتم بالمبيت عندنا هذه الليلة تم انسنا وانبسطت بكم نفوسنا فشكر الشيخ فضلها ثم دعا لها

وقال الايام بيننا والعود احمد ثم اتفقوا على الحضور في يوم غير
هذا وقاموا لينظروا محل التجارب فلما وصلوا اليه وجدوه مكاناً
متسعا يبلغ نحو ثمانين فدانا مقسوما الى اقسام معتدلة بطرقات
كذلك حسب الانتظام طولا وعرضا كل قسم مربع محاط باشجار
في بعضها انواع الخضراوات وفي الاخر انواع من نبات الاقوات
كل نوع في حوض ويعرف نبات كل جهة من اوراق ملصوقة
في قطع من الخشب قائمة في زوايا الحيضان مكتوب فيها قدر
البذر وعمره وسعة الارض التي هو بها والبلد التي ورد منه ووقت
بذره ومدة مكثه وهكذا فكان هناك قمح مصر الاحمر والابيض
وقمح بلاد العرب وقمح المسكوب وبلاد اخرى كل صنف في حوضه
في غاية الانتظام والاحكام بحيث تراها متساوية خضرة نضرة اعوادها
متساوٍ ما بينها من البعد قوية غليظة الساق طويلة الاوراق فيها
شدة خضرة تدل على قوة ارضها وكان صاحب الارض يقف
عند كل حوض ويبين لهم حسن نباته وصفاته وفوائده والبلاد
المجلب منها وقدر غلته وقدر الزيادة عن البذر ويبين نسبة ذلك
المحصول لغيره من جنسه في البلاد التي يزرع فيها والاسباب التي
نجح بها وهكذا كل صنف الى ان وصلوا الى قصر صغير في باب
البستان فجلسوا هناك قليلا ليستريحوا ثم دخلوا البستان فرأوا فيه
اصناف الازهار وانواع الفواكه والاشجار وغير ذلك مما يبهر العقول
وجميعها مجلوبة من بلاد متنوعة وكانوا كلما وصلوا شجرة غريبة بين

لهم ما يتعلق بها الى ان تمت نزهتهم ثم سار بهم الى المكان الذي به
آلات الزراعة مثل المحاريث ذوات العجل وآلات البذر والحصد
والدرس فكانت انواعا منها القديم المتروك باختراع احسن منه
ومنها المستعمل من مدة وعلمت نتيجته ومنها ما هو جار تجربته
وجميعها مخالف لما يعلمه الشيخ في مصر ثم عادوا الى القصر وجلسوا
فيه ينظرون من شبابيكه الى البستان وما حوله فرأوا الغابات
على احسن شكل وصورة الارض في غاية البهجة وانواع المزارع تسر
الخاطر وتروق الناظر فعجب الشيخ كل العجب واستحسن نظام ما
رأى واثنى على الخواجا كل الثناء ومدحه كل المدح على اهتمامه
بهذا الشان وصرف افكاره في تطبيق قواعد علم الفلاحة النظرية
على العمل واجرائها بالفعل وقال له ان ثواب اعمال الانسان
على قدر ما ينتج للخلق من الفائدة خصوصاً فن الفلاحة فانه اكثر
الفنون فائدة واعمها للناس نفعا فمن يحسن طرقه ويعم نفعه ويكثر
فائدته يكون ثوابه اكثر فاي امة تبعت ضوء مصباحه وسلكت
سبيل نجاحه عظم ثوابها واشتهر بين الناس فضلها واما الامم التي
لا ارض لها تزرعها كعرب البادية وكذا التي لم تشتغل به لجهلها
بامره فمثلها كمثل الحيوانات العجم سواء بسواء وهذا الفن اقدم
الفنون جميعًا وبه اشتغلت الامم قبل الطوفان وعنهم اخذ من
بعدهم يؤيد ذلك ما في الكتب المقدسة ان نبي الله نوحا عليه
السلام زرع بعد خروجه من السفينة ومنه تعلمت ذريته حتى

انتشر في كثير من بقاع الارض بعد تبلبل الالسن وتفرق اولاده وكذلك كان معروفا عند قدماء المصريين وغيرهم كاهل الهند والصين وبابل وما يدل على فضله معرفة الانبياء له كنبي الله اسحاق عليه السلام في ارض فلسطين ونبي الله ابرهيم وكيعقوب واولاده عليهم السلام لانه ارسلهم الى مصر لشراء غلال في زمن اجدبت فيه ارضهم فحسبك فضلا بفن اشتغلت به الانبياء ولعمري ان فضله لا يعادل ونفعه لا يماثل وهو اصل التقدم وكل الصنائع فرع له

فقال له صاحب البستان هذا من حسن اخلاقكم ولطف طباعكم ثم قال له الشيخ وهل يحتاج في معرفة فن الفلاحة الى كثير من الاعمال ويلزمه كثير من الممارسة

فقال ليس فن من الفنون يحتاج الى ما يحتاج اليه والمتفكر فيه الممارس له لا يعرف كيف وصل الاقدمون الى معرفته وطرقه المتشعبة المتنوعة سيما نبات الاقوات واستنباته والذي يزيد المرء حيرة اهتداؤهم الى حبة القمح من بين سائر انواع الحبوب التي تزرع وكان بعض الناس يزعم ان جميع الحبوب المغذية كانت تشتمل على خواص وصفات وتكرار زرعها هو الذي صيرها اقواتا وهذا القول لا عبرة به فان تقليب الصنف بالزرع وان غير بعض صفاته لا يغير حقيقته بالكلية فالصحيح ان جميع الحبوب على اختلاف اجناسها من ابتداء الامر بالهيئة التي نراها عليها الان وقد شوهد في

جهات كثيرة جميع انواع الحبوب يخرج من الارض بطبعه من غير استنبات وعدم مشاهدتها في بعض الجهات ربما كان من عدم الدقة في البحث او غير ذلك وعلى كل حال ففن الزراعة انما وصل الى اليونان من المصريين ثم منهم الى الرومانيين ومن ذلك يعلم ان فن الفلاحة لم يدخل اوروبا الاّ بعد وجوده بافريقا واسيا بزمن طويل ولذلك كانت سكان اوروبا في تلك الحقب تسكن الآجام والفلوات وتسيح كالحيوانات في الغابات للحصول على الاقوات فبالضرورة كانت متوحشة خشنة مع ان كثيرًا من جهات افريقا واسيا في تلك الحقب كان محفوفًا بالنعم مشهورً بالتقدم

واما ما يوجد في عصرنا هذا من المعرفة بالزراعة فجزءٌ من فنها والذي يدل على ذلك انه لما تفرق الناس وتبلبلت الالسن بعد الطوفان وانتشروا في بقاع الارض فمنهم من وجد نفسه بارض سهلة الزرع كثيرة الخصوبة فاستعملوا فيها ما تعلموه من اصولهم ومنهم من وجد نفسه بارض ليست كذلك فلم يجدوا سبيلا الى استعمال ما يعلمونه من فن الفلاحة فمن صادف الارض السهلة زرع وتعيش ومن لم يصادفها هرع الى الاجام وتوحش وربما صادف بعضهم جهات فيها جميع انواع الحيوانات فاخترع طرقا لتكثيرها ليقتات بها وعلى مقتضى كثرة ما يلزم لفن الفلاحة يوخذ ان من استعملها بقي مدة يستعملها بحالة بسيطة فلم يكن عندهم محاريث ولا كانوا

يستعملون الحيوان في الحرث بل غاية الامر انهم كانوا يستعملون قوى انفسهم كما شوهد ذلك في كثير من بقاع الارض فانه لما استكشفت امريكا كان اهلها يستعملون قواهم فكانوا يمسكون بايديهم الة ينكثون بها الارض ويقطون بها البذر تسمى في بلاد مصر بالمعزقة وللان جهات كثيرة لا تعرف غير الطرق القديمة فسكان جزيرة فرانسا الجديدة يحرثون ارضهم بآلة جميعها من الخشب وجهات اخرى ليس عندهم غير المعزقة وجهات لا يستعملون في شق الارض غير نوع الفوس وفي جهات من افريقا على شواطي نهر جابني قوم اذا ارادوا حرث الارض اجتمعوا اربعة اربعة او خمسة خمسة وشقوها بسيوفهم وكان سكان الكانادا في الزمن السابق يشقون الارض بقرون الحيوانات وفي المدة التي كانت اكثر الامم غارقة في بحار الجهل كانت مصر منعمة البال ممتعة بالخيرات فان الفلاحة كانت عندهم على ما نراه الان لم تتغير فكان عندهم المحرات واللواطة وباقي الالات ومما يؤيد ذلك احترامهم للثور المسمى ابيس وما ذاك الا لما راوا فيه من المزية

فقال الشيخ وهل يعرف اول من اخترع آلات الفلاحة

فقال نعم ورد عن المؤرخين ان اول مخترع للمحراث احد فراعنة مصر المسمى اوزريس وهو الذي علم سكان ما وراء النهر استعمال الثور في الفلاحة ولا ينكر استعمال الحراثة بمصر زمن

يوسف عليه السلام ولا استعمال الثور بارض العرب زمن ايوب عليه السلام

وكان المحراث في الاصل مركبا من قطعتي خشب احداهما قصيرة منبطحة على الارض تسمى البسخة وفي طرفها حديدة عريضة تسمى السلاح وهي التي تشق الارض والثانية طويلة ممتدة الى امام تسمى القوس وعند زاويتهما الحادة حديدة عريضة لتثبيتهما ببعضهما تسمى البلنجة وعند موخر الخشبتين ثالثة طولها نحو ستة اشبار تسمى الرمح وهي التي تكون بيد الحراث يزن بها المحراث حيث شاء وبقي له اجزاء اخرى غيرما ذكر كنت اسمع بها من اربابها وهذا هو الذي كان يحرث به اليونان والرومانيون واما بعض جهات امريكا فكانت آلات حرثهم عبارة عن قطعة خشب معوجة ثم عملوها فيما بعد من قطعتين ويؤخذ من قول ديودور ان اليونان كانت تحرث على الحمير وان موسى عليه السلام نهى عن ذلك

فقال الشيخ في بعض جهات الوجه البحري كالشرقية يستعملون الى الان آلة تسمى المعزقة فيجتمع اربعة رجال او اكثر وبيد كل واحد منهم معزقة وينكثون الارض بعد بذرها فيتغطى البذر والتلويط الى الان مستعمل في الوجه القبلي وهو عبارة عن امرار قطعة خشب من نخل او غيره على وجه الارض اذا كانت كثيرة الوحل بعد بذرها ولست اعرف طريقا ابسط من ذلك واظن ان

جميع الاراضي التي تزرع بهذه الكيفية هي اول الارض عمارًا واستنباتا لان هذه الكيفية اول ما يخطر بالبال وليس فيها كلفة

فقال الخواجا جميع الطرق المستعملة بمصر الى الان قديمة جدًا ومرسومة في البرابي وهي عشر طرق ذكر منها قدماء المؤرخين طريقة وهي ان بعض الجهات بعد القاء الحب في الارض يأتون بالخنازير ويدورون بها حتى يتوارى الحب ولم تكن عقولهم قبل الطوفان قاصرة على معرفة الحرث والقاء البذر بل كانوا يعرفون ايضًا كل ما يزيد لها في صلاح الارض كتشميدها بالرماد وارواث الحيوانات وكتعميمها بالمياه الكدرة كما هو جارٍ بمصر الى الان وذكر المؤرخون ما لقدماء المصريين من الاعمال الجسيمة مثل بحيرة مورس التي بارض الفيوم والجسور العظيمة التي انشاها فراعنة مصر لحفظ الارض من الغرق وقت فيضان النيل وكالجداول التي بواسطتها تتفرق المياه على جميع الارض وهذا اقوى دليل على ان الفلاحة وتثميد الارض كان امرًا معلوما عندهم ويلزم من ذلك معرفتهم كيفية الحصاد وان كان لا يدرى الزمن الذي اخترع فيه الآلتان المعوجتان المعروفتان عند المصريين بالمنجل والشرشرة ولعلهم كانوا قبل اختراعها يقلعون النبات بايديهم لوجود ذلك الى الان في جهات كثيرة واما الدرس الذي يستعمل الان لفصل الحب من عوده فلا بد انه تاخر زمنا طويلا لان معرفته تحتاج الى زيادة تقدم لما فيه من الصعوبة والذي كان مستعملا عند المصريين

وغيرهم في هذا الامر هو جعل الزرع بعد حصاده حزما ينقلونها لارض متسعة منتظمة اعدت لذلك ويديرون البهائم فوقها حتى ينفصل الحب عن غيره وبعض الناس كان ياخذ قطعًا من الخشب ويسمر فيها احجارًا ويدوّرونها فوق تلك الحزم فينفصل الحب من غيره واهل فلسطين كانوا يستعملون عجلات ثقيلة فيدورونها بالبهائم وهذه الكيفيات باقية الى الان في جهات كثيرة من ارض فرانسا وغيرها واما الصينيون فكانوا يستعملون مهرسة من رخام وكيفية التذرية لتمييز الحب عن التبن بواسطة الهواء باقية عند اغلب جهات الشرق وارض مصر واغلب البلاد الحارة وآلة التذرية المسماة بالمذرى قديمة جدًا لا يعلم وقت اختراعها ولا شك ان اختراعها من يوم اختراع الفلاحة فهو واصل الينا من تقدم على الطوفان وبالجملة فجميع انواع الفلاحة وكذلك آلاتها واتقانها انما حصل تدريجًا على حسب دقة الصنعة وكثرة لوازمها ومن ذالك جعل الحب خبزًا والاقتيات به فانه يتوقف على اعمال كثيرة كالغربلة والطحن والنخل والعجن ثم تقطيع العجين وتسويته الى ان يصلح للاكل فان لكل عمل من هذه الاعمال آلات وكل آلة متوقفة على غيرها وغيرها متوقف على غيره وهكذا فلا بد انه مضى على النوع البشري زمن وهو جاهل بجميعها ثم اضطرته الضرورة الى اختراعها شيئًا فشيئًا الى ان عرفها جميعها الّا اننا لا ندري كيف اهتدى الاقدمون لمعرفة ما في القمح من المادة الغذائية

وان كان ذلك لا يمنع من عزو هذه الفنون الى من كان قبل الطوفان فانهم حين رست بهم السفينة وانتشروا على وجه الارض منهم من وقع في ارض مجلة لا تنبت شيئًا فاكتفى بما يجده في وهادها من الكلاء وما يقدر على صيده من نجودها وما يقذفه البحر من السمك ونحوه ومنهم من صادف ارضا صالحة فزرعها وتقوت بما يخرج من نباتها من غير طحن ولا خبز فان ذلك مما اهتدوا اليه على ما حكاه بعض الفلاسفة مما راوه من فعل الانسان بالحب حتى يصير كالدقيق ثم تلويك اللسان له حتى يمتزج بالريق ثم ازدراده وبلعه فلما رأوا ذلك اتوا بحجرين كالرحى ووضعوا الحب بينهما وادارو احدهما عليه ثم اخذوه ومزجوه بالماء ثم وضعوه في النار ليجف ويصلح للغذاء الى ان اهتدوا الى ما يلزم له من الآلات كالمنخل والغربال والتنور كما ذكرنا

فقال الشيخ ومما يؤيد ذلك ما يفعله عرب البادية خصوصًا في اسفارهم فانهم لا يتزودون بغير الدقيق فاذا ارادوا الاكل عمدوا الى جانب منه فلتوه بالماء ثم اضرموا نارًا وصبروا عليها حتى يهدأ لهبها فاذا هدأ وضعوا عليها العجين حتى يجف بعض جفاف فياخذونه ويبسونه ثانيا بما تيسر لهم من اللبن او العسل هذا دابهم في اسفارهم ومنهم من يقلي الحب ويستفه ومن المصريين من يلدده بالنار قبل صلاحه ويدخره للطبخ ويسمى عندهم بالفريك

فقال الانكليزي وكذلك قبائل كثيرة من السودان
لا يعرفون غير ذلك وكانت هذه الطريقة كثيرة الاستعمال في
بلاد الهند بناء على قول هيرودوط ولكن هذه الطرق اخذت في
الاندثار لتقدم الناس كل زمن فعلموا ان الغرض من الزراعة
السنوية والانتفاع بها مدة السنة وان هذه الطريقة لا ينتفع بالبر
بواسطتها الاَّ مدة قليلة كشهر مثلا فلا بد انهم بحثوا عن الطرق
التي تعم النفع ولكن يلزم انهم لم يصلوا اليها الاّ على التدريج وحيث
كان في اكل الحب بغلافه عسر والنفس تأنف منه فلا بد ان
اول شي اشتغلوا به انفصال القشر عن لبه وان اول شي استعملوه
لذلك التحميص لان جميع القبائل المتوحشين من افريقا وامريكا
تستعمله الان واجمع المؤرخون على ان اول صنف اقتات به
الاقدمون الشعير وحيث كان قشره لا ينفصل عنه الاَّ بالطحن
وكانوا وقتئذٍ لم يعرفوه استعملوا التحميص لذلك والسياحون الى
الان في بلاد الحبش لا يتزودون بغير الشعير المحمص وكانت
الناس قبل اهتدائهم الى اختراع الرحى والطواحين تهرسه في
اهوان فكان التحميص يسهل عليهم ذلك واما كيفية نقعه في الماء
وتصفيته فقديمة وقد كان اليونانيون والرومانيون يستعملون ذلك
ويتغذون به كما يفعل اهل الشرق بالارز وللان كثير من
الناس تستعمل ذلك مثل قبائل الكلموكيين فانهم لا يتقوتون
بغير الشعير فيضعونه في الماء اولا الى ان يلين ثم يعصرونه ليتميز

عنه قشره ثم يضعونه في قدور ويوقدون النار تحته الى ان يغلي ثم يتناولونه بايديهم وليس لهم قوت بغير هذه الكيفية

ومن اليونان والرومانيين من كان يهرس الحب في اهوان من خشب او من حجر لاخراج الدقيق وفصل اللب من قشره وقد بقيت هذه الطريقة الى الان عند خلق كثيرين وقال هيرودوط ان سكان جزائر الانكليز كانوا لا يستعملون غير هذه الطريقة فكانوا يفركون السنابل بايديهم لينفصل الحب ثم يهرسونه في اهوان ثم يعجنونه وياكلونه نيئًا واما اهل بيرو من امريكا فكانوا يجففونه اولا على النار ثم يدقونه ويتناولونه بقطعة خشب كالملعقة لا يفصلونه من قشره وعلى ذلك كثير من المتوحشين الى الان واما عند تمدن الخلق فكانوا قبل اختراع صنعة المنخل المعروف يعمدون الى بعض اغصان دقيقة فينسجونها وينخلون بها ومنهم من كان ينخل بخرق من القماش المخلل النسج وما يشبهه قال بولين ان منخل اليونان والرومانيين كان من السمار ومنخل اهل الاندلس من الغزل ومنخل الجول من شعر الخيل وكانوا جميعا يعجنونه ثم يلعقونه نيئًا كما يفعل بعض سكان جزائر الانكليز ولم يهتدوا الى كيفية انضاجه بالنار الّا بعد زمن طويل ومنهم من كان في ذلك الوقت يمزج الدقيق بالماء كالعصيدة ويضعه على النار حتى يغلي ثم ياكله ومنهم من كان يضع فيه لحما ثم يسويه وذلك كان قوت قدماء الفرس والرومانيين واليونان واهل العراق كما قاله بولين ومنهم

من كان يقطع اللحم قطعًا ثم يلقيه في الدقيق ويسويه على النار فيعلم من ذلك قلة انتفاعهم وقتئذٍ بالبرلان تمام فائدته لا تكون الاّ بعد عجنه وخبزه وذلك يحتاج الى فكرة كبيرة واعمال كثيرة لم يهتدوا اليها الاّ بعد زمنٍ طويل وان كانت تلك الصنعة بالنسبة الى زمننا قديمة لما ورد في التوراة من ان ابرهيم عليه السلام قدم لضيفه خبزًا مرققًا

فقال الشيخ هكذا خبز اهل البادية الى الان ولهم في تسويته آلة من فخار يسمونها النيغة يخبزون فيها اذا حلوا ويحملونها اذا ارتحلوا فاذا ارادوا الاكل عجنوا الدقيق ثم قطعوه قطعا صغيرة ورققوه بايديهم على الواح من خشب ثم اوقدوا النار تحت النيغة حتى تحمر من داخلها فاذا انقطع الدخان اخذوا ما رققوه شيئا فشيئًا ووضعوه على النيغة حتى ينضج

فقال الانكليزي هذه الكيفية لا باس بها وربما دلت على تقدم او تمدن اربابها واما القدماء فمنهم من كان يضع العجين على احجار محماة ثم يغطيه بالرماد الحار ولعل ما قدمه ابرهيم الخليل لاضيافه من هذا القبيل وعلى ذلك بعض اهالي اسيا الى الان الاّ انهم يلفون العجين ببعض حشيش وقاية من الرماد وربما وضعوا فوقه جمرات كبيرة ومنهم من يضعه بين حجرين ثم يدفنهما في الرماد الحار ومن التتار من يعجنه كالعصيدة ويضعه في اناء ويوقد تحته نارًا حتى يفور ثم يتناوله الى غير ذلك مما لا حصر له وذلك

كله لا ينافي قدم التنور المسمى بالفرن وتقدمه على زمن ابرهيم عليه السلام وذكر بعض المؤرخين ان اول من اخترعه رجل مصري يقال له عنوس واما ما حكاه حضرة الشيخ عن العرب فليس خاصا بهم بل ذلك طريقة قبائل كثيرة من التركمان وغيرهم الا اننا لا ندري متى كان اختراع الخميرة واستعمالها والظاهر انها من الامور الاتفاقية كأن يكون عند بعض الناس قطعة عجين حامضة فاضافها الى عجين جديد ثم سواه فوجده ألذ من الاول طعمًا واسرع هضما فاعتاده واخذه عنه من بعده وان كان كثير من اهل اسيا وافريقا وامريكا لا يستعملونها الى الان وقيل انها كانت موجودة على عهد موسى عليه السلام وروي انه نهى قومه عن اكلها حين خروجهم من مصر واول آلة استعملها الانسان في طحن الحب الحجارة ثم الرحى ثم الطاحون وبين اختراع كل آلة والتي تليها زمن طويل ونحن وان كنا لا نجزم بوجود الرحى زمن ابرهيم الخليل عليه السلام لكن نجزم بوجودها من ايوب عليه السلام وباستعمالها هي والطواحين عند المصريين كما يظهر ذلك من التوراة فانه ذكر فيها منع بني اسرائيل من ان تاخذ حجر الرحى الا برهن وكان الذي يديرها الخدم والعبيد وكانت مستعملة عند اليونانيين والرومانيين وجميع الامم الماضية

قال ناقل الحديث وكانت العربات قد اعدت للجماعة على الباب فركبوها وسارت بهم نحو فرساي وهم يتحدثون بامر الزراعة

والفلاحة وما ينشأ عنها من تقدم البلاد واهلها الى ان جزم الشيخ بان مدار العمارة على الزراعة فوافقه الجميع على ذلك وقال الانكليزي ان هذا لهو القول الحق فانه لا تحل الثروة بجهة الا اذا تقدمت فيها الزراعة ففي ارض فرنسا مثلا تقدمت الزراعة تقدمًا جيدا حين بحثت الحكومة عن هذا الخصوص وذلك التقدم من ابتداء سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٨٤٦ فكان محصول زراعة القطر سنة ١٧٩٠ مليارين ونصفا وفي سنة ١٨٤٦ وصلت قيمته ضعف ذلك وفي العشرين سنة التالية لسنة الف وسبعمائة وتسعين كان الربح غير محسوس لكن من ابتداء سنة ١٨١٠ شعر ان الربح ثلاثون مليونا في السنة الواحدة ومن خمسة عشر الى ست واربعين صار يزداد حتى بلغت الدرجة المتوسطة ستين مليونا كل عام

وبسبب هذا الفرق زادت اهالي القطر فان عددهم من سنة ١٧٩١ الى سنة ١٨١٥ كان يزيد في كل سنة عن التي قبلها مائة وعشرين الف نفس ومن سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٦ مائتي الف نفس واما من سنة ست واربعين الى خمس وخمسين حصل تاخير فلم تبلغ زيادة كل سنة غير ستين الف نفس

واما بالنسبة للمحصولات فقد وجد ان صنف الغلال ضوعف من سنة ١٨١٥ الى خمس واربعين فكان في سنة ١٨١٥ اربعين مليون اكتوليتر وفي سنة ٤٥ ثمانين مليونا ومحصول البطاطس ضوعف ايضًا حتى وصل الى خمس عشرة مرة زيادة عما كان في

سنة خمس عشرة وكذلك نوع الحيوان فقد بلغ عدد الحيوان الكبير تسعة ملايين الى عشرة وعدد الخيل من مليونين الى ثلاثة وعدد الضان ما بين اربعة وعشرين مليونا وست وثلاثين مرة من الملايين

وفي سنة ١٨١٢ كانت قيمة الاراضي المملوكة ومنها العقارات الفا وخمسمائة مليون وفي سنة خمس عشرة بلغت الفين وثمانمائة وثلاثة واربعين مليونا ومع هذا فقد زادت قيمة الارض في قريب من ثلاثين عامًا قدر خمسين في المائة هذا وان كان حسن الارض وارتفاع قيمتها لا بد له من نفقات الاَّ اننا يمكننا تقديرها ولو على وجه التقريب فنقول على فرض ان فائض المائة عشرة في كل سنة تكون الستون مليونا التي هي فائض ستمائة مليون مصروفة علي الارض فلو وزعت علي الارض المنزرعة بالقطر لوجد انه صرف على كل اكتار من المساحة اثنى عشر فرنكا عشرة منها في اصلاح الارض واثنان في اصلاح حال الزراعة

وبعد ان كانت قيمة الاكتار سنة ١٧٩٠ لا تزيد عن خمسمائة فرنك صارت الان تساوي الف فرنك فمقدار قيمة ارض الزراعة بالقطر خمسون مليارًا وكانت قيمة موجود الزراعة لا تزيد عن الف مليون فصارت الان خمسة امثال ذلك نصفها قيمة حيوانات والات زراعة والنصف الاخر قيمة بذر وما يتبعه من سباخ وغيره ومن هنا يعلم ان ربح الزراعة من ابتداء سنة ١٧٩٠ وصل الى اربعة

امثال ما يصرف عليها واجرة العمال وان زادت الاَّ انها لم تبلغ
ما يخصها وحينئذٍ يلزم من يسوس الامم ان يجعلوا عدد الاهالي
قاعدة لجميع ما يدبرونه وان يجتهدوا في ما به زيادة عددهم ليتحصلوا
على زيادة البركة والطريق في ذلك سهل لانا نعلم ان الله سبحانه
لما خلق الخلق اودع فيهم اسرارًا ينمون بها ويملئون الارض وجعل
تلك الاسرار متعلقة بالاقوات كما هو مشاهد فانك لو قطعت عن
اي شي مادته التي يتغذى بها لاخذ في الجفاف ثم مات فيلزم
الاعتناء بالامر الذي منه القوت وهو الفلاحة لاجل نمو الاهالي
ولذلك ترى بعض الناس اذا راوا امة قد اضمحل حالها ونقص
عددها قالوا ان ذلك ناشئ من كثرة الرهبانية فيهم ومحاربة
الجيوش البرية والبحرية لهم فتراهم في تلك الاوقات يكثرون من
البحث على الزواج وربما ساعدوا من عجز عن مؤنه وعاقبوا من
اصر على العزوبية ومع ذلك لا يحصلون من مقصدهم على كبير
فائدة لان ما ظنوه سببًا ليس بسبب فيكون مثلهم كمثل من يعالج
بدواء من غير وقوف على اصل الداء فانهم لو امعنوا النظر وقارنوا
امور الامة الحاضرة بالماضية لظهر لهم ان اسباب الفساد ليس الاَّ
اهمال فن الفلاحة وميل الكثير الى الزهو والتعلق به وكثرة ما
يستهلك ويصرف على القليل من الناس واثبات ذلك بان نقول
لو سلمنا ان ازدياد اي نوع بخصوصه ليس الاَّ لوجدنا فوق الارض
ذئابا اكثر من الغنم لان الانثى من الذئاب تلد عددًا كثيرًا في

بطن واحد ويتكرر ذلك منها في السنة الواحدة والغنم ليست كذلك سيما والعادة جارية بخصاء كثير من ذكورها وذبحها وليس ذلك جاريًا في الذئاب فلو كانت خصوبة النوع في ذاتها سببًا في كثرته لكان عدد الذئاب لا حد له وربما ملا الارض مع ان الامر ليس كذلك فانا نرى الغنم تزداد مع استمرار الاخذ منها وما ذلك الاّ لكثرة مرعاها وقلته للذئاب

ومن ذلك بعض متوحشي امريكة وافريقة فان حالتهم كحالة الذئاب لان تعيشهم ليس الا من الصيد والقنص فترى العدد القليل منهم شاغلا لسعة عظيمة من الارض بحيث لو زرعت وخدمت حق الخدمة لكفت اضعافهم ومع هذا لا تنقطع الخصومات بينهم وليس عندهم رهبانية ولا عفة وما ذلك الاّ لقلة القوت عندهم وقد ثبت في كتب التاريخ ان الفدان الواحد عند الرومانيين يكفي العائلة الكبيرة مع ان المتوحشين لا يكفي لقوته اقل من خمسين فدانا حيث كان جل همه الصيد والقنص فمن هذا تكون الالف فدان مزروعة كافية لالف شخص وغير مزروعة لا تكفي خمسين من المتوحشين فظهر بذلك ان كثرة الاهالي تابع لاتساع دائرة الزراعة فكلما حصل الاجتهاد في خدمة الارض واصلاحها ازداد المحصول وكثر الجنس وكلما اهملت وتركت قلت الاقوات ونقص العدد وان كل ما يستهلك في امر الزهو مضاد لمنفعة الامة

فيلزم مدبر امر الامة ان يصرف جميع همته في توجيه افكارها نحو البساطة والقناعة

وفي سنة ١٨٤٠ بلغت قيمة محصول الزراعة في ارض دولتنا خمسة الاف مليون فرنك منها الف وستمائة مليون قيمة محصول اللحم والصوف واللبن والفراخ والباقي وهو ثلاثة الاف واربعمائة مليون قيمة محصول الحبوب والحشائش وغيرها وكانت موزعة بالنسبة لعمارة الارض المضروب عليها الخراج فخص كل آكتار في الجملة مائة فرنك وايضاً بالنسبة لتفاوت الاهالي قلة وكثرة في الجهات فكان ربع الارض يتحصل منه مائة وخمسون فرنكا ونصفها مائة فرنك وربعها خمسون فرنكا فقط وسبب هذا الفرق ان الربع الاول كان في كل مائة آكتار منه مائة نفس واما النصف فكان لا يوجد في المائة آكتار الاّ خمسة وستون نفساً وكذلك الربع الاخير كان لا يوجد في الآكتار منه الا اربعون نفساً وجهات العمار في الغالب تكون بالقرب من التخت والمدن وشواطئ البحر والجهات القليلة العمار الجنوب والوسط ونهاية العمار جهات الشمال ويوجد في المائة اكتار منه مائتا نفس ونهاية القلة في العمار جهة جبال الالب فلا يوجد في المائة آكتار هناك اكثر من عشرين نفساً ولو جعلنا الدول مرتبة على حسب تعداد الاهالي نجد ان بلاد الفلمنك يخص كل مائة اكتار منها مائة وخمسة وعشرين شخصاً وبلاد الانكليز تسعين والمانيا وايطاليا ثمانين وفرانسا ثمانية وستين

واسبانيا وبرتغال اربعين والدولة العلية خمسة عشر وكذا المسكوف

ثم قال الانكليزي ان بلادنا وان كانت بعد الفلمنك في الدرجة المذكورة الاّ انها مشهود لها بزيادة الاعتناء بامر الزراعة والفلاحة ولذلك كان محصول ارضنا اكثر من محصول ارض فرانسا وليس ذلك من جودة ارضنا وانما هو من جودة الطرق التي نستعملها والتفات الحكومة لما يحصل منه زيادة المنفعة والربح للاهالي وان حصل في هذه الايام تقدم كبير للزراعة في فرانسا عن السابق لكن بين المحصول عندنا وعندهم بونا بعيدا وها انا اوضح لحضرتكم طريقة كل من الدولتين واقارن بين الطريقتين ليظهر الفرق وقبل كل شي اقول من المعلوم ان اهم الامور القوت فان به قوام البنية الادمية وهو انواع فمنها ما هو جيد للغذاء مفيد لقوة الانسان ومصلح لبنيته ومنها ما هو غير ذلك وحيث كانت الانواع المتخذة من دقيق الحبوب ليست كافية لقوام البنية وصحتها فيلزم ضم اللحوم اليها لانها احسن شي في هذا المعنى وحينئذٍ يلزم ان كل بلدة يكون بها زيادة عن الحبوب قدر ما يلزم للغذاء من اللحم وهو عبارة عن مائة درهم لكل شخص كما استدل على ذلك الباحثون من ارباب الدراية فاذا تقرر ذلك نقول قد نتج من الاحصاآت الرسمية التي اجريت في بلادنا ان كل انسان من الانكليز يخصه كل يوم خمسة وسبعون درهما مما يذبح واما الشخص الواحد من فرانسا فلا يخصه

غير تسعة عشر درهما فتكون النسبة بين تقدم الفلاحة عند الانكليز والفرنسيس كالنسبة بين خمسة وسبعين وتسعة عشر

وهذا يدل على ان اعتناء الانكليز باقتناء الحيوانات ازيد من اعتناء الفرنسيس وان علمهم بالقاعدة الاساسية لتقدم الزراعه اكثر لانه اذا ازداد الحيوان امكن الحصول على احسن الغذاء واخصبت الارض بواسطة السماد الموجب لازدياد المحصول والمرعى ومن زيادتهما تزداد الثروة فاذا نظرنا لصنف الاغنام مثلا عند الامتين وجدنا عند كل واحدة منهما خمسة وثلاثين مليونا مع ان ارض بلاد الانكليز ليست مساحتها الا ٣١ مليونا من الاكتار بخلاف ارض فرنسا فانها ثلاثة وخمسون مليونا فيخص كل اكتار من ارض الانكليز رأسان ومن ارض فرانسا راس واحد والمتحصل من الصوف عند الانكليز ستون مليون كيلو جرام وعند الفرنسيس كذلك ومن صنف اللحم كل عام عند الانكليز ثلاثمائة وستون مليون كيلوجرام وعند الفرنسيس مائة واربعة واربعون مليونا وبهذا يعلم ان نسبة اللحم المتحصل عند الانكليز الى اللحم المتحصل عند الفرنسيس كالنسبة بين عددي ثلاثمائة وستين ومائة واربعة واربعين وهذه المقادير هي مقادير التوسط لجميع جزائر الانكليز اي ايرلندة وايكوسا وبريطانيا فلو نظرنا الى بريطانيا وحدها لوجدنا في كل اكتار راسين من الغنم مع انه لا يوجد في الاكتار

من فرانسا غير ثلثي رأس هذا ومحصول الرأس الواحد في بلاد الانكليز ضعف محصوله في فرانسا فيعلم من هذا ان ربح الفلاح الانكليزي ضعف ربح الفلاح الفرنساوي في هذا النوع

وعلى ذلك تقاس ارباح البقر في كل من الجهتين وقد احصي ثمن الجبن المبيع بمديرية شيستين خاصة في السنة الواحدة فبلغ خمسة وعشرين مليونا من الافرنكات ولبن بقر جميع فرنسا لم يبلغ الا الف مليون ليتر وثمن الليتر عشرة فرنكات واما المتحصل من بقر الانكليز فضعف ذلك قدرًا وثمنا فعلى هذا يكون ربح الفلاح الواحد من الانكليز اربعة امثال ربح الزراع من الفرنسيس واغرب من هذا تفاوتهم في عدد البقر بالنسبة لارضهم فان بقر الانكليز ثمانية ملايين في واحد وثلاثين مليونا من الاكتارات وبقر الفرنسيس عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليونا منها فلو نسبنا بقر كل قوم الى ارضهم لكان بقر الانكليز بالنسبة لارضهم اكثر من بقر الفرنسيس بالنسبة لارضهم وان كانت ذبائح الفرنسيس اكثر عددًا لانهم يذبحون من البقر في كل سنة اربعة ملايين فيها من اللحم اربعمائة مليون كيلوجرام واما الانكليز فلا يذبحون من البقر الا مليونين الا ان فيها من اللحم خمسمائة مليون كيلوجرام فاذا تاملنا ذلك علمنا ان ما يذبحه الفرنسيس وان كان في العدد ضعف ما يذبحه الانكليز الا انه ينقص في اللحم نحو الربع وسبب ذلك ان الانكليز لا تذبح الصغير ولا المهزول وذلك لامرين الاول كونه غير مستوف لشروط

الغذا والثاني ان ذبحه حينئذٍ يكون كضياع راس المال من قبل تربيحه سواء بسواء بخلاف الفرنسيس فانهم يذبحون من العجول الصغيرة اكثر مما يذبحونه من الكبيرة ولقلة هذا النوع عندهم لا يمكنهم الصبر الى ان تكبر الصغير فتضيع عليهم بذبحه فائدتان الاولى جودة اللحم والثانية الانتفاع به وايضاً فان الانكليز من عادتهم اراحة البقر من الاشغال وتسمينها واما الفرنسيس فانهم يستعملونها في جميع الاعمال الشاقة ولا يذبحون الكبير منها الا اذا هزل لحمه وضعفت قوته مع انا لو تاملنا فيما يكتسبونه من استعماله وفيما يضيع عليهم به لوجدنا ان استسمانه واستثماره اربح لهم من استعماله لانه بالبحث عن ذلك وجد ان قيمة البانها بفرنسا نحو مائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم اربعمائة مليون وما يقابل شغلها مائتا مليون فيكون جميع ايراد البقر بفرنسا سبعمائة مليون

واما الانكليز فان ثمن البان بقرهم اربعمائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم خمسمائة مليون فجميعه تسعمائة مليون فترى ايراد هذا النوع عندهم قد زاد على ايراده بفرانسا مائتي مليون وان اعتبرنا ريع كل من الجهتين على حدته وجدنا مجموع ايراد الفلاحة بفرنسا خمسة الاف مليون من الافرنكات منها قيمة اللحم ثمانمائة مليون وقيمة الحنطة ستمائة مليون فباعتبار هذه المقادير تكون قيمة اللحم في فرانسا نحو السدس من ايرادها مع ان قيمته عند الانكليز

تبلغ ثلث ايرادها تقريبًا وما ذاك الاَّ لكون احوال الزراعة عندهم متقدمة تقدمًا زائدًا

فقال صاحب المنتزه ان ما ذكرتموه صحيح ولكن قد تفطنت الخلق الان لامر الزراعة ونمائها لوجود الخلطة العامة وحصول الالفة التامة فانا نجد كل انسان قد تحصل على ما فيه منفعة له ولو كان على بعد منه لسهولة السفر وقرب المسافة بما حدث من الآلات البخارية برًا وبحرًا فجميع الآلات التي كانت لا توجد الاَّ عندكم قد صارت موجودة عندنا وربما تحسنت زيادة عما عندكم فتقدمت الزراعة واتسعت اصناف البضاعة وان كان لتاخير الزراعة اسباب كثيرة واقواها تاثير الاحتقار باهل الفلاحة وعدم الالتفات اليهم وترك التبصر في احوالهم وارتكاب ما تضيع به ثمرات الفلاحة من تسخير اهلها بالعسف والقهر والتعدي عليهم بما يقهقر حالهم ويفسد عليهم اعمالهم وكالتغالي في الزينة والزهو والاكباب على اللعب واللهو خلافًا لما يزعمه اخساء العقول من ان ذلك من لوازم الثروة فان بطلانه لا يخفى على كل ذي بصيرة لانا لو اختبرنا ما كانت تستهلكه اي امة في الزمن الغابر وما تستهلكه في الزمن الحاضر وقارنا بين الزمنين لوجدنا بينهما فرقا عظيما مثلا النور كان لا يوجد بمدينة باريز الا في بعض اماكن منها كالذي يخص رب المنزل واما الان فترى جميع اماكن البيوت مضيئة وعلى ذلك لا شك انه يلزم لها الان استصباح اكثر مما كان يلزم لها في سالف

الزمان ولا يتيسر الحصول على ذلك الا بزرع ارض له زائدة عما
كان يزرع في الاول وذلك لا يكون الا بنقص جزء مما كانت
تزرعه لقوتها وفي ذلك من الضرر ما لا يخفى فضلا عما يلزم
لجلبه الى المدينة من رجال الزراعة وحيوانات الفلاحة وما يلزم
لهذه الحيوانات من زرع ارض لمرعاها ينقص بقدرها من ارض
الحبوب فاذا نقصت ارض الحبوب نقص القوت فينقص عدد
الاهالي فان قيل لا يلزم ما ذكر لانه كان فيما مضى غابات مهملة
وبرك ومناقع كثيرة معطلة وقد عمرت الان وزرعت فهلاَّ تكون
عوضا عما نقص من ارض الحبوب قلنا ذلك مسلم لو كان عاما
في جميع الجهات فانا نجد بعض جهات كانت عامرة بالخلق فلما
زرعت فيها هذه الاصناف ونقصت مزارع حبوبهم نقص عددهم
فحينئذٍ لا شك ان الاكثار من الزينة وانواع التفاخر موجب لنقص
ارض الاقوات فاما ان تتم من الخارج والا هاجرت الاهالي وتعطلت
فضرر حب الزهو والفخر كضرر المحاربة بل اضر لان المحاربة وان
كانت تضر بارض الزراعة لا تضر بالامة وان اضرت فضررها
وقتي ومما يؤيد ذلك انك ترى بعض جهات وقع فيها محاربات
كثيرة وهي الان احسن مما كانت قبل الحرب لان الغالب ان
الحرب اذا كانت في جهة واتلفت منها شيئًا زاد عمار الاخرى
بقدر ما تلف من الاولى وقد يتنبه الجميع بعد انقضائها فيتركون
الرفاهية فيعودون الى احسن مما كانوا فعلمنا من ذلك ان

الحروب وكذا الامراض الوبائية ليست السبب في تدمير الامم اصلا
بل السبب فيه حب الزهو والزينة ليس الا لانا لو فرضنا ان فرسا
واحدا دخل مدينة للخيلاء به لا لعمله لم نشك انه ياخذ من ريع
تلك المدينة لمؤنته ما يعدل مونة اربعة من نوع الانسان وهذا
فرس واحد فما بالك بافراس او ما بالك بغيره من الحيوانات
التي لا فائدة فيها الاّ النظر لذاتها او التامل في الوانها وهيئاتها ولا
يقال ان اقتناء الحيوانات وان كثرت موءنتها لا ضرر فيه لما يترتب
عليه من تسميد الارض بروثها فتزيد في محصولها بقدر مؤنة الدواب
والحيوانات التي بها لان ذلك انما يقال في الدواب والحيوانات
التي بالقرى وارض الزراعة واما الحيوانات التي بالمدن فلا لان
روثها بها لا قيمة له بل قد يصرف عليه دراهم لاخراجه من محله
مع ما يلزم لذلك من تعطيل اشخاص من اهل الفلاحة لخدمتها
وجلب موءنتها وقد توهم بعضهم ان كثرة الامة وقلتها تابع لما
يستهلك قلة وكثرة اعني انه كلما كثر المستهلك كثرت الامة وكلما
قل قلت وهذا التوهم لا يسلم به الاّ لو اقتصر على ما لا بد منه
والواقع غير ذلك فانا نرى القليل من الامة يصرف اضعاف ما
يصرفه الكثير منها فاذا تاملنا ذلك وجدنا ان معيار الثروة وعدمها
تابع لكثرة المشتغلين بالزراعة وقلتهم فكلما كثروا اخصبوا وكلما
قلوا اجدبوا فاي قوم لم يشتغلوا بامر الزراعة وتوابعها كانوا وبالا
على الامة عموما وعلى المشتغلين بها خصوصا فحينئذٍ يجب على ولاة

الامر التنبه لذلك وحمل اهل البطالة على العمل ولا سيما الشحاذين الذين اتخذوا التكفف صنعة فانهم يتفننون في الحيل ويتعللون بما تسوله لهم انفسهم من العلل فلا يمضي على الواحد منهم زمن قليل الاّ وقد تحصل على جزء من المال فمثل هولاء يجب منعهم وامرهم بالتكسب لئلا يقتدي بهم من يميل الى البطالة والكسل ليستغني بهذه الصنعة الخبيثة عن التكسب بالعمل فاذا تمهد هذا علمنا ان فن الفلاحة والزراعة هو الاصل بل هو اساس ثروة البلاد وعمارها واصل رفاهية اهلها فيجب على كل حاكم احترام المشتغلين بها والالتفات اليهم كل الالتفات ومساعدتهم بانواع المساعدات وتطييب قلوبهم والرأفة بهم والاَّ كان كمن هدم اساس بيته بفاسه لان مثل كل ملك مع رعيته كمثل شكل هرمي الملك كراسه والرعية كقاعدته وأسه ورجال الدولة ما بين ذلك على قدر درجاتهم فكما ان كل جزء من اجزاء هذا الشكل حامل لثقل ما فوقه وهكذا الى الطبقة السفلى فتكون هي التي عليها ثقل الجميع كذلك ارباب الحكومة السياسية على اختلاف درجاتهم كلما فسدت درجة سرى ضررها الى من دونها وهكذا حتى تجتمع جميع المضار على الضعفاء واهل الفلاحة فلو قصر الملك نظره على من يليه من رجال دولته وصرف عمن دونهم نظره فسد نظامه واختلت مملكته واحكامه فكما انه لا بقاء للشكل الا بقواعده كذلك لا بقاء للملك الا برعيته فان تنبه الحاكم وانصف من نفسه عرف كيف يصون ولا بتة

من الخلل بان يشمل بنظره جميع رعيته لا يفرق بين الاجانب منهم وذوي قرابته ولا بين ضعيف منهم وقوي وخص من بينهم اهل الفلاحة بمزيد العناية والالتفات لانهم الحاملون لاثقاله القائمون بصالحه واعماله اذ لولاهم ما كان للملك قوام ولا تم له نظام وحيث كانت الارض لا تفيد الاَّ بقدر ما تستفيد لا فرق عندها بين عظيم فتكرمه ولا فقير فتحرمه بل ان قام صاحبها بما يجب لها وخدمها انتفع بها والا عدمها وهي على اختلاف انواعها لا يخلو شي من اجزائها عن فائدة حتى الرمل الذى لا يصلح للزراعة لو وضع منه شي في الارض السبخة او البرك المالحة لاصلحها وكذلك اخراس الارض لو نقيت مما فيها وحرثت لكانت اصلح من غيرها وكذلك الارض الحجرية يؤخذ منها احجار للمباني العظيمة ذات الاسوار فما من انسان اقام في اي مكان وتيسرت له اسباب الراحة وانتفت عنه الموانع الا تيسر له منه اضعاف قوته وتحصل على ما لا يتحصل عليه غائص البحر لياقوته فلو فرض ان فداناً غرس اشجاراً لا تثمر وترك الى نحو عشرين سنة لكان فيه من الخشب والفحم ما يقوم بمال عظيم مع انه لم يلزم له الا قليل من العمل والعمال فما بالك لو غرس اشجاراً ذات ثمر فلو فرضنا ان ذلك الفدان بعينه كان في المدة المذكورة يزرع حبوباً لكانت فوائده اكثر منها في الحالتين السابقتين فعلم من ذلك ان الناس تابعة للزراعة كثرة وقلة ولو كان ذلك الفدان بعينه في ضاحية من ضواحي المدن قد هيأ له صاحبه

محابس لريه وغرس فيه اشجارًا واجرى اليه انهارًا وجعل فيه عروشا
أما كان بذلك يساوي اضعاف مثله من ارض القرى والارياف
وما ذاك الا لكثرة عماله واحتفاف الناس به فهذا دليل ايضا على
انه كلما كثرت الناس بارض زاد محصولها وان الانسان لو خلي
ونفسه لجعل من الارض الحجرية بساتين وكروما الا ترى ارض
مرسيليا فانها كانت اولا جبالا ورمالا فاجتهد اهلها حتى حفروا
فيها خنادق وطموا ارضها بالتراب واجروا اليها الماء ثم غرسوا فيها
من انواع الفواكه والاشجار ما يستغل منه اموال عظيمة فلو احصينا
عدد قرية وفرضنا انهم قائمون بخدمة ارضهم حق القيام لكان عددهم
دائمًا في زيادة لان الجمع عليه عند ارباب الفلاحة ان الارض
كلما خدمت زاد محصولها فليس محصول المحروث مرة كمحصول
المحروث مرتين ولا محصول الارض التي تسقى بماء المطر كالتي
تسقى بماء العيون ولا محصول الارض التي سقيت كمحصول الارض
التي لم تسقَ وهكذا من محسنات الزراعة فالفلاحة لا شك انفع
الصنائع اذا توفرت اسبابها وانتفت الموانع عن اربابها خلافا لقوم
ذموها واستقبحوها وعدلوا الى دماء الناس واموالهم فاستباحوها مع
علمهم بان فوائد الفلاحة لا تعدلها فوائد وادرار ارزاقها دائمًا
متزايد وهم الآثينيون وسكان اسيا فكانوا يزعمون ان الفلاحة
والتجارة مما يوهن القوى البدنية ويورث الذل للذرية فتركوا جميع
الصنائع ولم يلتفتوا لما فيها من المنافع وعدلوا الى نهب الاموال

واسر ما قدروا عليه من نساء ورجال وعم ذلك جميع اوروبا فانتج خرابها وافسد العمار الذي كان بها وكان المنقطع للفلاحة وقتئذٍ الارقاء ومن يأوي اليهم من الغرباء فارتحلت عنهم حينئذٍ الفضائل الدثرية وقد كانت بقعتهم عين منبعها ومرج مرتعها وانظر الى الرومانيين وما كانوا فيه من الخمول والتوحش فلما افاقوا من خمولهم وتفننوا في الفلاحة علت شهرتهم وقويت شوكتهم ثم تقادم بهم الزمن واهملوا امر هذا الفن واشتغلوا بالمحاربات فآل امرهم الى الخراب وضعفت دولتهم وانحطت صولتهم وانتهى بهم الحال الى ان تقاسم ارضهم المتبربرون وبالجملة فلم نرَ جهة اهملت فيها الزراعة الا حل باهلها القحط والمجاعة

فقال الشيخ احسنت الاّ انه بغير العدل لا يتم صلاح اذ لولاه ما قدر مصل على صلاته ولا عالم على نشر علمه ولا تاجر على سفره وهو صفة في الذات تقتضي المساواة وهذه الصفة اكمل الفضائل لشمول اثرها وعموم نفعها واليها الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت السماوات والارض وتوضيح الكلام يحتاج الى مقدمة في هذا المقام ذلك ان الله تعالى لما خلق الارض ودحاها واخرج منها ماءها ومرعاها وبث فيها من كل دابة فكان فيما خلق نوع الانسان ولعلمه انه ليس كغيره من سائر الحيوان احوج بعضه الى بعض في ترتيب معاشه ومؤنه وتحصيل ملبسه ومسكنه لانه ليس كسائر الحيوانات التي تحصل بنفسها ما تحتاج اليه من غير

صنعة بل خلقه ضعيفًا لا يستقل وحده بامور معاشه

ثم مست الحاجة بينهم الى سايس عادل وملك عالم عامل يضع فيهم ميزانًا للعدالة وقانونا للسياسة توزن به حركاتهم وترجع اليه معاملاتهم وكان مباشرة هذا الامر من الله تعالى بنفسه من غير واسطة على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة فاستخلف عليهم من الادميين خلائف وضع في قلوبهم العلم والعدل ليحكموا بها بين الناس حتى يصدر ترتيبهم على قانون مشروع وتجتمع كلمتهم على امر متبوع ولا تحقق العدالة الا بعد العلم باوساط الامور المعبر عنها بالصراط المستقيم ولا تؤثر عدالة الشخص في غيره الاّ ان اثرت اولا في نفسه اذ التأثير في البعيد قبل القريب بعيد قال تعالى أتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم فمن عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق واطاعه الخلق وصفت له النعماء واقبلت عليه الدنيا فهنئ بالعيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وأمن الحروب ولم يخلق الله تعالى احلى مذاقا من العدل ولا امر من الجور لان اس المملكة واركانها وثبات احوال الامة وبنيانها العدل والانصاف سواء كانت الدولة اسلامية او غير اسلامية فهما قاعدة كل مملكة واصل كل سعادة ومكرمة

فالواجب على الملوك وولاة الامور ان لا يقطعوا في حكم الا من القانون المصنوع لهم سواء في ذلك العادات والزواجر والاوامر والمعاملات لانهم متصرفون في ملك الله وعباد الله بشريعة الله

ولذلك قالوا صنفان اذا صلحا صلحت الامة واذا فسدا فسدت الملوك والعلماء وقالوا اذا همّ الوالي بالجور او عمل به ادخل الله النقص في اهل مملكته وفي كل شي حتى في التجارات والزراعات واذا همّ بالخير او عمل به ادخل الله البركة في اهل مملكته وفي كل شي حتى في التجارات والزراعات فلا يصلح لهذا المنصب الاّ من قطع من الطمع امله ووافق قوله عمله وكذلك عماله ونوابه والا كان كما قيل

ومن يربط الكلب العقور ببابه

فعقر جميع الناس من رابط الكلب

* * *

المسامرة التاسعة والثمانون

فرساي

وما وصلوا الى هذا المقام من المقال حتى وقفت بهم العربة على باب الجنينة التي قصدوها فنزلوا وقصدوا القصر اولا ليروا ما فيه من العجائب فدخلوه ولم يتركوا محلا منه حتى نظروه فرأوا فيه صورًا وتماثيل واشياء كثيرة من هذا القبيل منها ما هو على صورة عساكر مصطفة ومنها ما هو على صورة طير كأنه يناغي الفه ومنها ما هو على صورة نساء في غاية الجمال ومنها ما هو على صورة خيل مسوّمة وكأنها متهيئة لنزال او هجوم

ومنها ما هو على صورة بعض الملوك الاول ورجال الدول فكانوا كلما مروا بصورة شرحها الخواجا للشيخ ولو لم يسأله عنها فلما خرجوا قال الانكليزي للشيخ ايها الاستاذ كيف ترى فيما فعلت

حوادث الزمان وخطوب الحدثان وتحوّل الاشياء عما كانت عليه وخروجها عن موضوعها

فقال الشيخ كيف ذلك وما الذي خطر ببالك فقال ان هذا القصر كان محلا للملوك لا يصل اليه شريف ولا صعلوك فلما تقلبت به الايام وامتدت اليه يد الزمن عاما بعد عام اضمحل حاله وآل الى ما ترى مآله والذي وضع فيه الصور والرسوم التي رأيتها هو لوي فيليب فلو رأيته قبل قيام الفرنسيس حين كان مركز دائرة الحكومة ومحل فصل كل مشكلة وخصومة فكان غاصا في النهار باصحاب الحاجات والليل بانواع الملاهي والمستلذات ولولم يضع فيه هذا الملك هذه الرسوم ما جنح اليه احد

فقال الشيخ ليس ذلك من الدهر بعجيب ولا عند ارباب المعارف بغريب فكم لعبت الايام بمثله حتى ازالته من اصله كما قال

هي المقادير تجري في اعنتها

فاصبر فليس لها صبر على حال

يوماً تريك خسيس العقل ترفعه

الى السماء ويوماً تخفض العالي

اذ من المعلوم ان الدهر لا يبقى على حاله بل لا بد له من اعطاء ومنع وخفض ورفع وحركة وسكون وظهور وكمون وصحة

وعلة ويسار وقلة فلا يدوم على حال الاّ الكبير المتعال

وامّا الكون اجمع وما حوته جهاته الاربع فلا يخلو عن صحة وفساد وضلال ورشاد على حسب ما اقتضته ارادته العلية ودبرته حكمته الخفية فترى الشيء قد كسي حلل البها وعلاه رونق الحسن والأزدها وعن قريب تراه قد حل بهِ القضا كل ذلك لحكم واسباب منها ما علم ومنها ما ضرب دون العلم بهِ الحجاب ومن تصفح تواريخ الامم وتتبع اخبار الناس من عرب وعجم وجد ان كل زمن لا بد فيه من تغير ومحن ومن يطلع الآن على هذا المكان ويتامل في بنيانه واتساعه واتقانه وما اخذه من الارض يحكم على واضعه بالغرور ولكن هكذا دأب الأنسان على ممرّ الدهور فانه كلما تمنى حالة وبلغها تمنى اعلى منها وهكذا الى ان يأتيه هادم اللذات ومشتت الجماعات فيجده غريقًا في بحر غفلته فيجتذبه من بين اهله واحبته فهناك تنقطع علايق اوهامه وتنبت حبال اغتراره بأيامه ولنترك الآن الكلام في هذا الشان وادخل بنا البستان نريح الخاطر باستنشاق ارجه العاطر ونمتع الناظر بزهره الزاهر فساروا حتى دخلوه فكانوا كلما مرّوا بنوع من ازهاره او ناحية من نواحيه او شجرة من اشجاره ساله الشيخ عنها فيطنب لهُ في وصفها وخواصها ولطفها الى ان وصلوا كهفا حولهُ اشجار يسمع منه تغريد اطيار فوجدوا عنده مصطبة من حجر لجلوس كل من

.رٌ فجلسوا واتفق ان ذلك اليوم كان يوم فتح مجاري المياه يجتمع
فيه خلق كثير من اهل باريز وغيرهم فحصل عند الشيخ من العجب
ما ذهب بهِ كل مذهب فسال صاحبه الانكليزي عن اصل هذا
المكان وعمن زخرفه واتقنه هذا الاتقان

فقال لهُ الأولى ان تسال في ذلك صاحبنا الفرنساوي لانه
ادرى باحوال بلاده فقال لهُ الفرنساوي هذا من حسن اخلاقكم
والاّ فتاريخ هذه البقعة مشهور بين الخاص والعام من اهل
اوروبا لان لهُ حوادث جسيمة في ازمنة مختلفة ترتب عليها
تقلبات كثيرة فيغلب على ظني انها بعض معلوماتكم ولكن هكذا
يكون الظرف عند اربابه فاقول ان هذا المكان لم يكن في الاصل
كما تراه الآن بل كان بقعة لا توءلف ولا تسكن ما بين منخفض
وعال ومجاري مياه وتلال لا شيء بها سوى غابات ولا يأوي
اليها الاَّ الحيوانات وكذلك المدينة التى تراها على ما تراها عليه لم
تكن الا عبارة عن كفر صغير مشتمل على قليل من البيوت
كالعشش لا يسكنه الاّ اوغاد الناس وطغامهم هكذا كان اصل
هذه البقعة ثم في القرن السادس عشر من الميلاد انشئ بهِ كنيسة
ثم مارستان لمعالجة من يمرض من خدمتها لانهم كانوا رهباناً لا
مأوى لهم سواها فبقيت كذلك مدة واعظم محل كان بها في ذلك
الوقت بيت لاحد البروتستانيين الذين نجوا من القتل في واقعة

برتلي ثم قبض عليه وقتل واستولت الحكومة على جميع متروكاته وانعم ببيته على بعض من يلوذ بالملك الى ان تولى لويز السادس عشر فاخذ ارض ذلك البيت واضاف اليه ما بجواره من الارض وانشأ في الجميع قصرًا وحديقة

فقال الشيخ اذا كان هذا المكان في الاصل على ما ذكرت من الصفة فما الذي اعجبه منه حتى الفه

فقال الفرنساوي لا شيء الاّ انه كان يهوى الصيد وكان ذلك المكان بطريق غابة مشهورة بالحيوانات الغريبة ولم تكن سكك الحديد وقتئذٍ موجودة فاتفق انه ذهب مرّة ليصطاد فامسى عليه الوقت فبات فيه في طاحونة مهجورة وامسى عليه الوقت مرّة اخرى فبات في خمارة فاشترى تلك الارض وما بجانبها ووضع فيه ما يلزم لهُ ليأوي اليه اذا حصل لهُ مثل ذلك ثم لما اتم القصر والحديقة شرع في عمل سكة الحديد بين قصره وباريز واجتهد في تصفية هوائه فجمع العمال من الرجال وازال ما كان حوله من التلال وطم المنخفض وردم المناقع فألفه الناس واتخذوا لهم بهِ مساكن فاتسعت عمارته وتغيرت صفته ثم مرض الملك مرضًا شديدًا فوكل امر الملك الى أمه ماري ميديسي فاساءت التدبير ولم تعول في امر المملكة على وزير ولا مشير بل سلكت طريق العسف ففسد ما بينها وبين رجال الحكومة خصوصًا ريشليو وكان من اعيان رجال الدولة واقربهم الى الملك فانها

فعلت معه ما لا ينبغي فعله مع مثله فلما برئ الملك من مرضه
وجلس محله راودته امه في طرده وطرد من ينتمي اليه فلم يوافقها على
ذلك بل ارسل اليه ليرده الى ما كان عليه فوجده متأهبًا للخروج
من البلد خوفًا على نفسه من سعاية ام الملك بهِ فامنه فعدل عما
كان عازمًا عليه وحضر الى الملك وترجاه في ان لا يعود الى
الخدمة لئلا يقع بين الملك ووالدته شيء بسببه فلم يقبل عذره
بل الزمه المقام معه لعلمه بصداقته وكفايته فلما لم يجد لهُ مخلصًا
من المقام معهُ قال لهُ ان كان لا بد من ذلك فاول ما اشير
بهِ عليك ان تعمل طريقة نأمن بها شر هولاء المفسدين اشارة لقوم
سماهم وفيهم والدة الملك فقال لهُ الملك هذا رأي سديد وكلما
اشرت بهِ في حقهم قريب غير بعيد فقال ينبغي نفي فلان وفلان
حتى الوالدة ففعل كما قال وامر بنفيهم في الحال حتى والدته
فلم تعد للمملكة بعد ذلك وجعل الحل والعقد بيد ريشليو
فنفذت كلمته وقويت شوكته وقام بتدبير المملكة وحده وبلغ
من نفوذ الامر وحسن الراي حدًا لم يبلغه احد قبله ولا بعده
فاكتسبت هذه البقعة في تلك المدة من الرونق والبها ما يجلُّ
عن الاحصآء ثم لما مات الملك وجلس محله ابنه لويز الرابع
عشر احتفل بها وصرف فيها اموالاً كثيرة حتى نقلها الى حال
احسن من حالها الاول فكان هو الذي اتقنها هذا الاتقان
وجعلها على هذه الصورة التي تراها الان فان الملوك الذين

اتوا بعده وان كان لهم بها اثار الا انها ليست شيئًا بالنسبة
لما ابتدعه هو كما هو ظاهر فجميع ما تراه فيها مما يسر الناظر
ويشرح الخاطر ليس الا من اتقان الملك المذكور وكان الذي
اغراه على هذا المكان حتى ابرزه في غاية من الحسن والاتقان
عشقه لاحدى توابع الملكة وكان لا يتمكن من منادمتها الا في هذا
المكان فما اغراه واغواه الاّ داء الحب الذي اعتراه ففصل هذه البقعة
تفصيلا غير تفصيلها الاول وجمع فيها الرسوم الهندسية وصور
الحيوانات وغرس حول بعض الاقسام ازهارًا وحول بعض اخر
اشجارًا ورتب في كل جهة فساقي وحيضانا ونوافير وخلجانا ومغارات
وصخورًا ونحو ذلك من كل ما له نظير في البراري والبحور
وجعل فيها اماكن لمن اراد ان يستريح من التعب واماكن لمن
اراد اللعب واماكن للحيوانات البرية ومثلها لانواع الطير وكان
يعمل بها في بعض الاوقات ولائم يصرف فيها ما لا يصرفه ايام المواسم
ولما رأى ان ماء البرك المجاورة لها لا يفي بما انشأه فيها من الفساقي
والخلجان وسقي الاشجار جمع المهندسين وامرهم بعمل طريقة لتكثير
الماء بها فصنعوا لها آلات جسيمة تنقل الماء من نهر السين اليها
وصرف على ذلك اموالا عظيمة حتى وصلت اليها فلم يكتف بذلك
بل جمع العساكر والعمال وامرهم بحفر النهر المعروف بنهر الاور
فاقاموا في حفره مدة كابدوا فيها انواع المشاق ومات كثير منهم
[illegible] لا [illegible] الحاكم ولا يرأف بهم بل كان يتهدد

المأمورين ويتوعدهم ويعاقب كل من تأخر عن العمل

قال بعضهم انهُ اجتمع في حفر هذا النهر ما ينيف على ثلاثين الفًا واما قدر ما صرف على القصر فلم اتحققه الاَّ اني رأيت بعض اوراق تدل على ان ما صرف فيهِ مائة وتسعون مليونا وقتئذٍ هذا ومع قيام الحرب واشتعال نارها كانت العملية في القصر مستمرة ما بين نقاشين وبنايين ومصورين الى ان اشرف الملك على الارتحال وقربت اليه اوقات الزوال فبنى كنيسة رتب فيها قسسا وخدما فكان يحضر اليها كل يوم احد وخميس فقلده في ذلك اتباعه وخواصه فكان اذا حضر اليها تبعوه وازدحموا عليها واذا تخلف لم يحضر منهم احد وكان غالب ايام ذلك الملك مصروفة في تنظيم هذا المكان فكان يقسم اوقاته فيجعل وقتا لنومه ووقتًا للمطالعة في اخبار دولته وقومه ووقتا لخلوته واجتماعه باحبته ووضع بجانب سريره لوحا عليه رسم صورته وصورة امه وزوجته فاذا انتبه من نومه كانت تلك الصور اول ما يقع بصره عليه وكان اذا جاء وقت قيامه من نومه دخل عليه الموكل بخدمته فينبهه ثم يخرج ويدعو بالحكيم ومن يلوذ به فيغمزون رجليه ويلقون عليه بعض عبارات غزلية وكلمات هزلية حتى يعود اليه نشاطه وتتراجع اليه حواسه ويتم انبساطه ثم ترفع الستارة فيدخل عليه احد خواصه ومعه كتاب الدعوات فياخذه منه ويدخل به خلوة فيمكث فيها ما شاء ثم يعود الى مكانه ويلبس ثيابه ويخرج فيجد القسس والعمال

في انتظاره فاذا وقع بصره عليهم وقعوا له ساجدين ثم يامر كلا من
عماله بالانصراف الى اعماله فينصرفون ويبقى هو مع بعض خواصه
يتحدثون في حيل الصيد وانواع المصيد هكذا كان دابه فانظر الى
هذه المدينة بعد ان كانت في اول امرها كفرًا لا يذكر كيف صارت
احسنُ مدينة في الدنيا وما ذاك الاّ لاقامة الملوك بها واحتفالهم
بشأنها وتنظيم شوارعها وجمع انواع الملاهي في مرابعها فعمرت
ضواحيها وملأت الخلق نواحيها وانشي بها خمامير كثيرة ومحلات
مزخرفة لمبيت الاغراب وورد اليها الخلق من كل جهة خصوصًا
ايام اطلاق المياه وغلت اجرة البيوت بها غلوا لا يخطر ببال وقل
ان يوجد بها محل الاجرة خال فكانت فرساي مدة جلوس لويز
الرابع عشر على التخت محل انس وانشراح وولائم وافراح ثم اتى
ولده من بعده فلم يجرِ على سنن والده في تقسيم اوقاته على ما قدمنا
بل صرفها جميعها في حظوظه النفسية ما بين مخادنة نساء وفجور
ولعب ولهو وشرب خمور حتى كان من شدة اكبابه على المنكر مع
احبابه يجعل له آلة توصل اليه ما لزم من غير احتياج الى خدم
فاقبل عليه المفسدون من كل حدب وحسنوا له القبيح من الشهوات
واغروه بسائر المنكرات فعم الفساد وانتشر بين العباد ولا تسل عما
كان يهديه الى النساء فانه مما يجل عن الاحصاء وقد بلغني من
فعله القبيح واسرافه انه اهدى مرة الى بعض صواحبه قلادة ثمنها
مليون وستمائة الف فرنك فانظر كيف كانت هذه البقعة مدة

لويز الثالث عشر ومدة من جاء بعده وكيف صارت مدة لويز
السادس عشر من حسن حالها واستقامة احوال نسائها ورجالها
حيث كان حسن السيرة ممدوح الفعل والسريرة يحب العلم واهله
ولم يرتكب شيئًا مما ارتكبه من كان قبله الاّ ان الزمن الذي كان
تصرّم في الفساد قد الزم الرعية وكذا الحكومة بديون لا يرجى لها
سداد فشكوا اليه ذلك فرق لحالهم واخذ يجمع ما تشتت من شملهم
ويهون عليهم الامور ويعدهم ويمنيهم بما يجلب لقلوبهم السرور
وكان الذي قبله قد شرع في اعمال جسيمة نافعة كبناء مينا شربور
وحفر خليج سربوني مع خلو خزينة المملكة من الدرهم والدينار
واضطرار الرعية الى من ينظر في احوالهم اشد اضطرار فجمع النواب
وكل من اشتهر من روساء الطوائف فكانوا الفا ومائتين واربعة
عشر وجعلهم ثلاث درجات

الاولى القسيسون ومن يليهم فكانوا ثلاثمائة وثمانية

الثانية اعيان المدينة ووجوهها فكانوا مائتين وثمانية وتسعين

الثالثة اعيان الزراع وعرفاء القرى وارباب الضياع فكانوا
ستمائة وسبعة وامر بتهيئة محل لهم يجتمعون فيه فهيئوا لهم المكان
الذي هو مدرسة ابتدائية الان وعينوا يومًا لافتتاحه فحضر الملك
وكان عن يمينه اهل الديانة وعن يساره وجوه اهل المدينة وجلس
الوزراء على قدر مراتبهم وكانوا جميعا في ذلك اليوم قد حضروا
وعليهم ملابس الزينة الموشاة بالذهب وغيره ما عدا الاهالي فكانوا

بهيأتهم المعتادة وبعد ان كان هذا المجلس يسمى بمجلس النواب ابطلوا هذا الاسم وسموه بمجلس الملة ولما كان من عادة امثالهم في مثل ذلك ان ينزعوا برانطهم ويظلوا واقفين ولم تراع تلك العادة في ذلك الوقت قال بعض الحاضرين هذا خروج عن العوائد الرسمية وخلل في القوانين السياسية واكثروا من الكلام في ذلك فلم يلتفت الملك اليهم وشرع في مقالة تلاها عليهم فذكر فيها مسئلة الدين وعدم انتظام عوائد الفردة ونحو ذلك من الامور التي تضرر منها الاهالي ثم ختمها بامر النواب بالاتفاق على طريقة لاصلاح خلل هذه الابواب ثم قام ناظر الخاصة وتلا مقالة بين فيها ما اجمله الملك في مقالته فذكر ان قدر الدّين ثلاث مليارات وتسعون مليونا وان الايراد لا يقوم بالمنصرف بل ينقص عنه في كل سنة نحو ستة وخمسين مليونا وخمسمائة الف فرنك وان قدر الايراد خمسمائة وواحد وثلاثون مليونا واربعمائة واربعون الف فرنك وان من العدل والانصاف ان تكون وجوه الناس كغيرهم في الفردة وان جميع ما يلزم للحكومة يوزع على جميع النفوس من غير تمييز بين رئيس ومرؤس ثم قال فاما ان تتفقوا جمعا على كلمة واحدة واما ان تبدي كل طائفة ما يظهر لها وعلى كل لا بد من اعمال الفكر في تخليص الحكومة من ورطة هذا الامر ثم اذن لهم بالانصراف فانصرفوا فلما كان اليوم الثاني حضروا فقالوا الصواب صرف النظر عن اراء رؤس الطوائف وان يؤخذ راي كل شخص على

حدته فمن كان اكثر عمل برأيه فنفر بعضهم من هذا الراي فلما بلغ
الملك ذلك امر بعدم تغيير المعتاد ونهى عن الدخول في كل امر
يوقع بين الناس الفساد وإذن لهم بالانصراف فانصرفوا واغلقت
الابواب فنشأ من ذلك امور لا يحصرها لسان ولا يحيط بها جنان
كما هو مذكور في تواريخ الامة الفرنساوية فترتب على ذلك تدوين
الاحكام السياسية والقوانين الفرنساوية وظهر نابليون بونابرت
وتعصبت الدول على الامة الفرنساوية فانتصر عليهم وسنتكلم على
ما وقع بين هولاء القوم في يوم بعد هذا اليوم

المسامرة التسعون

الجيولوجيا

او علم طبقات الارض

ثم ركبوا سكة الحديد وتوجهوا الى باريز فصادف دخولهم غروب الشمس فاستأذن صاحبهم الفرنساوي وتوجه الى منزله وبقي الشيخ مع صاحبه الانكليزي ولما لحق كلا منهما من التعب من كثرة المشي طول يومه استأذن كل منهما صاحبه ودخل محل نومه وعند الصباح اتى الفرنساوي الى الانكليزي فاخذه وذهب به الى الشيخ فتلقاهما بالقبول واحسن لهما في القول ثم قال الفرنساوي للشيخ كنت كتبت الى صاحبنا الانكليزي كتاباً رجوته فيه تبليغ السلام الى حضرتكم وان يترجاكم في قرآة دروس لنا في علم العربية بالمدرسة المشرقية وقد سألته البارحة عما تم عليه الامر فاخبرني انكم

قبلتم رجاءه فارسلت الى اعضاء الجمعية ابشرهم بذلك فسروا جميعا غاية السرور وكانوا يظنون ان اجابتكم الى ذلك من ابعد الامور

فقال الشيخ قد نجحت مقاصدكم لا خاب قاصدكم وكيف امتنع من ذلك والعلم ينهى اهله ان يمنعوه اهله وها انا مستعد لما ترومون ومتهيئ لما ترغبون ولم يكن الباعث لي على اجابتكم ما ذكرتموه في المكتوب الذي حررتموه بل اقول كما قال انا موصول بنعمة من حبله بالود موصول ثم اتفقوا على اليوم والساعة وقام الفرنساوي مع الانكليزي واذا بابن الشيخ دخل عليه وقبل على عادته يديه فاخبره والده بما صار وبما انحط عليه القرار وانه عازم على انجاز الوعد ومتوجه اليهم في بعد غد

فقال له ولده ان يعقوب اخبرني حين استشعر بهذا الخبر ان له رغبة في حضور هذا المجلس ولكنه يخشى ان لا يأذنوا له

فقال له الشيخ قل له عني لا عليك من ذلك ولا مانع من حضورك معنا هنالك ثم أذن لابنه بالانصراف وحذره من تضييع الوقت اذا اراد الطواف وكانها كانت كرامة للشيخ فان يعقوب كان قال له قبل دخوله على والده أن هنا مكانا على نحو ساعة من باريز يعمل فيه في مثل هذا اليوم كما يعمل في الموالد في بلادكم وفيه ما يشرح الخواطر ويسر النواظر فلما خرج من عند والده واخبره بما قيل في شأنه تم انبساطه وتنبه نشاطه وقال له هل لك

في الذهاب الى هذا المكان لنرى ما فيه ونتنشق نسمات هاتيك الجنان فلم يجد له بدا من الموافقة عملا بقولهم شرط المرافقة الموافقة فركبا غربة وسارا فقال له ابن الشيخ اتذكر ايام كنا راكبين البحر حين كنا نرى دخانا صاعدا الى السماء فكنا نراه في الليل كانه مخلط بشهب ولهب وكان الخواجا يقول لوالدي انه خارج من جوف الارض فاظن ان هذا من ذلك وذلك يقضي بوجود حرارة شديدة في جوف الارض حتى تذوب منها هذه المعادن والاحجار وتندفع على وجه الارض وئن سلمنا ذلك فكيف وصل الانسان الى جوف الارض حتى علم ما هناك

فقال له يعقوب قد سألت عن مسائل مشكلة والاجابة عنها على مثلي معضلة ولكن على حسب الامكان اذكر لك ما يحضرني فيها الان مما سمعته من بعض العلماء واطلعت عليه في كتب الفلاسفة الحكماء انما يجب ان تعلم اولا انه لا ينبغي للانسان ان يحكم على الاشياء بظواهرها وانها كانت كذلك من اول امرها فان الارض التي تراها مكسوة باصناف النبات مملوءة بانواع الحيوانات لم تكن قبل ذلك كذلك حتى المدن التي تراها الان عالية البنيان معمورة بالسكان لم تكن كذلك بل لا بد وان يكون قد تداول عليها تقلبات منها ما اوقع اهلها في مضرات ومنها ما البسهم ثياب ثروة وسعادات فاذا كان هذا فيما على ظاهر الارض فلا مانع من ان يكون ما في باطنها كذلك فانا لو نزلنا الى ما في جوفها من مغارات

عميقة كمغارات الفحم الحجري مثلا لوجدنا حرارة باطنها اشد من حرارة ظاهرها وهكذا كلما نزلنا ثلاثة وثلاثين مترًا نجد حرارة اشد مما فوقها وايضًا فان الارض مركبة من طبقات ومعادن بعضها فوق بعض منها المستقيم وغيره وقد يكون بعض الطبقات مفصولا عن بعضه بمادة ليست من جنسه وغير ذلك مع اننا لو نزلنا الى باطن الارض وامعنا النظر لوجدنا في خلال مادتها بعض عظام واثر بعض نبات فمن اين كان هذا النبات والحيوان واي حيوان كان ومتى كان في هذا المكان أفلا يدل ذلك على وجود تقلبات مضت في الاعصر والازمان التي انقضت وقد اعتنى علماء كل زمان بالبحث عن هذه العظام فظهر لهم انها عظام حيوانات كانت في ازمان مضت ثم انقرضت عن اخرها

وحيث كانت تلك العظام غائرة في جوف الارض وعلى بعد عظيم من سطحها ينبغي القطع بمرور تقلبات عظيمة وادوار مختلفة اوجبت بلاءها وامتزاج ما بقي منها بالمواد المعدنية والحجرية

فقال له ابن الشيخ واي علم يشرح هذا الحديث وهل هو قديم او حديث

فقال يعقوب العلم الذي يذكر فيه ذلك يسمى باللغة الفرنجية علم الجيولوجيا ومعناه علم طبقات الارض او علم تكوين الارض وهو علم حادث لم تؤسس قواعده ولم تنتشر فوائده الا في القرن السابع عشر من الميلاد ومستنده المشاهدات والاطلاع على ما خفي من

طبقات الارض فكانوا كلما كشف لهم شي أثبتوه واستنتجوا منه غيره ولذا ترى هذا العلم دائمًا يتسع شيئًا فشيئًا وهو علم نفيس اذ به يمكن نسبة كل طبقة من طبقات الارض الى الزمن الذي تكونت فيه واخشى ان تكلمت معك فيه ان تسأم من طول المقام او كثرة الكلام

فقال قل ما شئت ولا تقصر في الايضاح ولا تبخل بالافصاح فاني لكلامك سامع

فقال يعقوب اذ قد الزمتني بالاجابة وان ابين لك خطاء الراي وصوابه فاقول

اعلم ان علماء هذا الفن يقولون بتغير ظاهر الارض وباطنها اما تغير ظاهرها فبما هو مشاهد لكل احد واما تغير باطنها فقد استدلوا عليه بشيئين احدهما ما وجدوه في خلال طبقاتها من الاثار الحيوانية والنباتية والثاني الاتقاد والاشتعال الذي وجدوه في باطنها كالذي رأيناه حين كنا بالبحر فلما رأوا ذلك قالوا لا بد ان يترتب على هذا الاتقاد فوران وغليان يوجب تعدد الطبقات وارتفاع كل طبقة على التي فوقها وان تتخلل بعض اجزاء الطبقات السفلى بين اجزاء الطبقات العليا ومن ذلك العظام ونحوها وكان البحث عن هذا الامر في اول الزمن مجهولاً فكان بعض القدماء اذا رأوا اثر حيوان او نبات اكتفوا برؤيته ولم يبحثوا عن سببه وبعضهم يعده جزاء من اجزاء الارض

وبعضهم ينسبه الى ما يشبهه من الحيوانات الاّ انه كان يخترع له
بعض حكايات خرافية واقوال وهمية فينقلها عنهم من ياتي بعدهم
ثم من بعدهم وهكذا فمن ذلك ما نقل عنهم وكانوا قد رأوا عظما
يشبه بعض اعضاء الانسان فنسبوه اليه وقدروا له طولا وعرضًا
غير طوله وعرضه المعروفين

واول من تكلم في هذا الفن العالم الشهير الفرنساوي المسمى
بيرنار باليس وكان في القرن السادس عشر من الميلاد فالف في
ذلك كتابا بين فيه ان جميع الاثار النباتية والحيوانية التي توجد
خلال الاحجار لم تكن الاّ بقايا حيوانات واشجار كانت مخلوقة في
قيعان البحر ومحلها الان هو الذي كانت خلقت فيه من قديم الزمان
ثم اتى من بعد هذا العالم في القرن السابع عشر علماء ايتاليون
فاقتفوا اثره وقالوا برأيه وصاروا يكتبون كلما رأوه من الاثار
وينسبونها الى اصولها ومن ذلك العهد اتسعت دائرة هذا العلم وكثر
اهله ثم انهم انقسموا قسمين قسم ينسب تكوين الارض الى النار
وقسم ينسبه للماء وكل اقام على مذهبه دليلا اسس قواعده واثبت
بالبراهين فوائده مع اجماعهم على ان جميع ما يوجد من اثار الحيوانات
والنبات كان له اصل في الخلقة وطريق الاستنباط من هذه الاثار
طويل لا حاجة لنا به الان فعلى اي حال لولا وجود هذه الاثار
واشتغال اهل هذا الفن بها اناء الليل واطراف النهار لكان هذا
العلم الى الان في حيز الاهمال كعلم قدماء المصريين فانه بقي زمنا

طويلا لا يلتفت اليه وكان كثير من الناس يظنه مجرد نقش وصور ولا يخطر بباله انه من عظيم الاثر الى ان ظهر شامبليون الفرنساوي فتأمل في اصوله وقواعده واظهر المخبأ من فرائده حتى وقف على تاريخ المصريين وعلم كثيرًا من حوادث الاقدمين فكذلك هذا العلم فان العالم الشهير المسمى كوفي الفرنساوي ما تكلم على تكوين الارض والتقلبات التي اسرتها من بدء الخلق الى زمنه والتي تعتريها الى الان الا من تتبعه تلك الاثار وامتحانها ونسبتها الى ما يشبهها واما اشتعال المواد واتقادها في تخوم الارض فكان الاقدمون يقولون به فوافقهم على ذلك المتاخرون وبنوا ذلك على امور منها ازدياد الحرارة كلما تعمق الانسان وتغلغل في جوف الارض فانه كلما نزل ثلاثة وثلاثين مترًا زادت الحرارة درجة كما تقدم ومنها البركان والمياه النابعة من جوف الارض ومنها البخار الذي يصعد من جوف الارض في بعض البقاع فهذا كله دليل على وجود الحرارة

وبناء على ما قلنا من زيادة الحرارة درجة في كل ثلاثة وثلاثين مترًا تكون الحرارة في المركز ١٩٥٠٠٠ درجة وعند ذلك تكون جميع المواد التي في هذه الدرجة نامة السيلان ويؤخذ مما اسلفنا ان الطبقة الظاهرة التي تجمدت بتأثير البرودة كانت قبل ذلك سائلة بتأثير المواد السائلة والابخرة المحبوسة تحت الارض فلما اثرت البرودة في القشرة الظاهرة جمدت المواد المقذوفة المماسة

لها ونقص حجمها نحو العشرة كما هو شأن كل مائع تجمد
وحينئذٍ تكون الطبقة الارضية التي هي ظرف اوسع من مظروفها فربما كان بينه فضاء وقد يمتلأ واذا حصل في الظرف انخفاض وارتفاع تكوّن من على ظاهره ما يسمونه سلاسل الجبال وقد ينفتح الظرف فتحات فتخرج منها مواد سائلة فترتفع الى الجو ثم تسقط على سطح الارض فيكون منها هذه الجبال الشامخة الموجودة في جميع جهات الارض هذا اذا كانت الفتحات واسعة فان كانت ضيقة عادت المواد المقذوفة منها اليها فكان ما يسمونه العروق المعدنية او الحجرية وقد يكون الخارج من تلك الفتحات مواد معدنية او حجرية فيتحلل منها مواد ملحية او جيرية او غير ذلك فاذا اختلطت بالبحار كان من املاحها ما يسمونه ارض الرسوب فاذا تقرر ما ذكرناه من احوال القشرة الارضية وما يعرض لها علمنا انه مغير لصورتها ومبدل لهيئاتها وانه ناقل للبحار عن مواضعها ولكن لا يكون ذلك الاَّ بعد مضي ادوار من الزمن طويلة تسكن الارض وتستقر في كل دور منها فتنتقل المواد السائلة منها الى مواضع قريبة او بعيدة عنها على اختلاف تأثير الماء قوة وضعفا فاذا استقرت كان ما يسمونه الارض المنقولة وما ذكرته لك في بيان اصل الجبال والصخور والبركان والعروق المعدنية وتموج الطبقات الارضية وقذف المواد السائلة في باطنها الى ظاهرها وتخلل بعضها بين طبقاتها وبيان ارض الرسوب والارض المنقولة انما هو على سبيل

الاختصار والا فالكلام على ذلك بعيد القرار

وقد جعل علماء هذا الفن جميع المواد المقذوفة التي تكوّنت منها كرة الارض ثلاث طبقات

الاولى الطبقة التي كانت سائلة ثم جمدت بالبرودة وسموها الارض المتبلورة

الثانية المواد التي في قرار البحار كالرمال ونحوها وسموها اراضي الرسوب

الثالثة الاراضي البركانية وتسمى المتبلورة ايضًا الاَّ ان تلك لها صفات تميزها عن غيرها كالاثار النباتية والحيوانية وهذه تحدث من تأثير المواد الكامنة تحت الارض وهذه الطبقات الثلاث وان كان بعضها فوق بعض الاَّ انها ليست على نسبة واحدة والا كانت معرفة علم تكوين الارض سهلة لا صعوبة فيها اذ بتوالي فعل البراكين وقذفها بانواع مختلفة في مواضع وازمان متعددة تكون الطبقات التي تحدث مما يقذف تارة متقطعة وتارة تستحيل الى نوع اراضي الرسوب ويتبدل النوع بغيره فحينئذٍ لا بد لكل من اراد ان يقف على حقيقة اي ارض ان يعرف اولا ما قيل فيها ومن اي نوع هي ثم بعد ذلك يحكم عليها

فقال ابن الشيخ بقي عليك امور ذكرتها ولم تاتِ لها ببرهان قلت ان هناك حرارة مركزية ولم تذكر سببها وهل هي سابقة على التكوين ام حصلت بعده وذكرت ان البرودة تؤثر في الارض

ونسبت اليها تجمد الطبقة الارضية السطحية حتى حبست بتجمدها المواد الداخلة وانه يحصل في الطرف بواسطة البرودة ارتفاع في بعض المواضع وانخفاض في بعض اخر فتحدث الوهاد وسلاسل الجبال ولم تبين اسباب هذه البرودة وكذلك ذكرت المياه ولم تذكر سبب جريانها هل هو تلك المواد المقذوفة ام غيرها وعلى كل فاين كانت مواد التكوين قبل وجود الكون

فقال يعقوب لا تعجل عليَّ فاني اعلم انك ستسألني عن ذلك كله وانما اخرت بيانه لضرورة تميم الكلام على المقدمات التي سمعتها فاذا ثبتت في ذهنك اتبعتها بذكر المقصود من هذا العلم وهو معرفة مادة الارض وكيف كانت قبل ان تكون بهذه الكيفية واي شي اثر فيها حتى صارت في هيئاتها الحالية وجرت فيها المياه وعمرت بالانسان والنبات وسائر انواع الحيوانات فاقول لا يخفى عليك مما تقدم ان درجة حرارة مركز الارض كبيرة جدا لا يقاومها شي ولو كان في غاية الصلابة فعلى هذا يلزم ان تكون جميع مواد الكون في ذلك الحين بخارية وان يكون حجمها وقتئذ قدر حجمها جامدة الفًا وثمانمائة مرة ولذلك قالوا ان حجمها كان قريبًا من حجم الشمس الذي هو قدر كرة الارض الغامرة ولكن بدوران المادة الارضية في الفضاء البارد المحيط بها من جميع جهاتها كانت تبرد بالتدريج الى ان انتقلت من الحالة البخارية الى حالة الميوعة ثم الى

الصورة الكروية التي يقبلها كل مائع وتوضيح ذلك يعلم من علم يقال له علم تحريك الاجسام

وحيث كان للارض بدورانها حول محورها حركة خاصة بها يترتب عليها تعاقب الليل والنهار كما هو مذكور عند اهل هذا العلم حصل لها وقت ان كانت سائلة من الانتفاخ والاستدارة ما يحصل لاي مائع دار حول محوره بان علت وانتفخت من وسطها وهو المنطقة المسماة بخط الاستواء وانبسطت وهبطت من طرفيها وهما المحلان المعروفان بالقطبين فتغير شكلها وبعد ان كانت بخارية صارت مائعة ولم توثر البرودة في جميع المواد بل منها ما بقي على حالته الاصلية فكان منه جو عظيم السعة له اشعة منتشرة في الفضاء يتحلل منها ابخرة الماء والمواد الارضية وانما لم تجمد لان حرارة الجو في ذلك الزمن كانت شديدة حافظة لبقائها على حالتها البخارية ولان ضغط الجو على الكرة في ذلك الزمن كان اقوى من ضغطه عليها الان لثقله بما فيه من الابخرة المائية والترابية والمعدنية فلم تجمد وتنزل لشدة الحرارة والضغط وقتئذٍ ولا شك في ان جميع ابخرة الجو كانت فوق بعضها على حسب ثقلها وخفتها فكان اثقلها اسفلها وهي الطبقة التي تلي الارض كالابخرة الحديدية والنحاسية والبلاتينية فكانت هذه الطبقة في غاية الثقل والكثافة وفوقها ابخرة المواد الاقل منها ثقلا وكثافة كابخرة الاملاح المعدنية والكبريتية والفسفور وفوق هذه الطبقة ابخرة المواد الهوائية الخفيفة الصافية

كبخار الماء والاوكسجين والازوت والاسيد كربونيك وهذه الابخرة كلها وان كانت متفاوتة ثقلا وخفة الا انها كانت دائمًا في تقلب واستحالة من حالة الى حالة فكان ينفصل منها تيارات وعواصف فتمزق ما جاورها من الطبقات وتنفذ منها فيكون لها عند ذلك رعد وبرق اعظم مما تسمعه الان وكذلك كرة الارض تتأثر من المواد التي في جوفها فيحدث فيها كذلك تيارات شديدة تدفع تلك المواد الى جهات مختلفة فيتولد منها ما يقال له الكهربائية فيكون لها عند ذلك من الرعد والبرق والاصوات المختلفة فوق ما تسمعه الان هذا ما كانت عليه الارض والجو في مبدأ امرهما وكانت الارض وما يحيط بها سائرة في مدارها في فضاء متسع محيط بها من سائر جهاتها وبسبب شدة برودة الفضاء التي كانت بحيث لا تنقص عن مائة درجة تحت الصفر كان كلما تقادم الزمن وقوي تأثيرها على الارض نقصت ميوعتها واخذ ظاهرها في الانجماد شيئًا فشيئًا ولم يجمد دفعة واحدة بل في نقط متفرقة وازمنة مختلفة ثم تجمعت واتصلت ببعضها حتى سترت الكرة الملتهبة ويظهر ان تلك الطبقة في ذلك الزمن كانت رقيقة جدا وان كان سمكها الان ثمانية واربعين الف متر لان نسبتها لنصف القطر كواحد من مائة وثلاثين فلرقتها كانت لا تقاوم المواد السائلة داخلها بل تنشق من بعض المواضع فيخرج من باطنها بعض مواد ترتفع الى الجو ثم تسقط وتجمد فتكون منها الجبال والعروق

التي توجد خلال الارض في كثير من المواضع كالنحاس والتوتيا والانتموان والرصاص وهذه العروق تارة تكون عمودية وتارة تكون مائلة وكثيراً ما تكون على غير انتظام وقد يتفرع من تلك العروق فروع ومن الفروع فروع اخرى الى ما لا نهاية له فمن ذلك يظهر ان السطح الظاهري للارض كان مختلفاً في الاتجاه والارتفاع والانخفاض والسعة والشكل والتضريس وبسبب استمرار التأثير الداخلي عليها كانت دائماً تتغير الى ان وصلت درجة برودة السطح حداً يمكن معه سقوط المواد البخارية من الجو على سطح الارض بصفة الميوعة انما لشدة حرارة الجو كان الماء الساقط منه وقتئذٍ شديد الحرارة ايضاً لان حرارته كانت مائة درجة فاذا نزل ووجد ظاهر الارض شديد الحرارة لم يستقر عليها بل يتصاعد ثانياً ويقطع طبقات الجو الى ان يصل الى الطبقة العليا ويحل في البرودة فيستحيل من الحالة البخارية الى الميوعة وينزل الى سطح الارض ثانياً في هيئة المطر فتحيله حرارة الارض الى بخار ويصعد في الجو ثانيا وهكذا كلما نزل ينقلب بخارا وكلما صعد ينقلب مائعا الى أن يبرد سطح الارض فيستقر عليها لان الماء كلما نزل ياخذ جزءاً من حرارتها فاذا برد سطحها استقر عليها ولم يستحل بخاراً ثم لم يزل يزداد حتى عم جميع الارض وتسلطن عليها وتمكن من حبس الحرارة في جوفها وان كانت في بعض الاوقات تتنفس بعض تنفسات فيتغير شكل ظاهرها ومن ذلك الوقت ابتدأت الارض في دور

جديد ومع تسلطن الماء على ظاهرها لم يزل الماء الذي في باطنها شديد الحرارة ولما كانت الطبقة العليا التي هي ظرف لظاهر الارض مركبة من السليس والانتيموان والبوتاسي والصودا وكانت هذه المواد تتأثر بتأثير الماء والهواء والحرارة حصل لها في تلك المدة استحالات اوجبت استقرارها في قرار البحار وصار ينفصل منها جواهر دقيقة كالرمل ومواد طينية ومن شدة جريان التيارات المائية كانت تأخذها معها الى مواضع فتتركها فيها فترسب فتتكوّن منها الارض التي تسمى بارض الرسوب ومن تأثر المواد الطينية بالحرارة ذابت وتجمعت فلما تعطلت الحرارة بردت فتكوّنت عنها الارض التي تسمى بالارض الشيستية اي ذات الصفائح التي منها الاردواز فمن ذلك يعلم ان الارض الطينية الاردوازية فوق الارض الطينية وان الارض في ذلك الزمن كانت عبارة عن جزيرة صغيرة يحيط بها ماء حار من كل جهة وان البحار كان بها طين كثير فرسب بازدياد البرودة وعظم به سمك الطبقة السطحية وان المواد الداخلة كانت تخرج منها فتكوّن جبالا وصخوراً صوانية وشستية وان البرودة كلما اثرت في الارض نقص حجمها وتمزق سطحها وخرج منها مواد سائلة فتجمد وتستحيل الى صخور ومياه ممزوجة بمواد وان هذه الحوادث تكررت مراراً كثيرة لا يعلم عددها الا خالقها ولهذا نجد في طبقات الارض الاولى وهي التي تكونت في الدور الاول عروقا صخرية متقاربة من بعضها وفي خلالها معادن مختلفة واما

الاثار الحيوانية والنباتية فلم يشاهد منها شي خلال الصخور التي امتحنت في الدور الاول ولذلك قالوا ان الارض كانت في تلك المدة مجردة عن النبات والحيوان وهذا هو الظاهر لان الحرارة كانت وقت ذاك شديدة والظلمة مطبقة لكثرة الابخرة المانعة من وصول حرارة الشمس الى الارض فلما تتابع نزول المطر وفتق طبقات الظلمة صفا الجو ودبت البرودة في الارض ووصلت اشعة الشمس اليها ومن ذلك الوقت اخذت في الظهور ولكون الحرارة لم تنعدم بالكلية لم يظهر في ابتداء الامر الاَّ بعض نبات وحيوانات بحرية محارية فكان كلما ضعفت الحرارة كثر النبات والحيوان فكان يظهر منها في كل دور جنس فيمكث ما شاء الله ثم غيره فيمكث كذلك وهكذا الى ان وصلت الحرارة حدًّا يمكن معه بقاء نوع الانسان فعند ذلك خلق الله النوع البشري واسكنه الارض ومتعه بجميع ما خلق قبله فيها

وقد وجد في الطبقة الطينية آثار حيوان ونبات فاستدلوا بهما على وجود هذين النوعين حين تكوين هذه الطبقة واجمعوا على ان اول ظهور الاجسام الحساسة اي الحيوان والنبات كان في الماء لانه هو الذي اودع فيه سر الحياة ثم اختلفوا في السابق منهما والظاهر انه النبات لان ما وجد من اثاره اكثر مما وجد من اثار الحيوان واني وان كنت اطلت عليك الكلام في هذا المقام فما تركته اكثر مما ذكرته ولعلك فهمت معتقد اهل هذا العلم في اصل تكوين

الكرة الارضية الى ان ظهر فيها اصناف المخلوقات واكتست بانواع الحيوان والنبات

ومن جملة معتقدهم قولهم ان سمك الطبقة التي تجمدت وحبست المواد السائلة ثمانية واربعون الف مترًا وان تكوينها لم يكن دفعة واحدة بل كان في اربعة ادوار

الدور الاول وجد فيه الصخر والصوان والسماق والثاني والثالث وجد فيهما باقي الاحجار والرابع وجدت فيه الارض التي كانت زمن الطوفان وهي التي نحن بها الان وطريقهم في ذلك كله الاستكشاف وما عثروا به في خلال الارض من المعادن والاحجار وآثار النبات والحيوان

فقال ابن الشيخ لعل هذا كله مبني على ما فهموا وان كان الواقع خلاف ما زعموا فان تدبير الكون وابرازه من عالم الخفاء الى عالم الشهود امر لا يحيط به الا القادر المتفرد بوحدة الوجود والذي يسعنا في مثل ذلك ان نجعله من جملة الممكن ونتباعد عن القطع فيه بشي مهما امكن ولكن لا بأس بعلم ما قيل في هذا الفن سواء المظنون منه والمتيقن لان معرفة مثل هذه الامور ربما تفيد العلم بحقيقة الكون في سابق الدهور فالمرجو من فضلكم استيفاء الكلام على ما قيل في هذه الادوار وكيف كان تقلبها الى ان وصلت الى الدور الذي وجد فيه الليل والنهار وعلى الارض كيف كانت ومتى كانت ومن اي شي تكوّنت وما الذي يتميز به كل دور

عن غيره ولا تؤاخذني فيما عودتني عليه من كثرة السوآل وطلبي منك الاطناب اذا شرعت في اي مجال لان بضاعتي في هذا المعنى قليلة ومدركتي لفهم مدركاتكم كليلة

فقال يعقوب لا مواخذة ولا لوم وهل توسمت مني شيئًا من ذلك في غير هذا اليوم وكيف يكون ذلك مني او يؤثر ما يشعر به عني ألست بمحسوبكم ولا شغل لي غير خدمة جنابكم وغاية ما اقول

هبوني امرءًا ان تحسنوا فهو شاكر
لذاك وإن لم تحسنوا فهو صافحُ

ولكن ارى الوقت لا يسع الكلام في هذا المعنى فقم بنا الى المجتمع لننظر ما فيه ولا بد ان نعود الى الكلام في هذا الشان حتى نستوفيه

المسامرة الحادية والتسعون

نادرة

وكان المكان الذي جلسا فيه قريبًا من الطريق ولكن لاستتاره بالشجر كانوا يرون الناس ولا يرونهم فلم يحصل لابن الشيخ ما كان يحصل له اذا مشى في طرق المدينة حيث كان لا يمر بطريق من طرقها الاّ رأى الناس قد احتاطوا به من كل جهة كما هي عادتهم اذا رأوا غير ابناء جنسهم او احدًا تزيى بغير زيهم ثم قاما ومشيا حتى بلغا المحل الذي عيناه للعربة وكانت واقفة بجوار فندق دخلاه واكلا فيه وشربا ثم خرجا وسارا الى الجهة التي قصداها فوجدا خلقا كثيرين مجتمعين في فسحة خارج البلد بها حوانيت من خشب تنقلها اصحابها وتذهب بها اي مذهب ووجدا بالفضاء المذكور زحاما كثيرًا فنزلا عن العربة ومشيا يطوفان من

جهة الى جهة فلم يجدا شيئًا يستغرب وتمنى ابن الشيخ ان لا يكون
الى ذاك المحل ذهب خصوصا لما رآه وسمعه مما يكدر خاطره وينفر
طبعه وخشي ان طال المقام ان يحصل له ما يؤذيه او يتغير قلب
والده عليه فقال ليعقوب ارحل بنا من هذا المكان فاني ما رأيت
احدا الاَّ وظننت انه شيطان فخرجا مسرعين فرأيا في الطريق محلا
على بابه مكتوب ما معناه من اراد ان يرى اغلظ امرأة على وجه
الارض واطول واقصر رجل كذلك فليدخل هذا المكان

فقال ابن الشيخ ليعقوب ادخل بنا هذا المكان لعلنا نجد فيه
شيئًا نتروح به وينسينا ما كان فوافقه ودخلاه فوجداه في غاية ما
يكون من الاتقان وفيه الكراسي كثيرة مصطفة فجلسا في ناحية منه
فنظرا الى صدر المجلس فوجداه خاليًا وبجانبه فرجة وعليها ستارة
واذا برجل امرد مهول الخلقة مفرط الطول يظهر عليه سن الشباب
قد خرج من خلف ستارة ومشى حتى توسط المحل ومعه رجل
يقول للحاضرين هذا الرجل من الهند وطوله يزيد عن مترين
فقام اليه اطول رجل من الحاضرين ووقف بجانبه فلم يبلغ ثدييه
فوقف برهة كاد أن يغشى بها عليه فاخذ بيده الرجل الذي كان
معه واجلسه لانه مع صغر سنه وطول قامته لم يكن فيه قوة للحركة
اصلا حتى لو دفعه اي انسان بيده لوقع على الارض ثم خرج
رجل اخر متناسب الاعضا رخيم الصوت طلق اللسان حسن العبارة
خفيف الروح لا يبلغ طوله هنداسة وله لحية فصار يتقصف

ويرقص ويصنع حركات غريبة ويفعل افعالا تدل على قوة عجيبة
ثم عمد الى فردة من جزمة الرجل الكبير الحجم فدخلها حتى غاب
عن اعين الناس ثم خرج منها وكان ذلك الرجل كلما خاطبه
احد فهم بادنى اشارة واجاب بافصح عبارة ثم جلس بجانب الرجل
الاول وخرجت امرأة لم يرَ اغلظ منها فاخذت تحرك كانها ترقص
وتترنم وتعاني خفة الحركة وغلظ الجسم يمنعها وتتكلف السرعة وثقل
البنية يدفعها فلما انفض الثلاثة من لعبهم خرج ابن الشيخ ويعقوب
فوجدا بالباب ازدحاما لم يرياه حين دخولها وقد احاط بهما خلق
كثيرون ممن كانوا داخل المحل وخارجه فلم ينفذا من بينهم الاّ
بغاية المشقة ثم سارا الى ان وصلا العربة فركباها فقال ابن الشيخ
ياعجبا لهذه الامة ويا ليت شعري ما اوجب انكبابهم هذا الانكباب
وازدحامهم علينا حين خروجنا من الباب

فقال يعقوب هكذا دأب الافرنج خصوصا الفرنساوية فان
لهم عنابة بكل ما يرونه مخالفًا لعوائدهم ولو رأوه الف مرة

فقال ابن الشيخ ويا ليتهم اقتصروا على النظر من بعد ولم تمتد
الى ثيابي منهم يد بل كان بعضهم يقبض عليها ويتأمل فيها وبعضهم
يقلبها ظهرًا لبطن كانه يشتريها فكنت اتغافل واغض بصري
واتجاهل خوفا من النزاع والخصومة

فقال يعقوب ان غالب ما رأيت من اهل الريف وسكان
البادية فتجد عقولهم قاصرة وحماقتهم من غير سبب ظاهرة وقد

احسنت فيما فعلت فانك لو خاطبتهم لم تأمن شرهم وربما كان يترتب على ذلك اكثر مما رأيت

فقال ابن الشيخ حاشَ ان يكون اهل ريف مصر كذلك فانك لا تراهم الا مشغولين بامر انفسهم ولو رأوا غريبًا ببلادهم ولو كان زيه مخالفا لزيهم لا يمعنون النظر اليه وان نظروا اليه نظروا نظر اختلاس بحيث لا يدركه الاّ قليل من الناس

فقال يعقوب هكذا اقتضت حكمة الملك الديان وانت تعلم انه ليس في الامكان ابدع مما كان أنسيت نصيحة والدك وهو آخذ بيدك ويقول لك يا بني ما نازعني احد في امرٍ الاّ اخذت في امره بثلاث ان كان فوقي عرفت له فضله وان كان دوني رفعت قدري عن منازعته وان كان مثلي تفضلت عليه فالاحسن ان تصفح صفح الكرام وان لا نضيع وقتنا في تتبع عثرات اولئك الاقوام فاخبرني عن اي الثلاثة الذين رأيتهم كان عندك اغرب

فقال ابن الشيخ اما بالنسبة لمن خلق الذر وفصل له اعضاء وجعل لبعض الدود اسنانا كالمقاريض بل امضى وخلق الانسان من نطفة ثم من علقة واخرج من جوف الصخرة الصماء اضعف حيوان ورزقه فلا غرابة ولا عجب

واما بالنسبة لعوائد الخلقة فالقصير احق بالاستغراب واولى لان الرجل الطويل وان كان غريبا في خلقته وطول قامته وعدم قوته لا يساوي الرجل القصير في ذلك فانه مع فصاحته وطلاقة

لسانه تراه قد بلغ من القصر الغاية ونحافة الجسم النهاية ولكن لا ادري هل هو من الفرنسيس ام من غيرهم وهل سنه على قدر جسمه ام لا

فقال يعقوب انك لو القيت بالك الى كلامه حين خروجه لعرفت منبته واصل لسانه وقدر عمره وما كان من امره فانه ذكر عند خروجه انه رجل من جزيرة بالبحر المحيط الجنوبي وان عمره تسع وثلاثون سنة وانه اقام ببلاد الانكليز وفرانسا مدة وساح باكثر بلاد اوربا ولذلك كان يتكلم مع كل انسان بلغته فقال ابن الشيخ ما اظن خلقًا بهذه الصفة الا ان يكون من ذرية ياجوج وماجوج فان منهم على ما قيل من طوله شبر ومن طوله شبران وغايته ثلاثة اشبار فقال يعقوب وما ياجوج وماجوج واين موضعهم من الارض فقال ابن الشيخ هم جيل من اولاد ادم وموضعهم خلف السد الذي بناه الاسكندر ذو القرنين وذلك انه لمّا وصل في سيره الى مغرب الشمس عند جبل ارمينية واذربيجان وجد هناك قومًا فشكوا له منهم وجعلوا له جعلا على ان يجعل بينهم وبين ياجوج وماجوج سدًا فضربه على احدى وعشرين قبيلة وبقيت منهم داخل السد قبيلة واحدة فقال يعقوب لا مانع من ذلك ولكن الذي اعلمه واطلعت عليه في كتب التاريخ ان اللابونيين والسمويد كلهم قصار ولعلها

خاصة في هواء قطرهم وطبيعة أرضهم وان الملوك في الزمن السابق كانت تتخذهم اضحوكة لهم ويغدقون على من اتى اليهم بواحد منهم حتى قيل ان اهل المشرق لما علموا ان سبب الرغبة فيهم حقارة جسمهم استعملوا طرقا تمنع الطول فكثروا فكان الرومانيون يجمعون منهم في اوقات سرورهم ويغرون بينهم حتى يقتل بعضهم بعضاً ثم عز وجودهم في القرون الوسطى وقد كانت الامراء تستعملهم في البريد لتوصيل الاخبار وذكر المؤرخون انه وجد في القرن السابع من الميلاد رجل لم يبلغ طوله ثلثي ذراع معماري فعندي ان كل مَن كان من هذا القبيل فهو من ذاك الجيل

---

*

المسامرة الثانية والتسعون

الجمعية المشرقية

وبينا هما في الحديث لم يشعرا الا وهما داخل المدينة فسارا حتى وصلا محل الشيخ فنزلا عن العربة ودخلا عليه فوجدا عنده صاحبه الانكليزي فبدأ ابن الشيخ بتقبيل يد والده ثم تحوّل للانكليزي فصافحه وقعد بجانبه وكان قد حان وقت ذهابهم الى منزل رئيس الجمعية فقال الانكليزي لابن الشيخ هيئ نفسك فانّا متوجهون هذه الساعة فقال ابن الشيخ ان اذن الوالد فسمعا وطاعة ثم انهم قاموا جميعا وركبوا العربة وسارت بهم حتى وصلوا منزل رئيس الجمعية فقابلهم بغاية الاحترام وحياهم تحية الكرام وكان بالمجلس جماعة من مشاهير العلماء ورجال الجمعية المشرقية ووجوه الامراء فاخذ رئيس الجمعية بيد الشيخ حتى اجلسه وقعد بجانبه

وآنسه وكان بالمجلس مع صاحبة المنزل نساء كثيرة فقعد الجميع
يتجاذبون اطراف الحديث الى ان حان وقت الطعام فقاموا جميعا
واخذ كل واحد منهم بيد امرأة وجاءت صاحبة المنزل الى الشيخ
واخذت بيده فتبعها ومشى معها حتى دخلت به محل الطعام
فجلست والشيخ عن يمينها وصاحبه الانكليزي عن يسارها وجلس
صاحب المنزل في الصف الثاني وابن الشيخ عن يمينه وجلس
الباقون في مواضعهم التي رسمت لهم فاكلوا ثم رجعوا الى محل
الجلوس كل ذلك وهم محتفون بالشيخ احتفاف الهالة بالقمر ومحتفلون
به احتفالهم بملك مطاع فيما امر وكان كل من خطر بباله شي يتعلق
بفن العربية تلطف في ابدائه فيجيبه الشيخ بجواب لا يحوم حوله من
عداه فيعجبون من بلاغة عبارته وعذوبة لفظه وجودة حفظه

المسامرة الثالثة والتسعون

الفرنسيس في مصر

وكان بالمجلس رجل فرنساوي ممن توجه مع نابليون الى مصر وشهد وقعته باهلها وانتشار رجاله في اعمالها واطلع على ما كان من امرائها قبل توجه الفرنسيس اليها فظهر للشيخ من اطراف كلام ذلك الرجل حبه للمصريين وميله للعائلة المحمدية فقال له اكنت بمصر ايام حوادثها مع الفرنسيس فقال وقبل ذلك ايضاً

فقال الشيخ اني لا اتحقق ذلك لصغر سني اذ ذاك وغاية ما اتخيله اني كنت ارى والدي في تلك الايام كل ما دخل وخرج يقول لوالدتي ماذا ترين في هذا الحرج العرب في البادية تنهب والمماليك تفسد وتخرب والفرنج في الطرق تقتل وتسلب فمن فر من قوم وقع في يد اخرين ونحو ذلك من الكلام الذي يخيف

الابطال ويزعج النساء والاطفال مع اني اعلم طبع المرحوم في تجلده وتجمده بين اهل بلده فما اضطره الى بث هذه الشكوى الا فظاعة ما رآه من عموم البلوى

فقال له ذلك الرجل لو بحثت عن اصل ذلك كلهِ لوجدته من المماليك الذين جعلوا مصر غنيمة لهم وقسموا ارضها وقراها بينهم فانهم كانوا يحزبون الاهالي والعرب علينا ويحذرونهم منا بقولهم انه لا غرض للفرنج من بلادكم الا سلب اموالكم وهتك اعراضكم وصرفكم عن دينكم ونحو ذلك من المنفرات مع ان الفرنج كانوا بريئين من ذلك كله لا غرض لهم الا اصلاح الحال وانقاذ الناس من ورطة هولاء الجهال فلو قدّر وبقينا بارض مصر الى الان لكان خيرًا لهم ولكن من سوء حظ المصريين انه حدث بقطرنا بعض حوادث ترتب عليها عود رئيسنا بونابرت الى البلاد فخرجنا منها بعد ان غذيناها بفلذ اكبادنا ورشحناها بدم اولادنا ومع ذلك فقد رسمنا لهم بها قوانين جليلة وآثارًا عامة النفع جميلة يرجى منها الخير ويتقى بها الضير كالترعة المالحة والحلوة والقناطر الخيرية والمطابع وتقسيم مصر الى اخطاط لكل خط حاكم وعسس يطوف فيه ليلا ونهارًا يمنعون الشرور واهل الفساد ويحثون على كنس الطرق والشوارع وتنظيفها ومن محاسن مبتدعاتنا الامر بتعليق قناديل على ابواب البيوت والوكايل والخانات فكان حكام الاخطاط يطوفون بالليل فاذا وجدوا بيتا او خانا ليس على بابه قنديل سمروهُ للمحافظة على

ما فيه فاذا طلع النهار اتوا بصاحبه فيجازونه على حسب ما يرون

ومنها انشاء اسبتاليه لعلاج المرضى جمع لها من الاطبا والادوية ما يلزم لكل داء وهي فيما بين القاهرة ومصر تسمونها بالقصر العيني ومنها الكورنتينات وتعيين محلاتها في كل مدينة وغير ذلك من الاعمال التي لو لم تشتغل بها افكارنا ما كانت خطرت لهم على بال لان شان المصريين بل سائر المشرقيين الاقتصار على حفظ القرآن ومعرفة بعض امور دينية يقفون عندها ولا يتعدون حدودها ولا يغوصون في معاني الكتب واسرارها وكذلك حكامهم وكان من يلي امرهم من المماليك ونحوهم لا همة لهم الاّ تحلية سروج الخيل والاكباب على الملاهي طول الليل ولبس السراويل الواسعة الذيل والاكثار من الخدم والغلمان واستتباع ذوي الوجوه الحسان وهذا كله ربما كان مانعا من تصرف العقل وزيادة الفكر خصوصا وهم مقتصرون في التفكر في القرآن على ما يظهر من مبانيه ما بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والحث على الزهد في الدنيا ولذتها والتحذير من التوسيع فيها والاغترار بزهرتها ونحو ذلك مما تخاف منه القلوب ويزهد من تامله في كل شي محبوب في الدنيا ومطلوب حتى يبيع الحاضر بالغائب ويعوّد نفسه على الرضى بكل ما حل بها من المصائب ويذهل عما فيه صلاح معاشه ويهجر اسباب ثروته وانتعاشه

فقال له الشيخ اما ما ذكرت من نسبة ما وقع بين المصريين

والفرنسيس للماليك فمن المعلوم ان المدافعة عن الوطن في ذلك الوقت كانت واجبة على العموم لا فرق فيها بين مالك ومملوك وشريف وصعلوك وعلى فرض ان الاهالي انما قاموا تبعا لراي حكامهم الذين هم امراؤهم فهل فعلوا غير ما يلزمهم

فقال الانكليزي ان ما يقول الشيخ حق فان ميل الانسان الى اهل ملته ودياتنه امر فطري ألا ترى ان اهل باريز لم يفتحوا ابواب المدينة للملك هنري الرابع الا بعد ان رجع عن المذهب البروتستاني الى مذهبهم مع انه من بيت الملك والجميع فرنساوي واصل الدين واحد

فقال الشيخ من هنا يعلم ان لا لوم على المصريين في امتناعهم من الخضوع للفرنساوية والدخول تحت طاعتهم بحسب الميل الطبيعي من عدم الرضى بحكم من خالفهم في الدين والجنس وترك من هم معهم على ملة واحدة وعوائدهم وقوانينهم في الاحكام متحدة

فقال له ذلك الرجل الشيخ كل ذلك معقول ومقبول الا ان الفرنسيس لما دخلوا مصر لم يحدثوا بين المسلمين بدعة على غير رأي امرائهم وعلمائهم بل ما فعلوا فعلا الا بمشورتهم واخذ رايهم كما يعلم ذلك من المنشورات التي عليها امارات رضاهم واستحسانهم فكانوا معينين لذلك جملة من أكابرهم اهل الحل والعقد منهم الشيخ خليل البكري نقيب الاشراف والشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد الامير

وغيرهم فبونابرت رئيس الجيوش مع علو همته وسعة باعه واطلاعه
وحسن اداربه وسياسته لم يستقل في مصر بارائه ولم يكل حكم
البلد الى امرائه بل انتخب جملة من كبار علماء المصريين واعيان
تجارها المعتبرين وفتح لهم دواوين وضم اليهم مترجمين ورتب لهم
مرتبات واغدق عليهم بالعلوفات وفوض الحكم اليهم وعوّل في
حل كل مشكلة عليهم وبالجملة لم يفعل ما يخل بشرفكم ولا ما
يضر بقطركم وانظر الى ما حصل منه لما تغلب على جزيرة مالطة
ووجد بها اسرى كثيرين من اهل الاسلام فانه اطلقهم وجهزهم
وارسلهم محفوظين الى بلادهم واعلن ان لا يؤخذ احد من اهل
الاسلام من بعدهم اسيرًا وقبل وصول جيشه الى مصر ارسل
يحذرهم عن الفساد والتعرض لشي مما بايدي اهل تلك البلاد
ويقول لهم ما معناه انكم ستدخلون مصر آمنين مظفرين منصورين
وتهزمون حكامها المتحدين مع الانكليز فقد قطعوا على تجارنا السبيل
وبالغوا في ظلم اهل وادي النيل واعلموا ان الامة التي تقصدونها
امة محمدية وكلمتهم التي ينبني عليها امر دينهم لا اله الا الله محمد
رسول الله فاياكم ان تغيروها عليهم او تصرفوهم عن قوانينهم وعليكم
ان تكرموا ائمتهم وقضاتهم ولا تحدثوا شيئًا في مساجدهم وجوامعهم
واعلموا ان عوائد بلادهم ليست كعوائد بلادكم فينبغي ان تستأنسوا
باهلها وتتطبعوا بطباعهم واياكم ان يدخل احد منكم دار احد او
يتعرض لامرأة فان ذلك عندهم منكر فمن فعل ذلك منكم حل به

البأس وعد من اراذل الناس واول بلدة تنزلون بها الاسكندرية وستجدون بها من اثار من اسسها ما يروق بالكم به ويقطع عن التعلق ببلادكم امالكم وما كفاه هذا التشديدوما انذرهم به من الوعيد بل صدر منه منشور بقتل من قطع السبيل من العسكر او فعل شيئًا من المنكر او غصب من احد شيئًا ولو درهما ثم جمع ضباط العساكر والالايات وضمنهم ذلك كله وهكذا كانت افعاله واقواله كلها فلم يكن مراده مجرد التغلب واشهار نفسه بالحرب بل كان جل غرضه وغاية امله ان يكون الناس كلهم في امان ورفاهية حال وان لا يتعرض احد لاحد في عرض ولا مال

وكان وصول بونابرت بجيوشه الى ثغر اسكندرية لخمسة عشر يومًا من المحرم سنة الف ومائتين وثلاثة عشر هجرية الموافق لشهر حزيران سنة الف وسبعمائة وثمانية وتسعين ميلادية فلما دخل اسكندرية جمع علمائها واعيانها وانتخب منهم سبعة قلدهم زمام الاحكام وما تحتاج اليه البلدة من النظام منهم الشيخ محمد المسيري والسيد محمد كريم وقال لهم على مقتضى الحرية لا يلي الحكم الاّ عقلاء الرعية لان جميع الخلق سواء في العدل والحكم بالحق وقبل خروجه من اسكندرية الى مصر عمل دستورًا يتضمن جميع ما مر وزيادة كما هو مبين في تاريخهم وكان قد احضر معه من الروسية مطابع تطبع باللغة الفرنساوية والعربية فطبع عدة فرمانات وفرقها بالديار المصرية ثم شرع في ترتيب دوان فجمع له ستين

شخصًا منهم اربعة عشر يقال لهم المجلس الخصوصي والباقون يقال لهم الديوان العمومي كل ذلك اظهارًا للعدل ورفقًا بالرعية

فقال الشيخ جميع هذا صحيح مسلم غير انه لا يخفى ان زمن الحروب عادة يكون زمن شدة على الناس وما يقع فيه من المصائب يكون غالبًا على غير رضى الروساء وقد تقع امور فظيعة توجب تنفير الطباع مثلا تخريب المساجد وانتهاك حرماتها وقهر العلماء وتحريم التجار كل ذلك قد وقع بمصر مدة هذه الحرب مع نهي بونابرت عنه فكان داعيا لنفرة الاهالي

واما كتابة المشائخ الى الاقاليم بالمسالمة فذلك امر واجب عليهم لحقن دماء الناس لما راوا من قيام العربان واهل الفساد وكثرة القتل والسلب والنهب وضرورة ان الاحكام كانت قد تغيرت والناس كانوا مضطربين لم يتعودوا على الحكم الجديد والتبس المفسد بالمصلح فقصد العلماء تسكين الفتن وحفظ الانفس والاموال وبالجملة فلم يكن للمصريين داع الى النفرة عن احكام الفرنسيس غير الحمية الدينية مع ما حصل من الشدائد التي جرت العادة بحصولها في زمن الحروب وتجديد الاحكام

ثم ان الرجل الفرنساوي انصرف من بينهم وقام كل في محل استراحته فقال ابن الشيخ لابيه قد استفدت من ذلك المجلس ان الفرنسيس سبق لهم انهم استولوا على مصر وما كنت اظن ذلك ولا خطر ببالي فقال يا بني قد استولوا عليها وحكموا فيها وامروا ونهوا

وفعلوا فيها الافاعيل لولا ان الله خلصها منهم فقال وما كانت احكامهم فيها وقوانينهم وكيف كانت وقائعهم في فتح البلاد وقهر العباد

فقال الشيخ يا بني اني كنت وقت حلول الجيش الفرنساوي بمصر صغيرًا لا اعي ما يقال ولا ما يفعل ولكني منذ هاجرت من بلدي الى مصر لطلب العلم كنت اسمع بما كان من الفرنسيس فكنت كلما سمعت عنهم شيئًا قيدته حتى جمعت من ذلك كتابا وجلدته

فمن احكامهم انهم ضربوا على الاملاك والعقار ضرائب فجعلوا على الاعلى ثمانية ريالات فرانسا والاوسط ستة والادنى ثلاثة

وضربوا على المعاصر والسيارج والوكائل والخانات فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين ومنها ما جعلوا عليه اربعين كل على حسبه وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ولصقوها في مفارق الطرق وارسلوا منها نسخًا للاعيان وعينوا المهندسين لتمييز الاعلى من الادنى وبالغوا في الضبط والاحصاء وتقييد الاسماء فضاق بالخلق الفضاء ومنهم من استسلم للقضاء ولم تتدبر العوام في العواقب فانتبذ منهم جماعة وتناجوا فيما بينهم ووافقهم من المتعممين من لم ينظر في عواقب الامور ولم يتفكر انه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم فقاموا متحزبين وعلى الجهاد عازمين وابرزوا السلاح والات الحرب والكفاح وهدموا مصاطب

الحوانيت وجعلوا احجارها متاريس في عدة جهات وتترسوا بها
فلما رأى الفرنسيس منهم ذلك تحيزوا الى القلاع وكان كبيرهم
ارسل الى المشائخ فلم يجيبوه فامر بضرب المدافع والبونبات على
البيوت والحارات وتعمدوا على الخصوص الجامع الازهر وحرروا
عليه المدافع والقنبر فلما سقط عليهم ذلك نادوا يا خفي الالطاف
نجّنا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع
الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان وهدمت الدور
وسقطت بعض القصور وخرب كثير من البيوت والوكائل وعظم
الخطب واشتد الكرب فركب المشائخ الى كبير الفرنسيس ليرفع
عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل فعاتبهم في التاخير
واتهمهم بالتقصير فاعتذروا له فقبل منهم ثم بعد هجعة من الليل
دخل الفرنسيس المدينة ومروا في الازقة والشوارع من غير معارض
ولا ممانع وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخلوا الجامع الازهر
بالنعال والسلاح وربطوا خيولهم بصحنه ومقصورته وكسروا
قناديله وسهارته وهشموا خزائن الخدمة والمجاورين واخذوا ما
وجدوه به من الكتب والمتاع بل طرحوا نفائس الكتب في
ميضأته واتلفوا الوفًا من مجلدات مؤلفاته ثم قرروا على الناس
فردة اخرى قدرها مائة وستة وثمانون الف ريال فرانسا مع ان
الناس ما أدوا الفردة الاولى حتى قاسوا فيها من الشدة ما لا يوصف
ومات اكثرهم في الحبوس وتحت العقوبة ومنهم من هرب وخرج

على وجهه فجعلوا على العقار والدور مائة الف ريال فرانسا وعلى ارباب الحرف المستورين ستين الفا وقسموا البلد ثمانية اخطاط وجعلوا على كل خط خمسة وعشرين الفا ووكلوا ذلك الى مشائخ الحارات ومن كان ساكنا بتلك الاخطاط من الامراء مثل المحتسب بجهة الحنفي وعمر شاه وسويقة السباعين وضرب الحجر ومثل زين الفقار جهة المشهد الحسيني وخان الخليلي والغورية والصنادقية والاشرفية ومثل حسن كاشف جهة الصليبة والخليفة وما في ضمن تلك الجهات من العطف فجعلوها على ثلاث نمر فعلى النمرة الاولى ستون ريالا وعلى الثانية اربعون وعلى الثالثة عشرون والزموا المستأجر بدفع مقدار ما يدفع المالك والدار التي لا يجدون لها صاحبا يأخذون ما عليها من جيرانها ثم نادوا ان كل من لا يدفع ما عليه بعد اثنين وثلاثين يومًا من المناداة تنهب داره ويحاط بموجوده وتتبعوا نهب الدور بادنى شبهة ولم يوجد لهم شفيع تقبل شفاعته ولا متكلم تسمع كلمته واحتجب كبير الفرنسيس عن الناس وامتنع من مقابلة المسلمين وكذلك قلده عظماؤهم وزاد ان عينوا لجمع تلك الاموال رجلا قبطيا يسمى شكر الله فنزل بالناس منه بلاء شديد فكان يمشي وصحبته عسكر من الفرنسيس وجماعة من الفعلة بايديهم آلة الهدم فاذا دخل دارًا ولم يدفع له صاحبها ما عليه امرهم بهدمها واقبح شي ما فعله باهل بولاق فانه كان يحبس الرجال مع النساء ويدخن عليهم بالقطن والكتان ثم فعل باهل مصر كذلك كل

ذلك في شهر واحد وفي اخره قاموا دفعة واحدة على جميع الخانات
والوكائل فختموا عليها ثم صاروا يفتحونها واحداً واحداً ويأخذون
ما فيها فيقوّمونه بابخس الاثمان فان بقي لهم شي من الغرامة اخذوه
من جاره وان زاد شي احالوا صاحبه على جاره وهكذا حتى اخلوا
جميع الخانات والوكائل من البضائع واخذوها واربابها ينظرون
وكانوا اذا فتحوا خانًا او دكانا ووجدوا به اشياء ثمينة او صرة فيها
دراهم او دنانير اخذها امناؤهم ووكلاؤهم بحضرة صاحبها وفي ذلك
الشهر بعينه حرروا دفاتر العشور فاحصوا جميع الاشياء جليلها
وحقيرها ورتبوها بدفاتر وجعلوها اقلاما يتقلد من يتعهد بدفع ما
وضع عليها وجعلوا جامع الازبك الذي بالازبكية سوقا للمزايدة
في تلك الاقلام فكان يجتمع الاثنان فاكثر في قلم واحد وربما
تعهد الشخص الواحد باقلام متعددة ثم شرعوا في هدم الحسينية وما
خرج عن باب الفتوح وباب النصر من الدروب والحارات
والمساجد والحمامات والحوانيت والاضرحة فكانوا اذا دهموا دارًا
لهدمها لا يمكنون اهلها من نقل ما بها ولا اخذ شي من انقاضها
فينهبونها ويهدمونها وينقلون الانقاض النافعة من البلاط والخشب
الى عماراتهم وابنيتهم وما بقي من كسارات الخشب تجعله الفعلة حزما
ويبيعونه على الناس باغلى ثمن لعزة حطب الوقود وقت ذاك
فتلف للناس من الاملاك والعقار ما لا يقدر قدره كل ذلك مع
مطالبتهم بما تقرر على املاكهم ودورهم من الفرضة فكان يجتمع على

الشخص الواحد في الوقت الواحد النهب والهدم والمطالبة بالفرضة وكان لهم في المطالبة بالفرضة امور قبيحة ولما قسموا الاخطاط على الامراء ومشائخ الحارات ضموا اليها اعوانا والزموا كل امير ومشائخ حارات خطه بما خصه من الغرامة فكانوا اول ما يجتمعون بديوانهم تبتدئ الكتبة بكتابة التنبيهات وهي اوراق صغيرة باسم الشخص والقدر الذي عليه وعلى عقاره وعلى هامش الورقة حق طريق الحامل لها ثم يدفعون الى كل واحد من اولئك الاعوان جملة من تلك الاوراق فلا يفتح الانسان عينه الاّ والمعين واقف على بابه وبيده ذلك التنبيه فيعده بالوفاء فاذا قبل عذره لا يفارقه حتى يأخذ منه حق الطريق وما يفارقه الا وقد اتاه معين اخر بتنبيه اخر فيفعل معه كما فعل الاول فاذا سعى الانسان جهده حتى ادى ما عليه وظن انه تخلص من ذلك فحالا يجد خلفه معينا اخر ومعه تنبيه جديد فيقول له ما هذا فيقول ان الفرضة لم تكمل وقد جعلنا على كل عشرة خمسة او ثلاثة او ما سوّلت لهم انفسهم وهكذا من الغرامات التي هي اشد من الدواهي

ومنها انهم قرروا على مشائخ البلاد مقررات يقومون بدفعها في كل سنة زيادة على الخراج وجعلوا البلاد اعلى وهي ما كان طينها الف فدان فاكثر واوسط وهي ما كان طينها من ٥٠٠ فدان الى ما دون الالف وادنى وهي ما كان طينها دون الخمسمائة فجعلوا على الاعلى خمسمائة ريال وعلى الاوسط ثلثمائة وعلى

الدون مائة وخمسين واستملوا اسماء البلاد والكفور من القبط فاملوها عليهم حتى الكفور التي خربت من مدة سنين فربما املوا اسماء من غير مسميات ثم امروا بتوزيع مليون على ارباب الصنائع والحرف وهو مائة وستة وثمانون الف ريال فرانسا وان يدفعوها على ثلاثة اقساط كل اربعة اشهر ثلثها

هذا أنموذج ما كان منهم بمصر

فقال ابنه وما منعك البارحة في مجلس المحاورة ان تذكر لهم هذه الافاعيل التي صدرت منهم

فقال الشيخ يا بني اي فائدة في ذكر ذلك الاّ المنافسة والمناقشة خصوصا ونحن بين اظهرهم وقد قالوا

ودارهم ما دمت في دارهم * وحيهم ما دمت في حيهم

وقيل ايضاً

ودارهم في دارهم وحيهم * في حيهم وأرضهم في ارضهم

لا سيما وهم عارفون بجميع ذلك فلا فائدة في حكايته الاّ تغير النفوس ومن يتأمل فيما كان يصدر منهم مما ظاهره العدل والاصلاح يجد انه لا يخلو من دسيسة ومكيدة لتحصيل اغراضهم مثلا اطلاقهم الاسارى المسلمين الذين وجدوهم بمالطة فانما هي مكيدة من مكائد الحرب وذلك انهم حين وصولهم الى ثغر الاسكندرية كتبوا كتبًا وارسلوها الى البلاد التي هم قادمون عليها تطمينا لهم لئلا يتنبهوا ويحاربوهم فاوهموهم انهم قادمون من قبل السلطان

وارسلوا هذه الكتب مع هولاء الاسارى وارسلوا بصحبتهم جواسيس من مالطة يعرفون اللغة العربية ويتكلمون بلغة المغاربة فلم يمتازوا عن اسارى المسلمين فلما وصلوا الى مصر صار الجواسيس الذين ارسلوهم يوسوسون للناس ويثبطونهم ويحلون عزائمهم عن القتال فكانت هذه ايضاً مكيدة من مكائد الحرب فلما قامت الحرب بين المسلمين والفرنسيس خفي اكثر الاسرى ولم يدر اين ذهبوا وما ذهبوا في الحقيقة الاَّ الى جيش الفرنسيس ليخبروهم بما سمعوه وما شاهدوه من المسلمين

ومن افاعيلهم انهم حبسوا بعض العلماء فما اطلقوهم حتى بلغهم مجيء الوزير الاعظم بجيوشه فخرجوا من غير منازعة ولا معارضة وعمل بينهم وبين الجيش العثماني والانكليزي شروط مفصلة هي وجميع وقائعهم بمصر في بطون التواريخ وقد انقضت تلك السنون واهلها وتلك الايام نداولها بين الناس هكذا عادة الله في خلقه لا معقب لحكمه ولم يطلعنا على حكمه فكم سلط اقواماً على اخرين كما دلت عليه كتب الاول وقد يسلط الفجار على الابرار وله في ذلك حكم واسرار وكان خروج الفرنسيس من ديار مصر في شهر الله المحرم سنة ١٢١٦

المسامرة الرابعة والتسعون

العقائد

وفي اليوم الثاني بعد طلوع الشمس دخل الانكليزي عند الشيخ وجلس بعد ان ادى واجبات التحية ثم قال ايها الشيخ قد عنّ لي من مجلس البارحة ان اسألك عن مسئلة خطرت ببالي فقال الشيخ ما هي فقال يؤخذ من الكلام السابق ان بين المسلمين والنصارى عداوة مع انا نسمع في كتابكم آية تدل على خلاف ذلك قال الشيخ اي آية قال لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى (الاية)

فقال الشيخ صدق الله العظيم في كلامه القديم فقد قال المفسرون كالفخر الرازي وغيره في تفسير هذه الاية ان مذهب

اليهود انه يجب عليهم ايصال الشر الى من يخالفهم في الدين باي طريق كان فان قدروا على القتل فذاك والاّ فبغصب المال او السرقة او بنوع من المكر والكيد والحيلة وقد روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال ما خلا يهوديان بمسلم الا همّا بقتله

واما النصارى فليس مذهبهم ذلك بل الايذاء في دينهم حرام كما في دين الاسلام وايضًا فان اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا كما هو مشاهد فيهم والحرص معدن الاخلاق الذميمة فان كل من كان حريصا على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا واقدم على ارتكاب كل محظور لطلب الدنيا فلا جرم ان تشتد عداوته لكل من نال مالا او جاها بخلاف النصارى فانهم في اكثر احوالهم معرضون عن الدنيا زاهدون فيها مقبلون على العبادة تاركون لحب الرئاسة والتكبر وكل من كان كذلك فلا يحسد الناس ولا يؤذيهم ولا يخاصمهم بل يكون لين العريكة سهل الانقياد للحق قريبًا الى قبوله كما قال تعالى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون الى اخر الآيات فهذا هو معنى مودتهم للمسلمين واما الديانة فالقدر مشترك بينهم وبين اليهود في مخالفة المسلمين بل اليهود يخالفون في الالهيات فقط والنصارى يخالفون في الالهيات والنبوات

فقال الانكليزي ان ما تقول ايها الشيخ حق فان النصارى كانت صفاتهم حميدة كما ذكرت لكن الان دخلت فيهم اضداد

تلك الصفات وتشعبت مذاهبهم واعتقاداتهم وجرت بينهم العداوة والبغضاء ولهم فلسفة قبيحة ومقالات شنيعة في الديانات والرسل والكتب السماوية

فقال الشيخ نعم يظهر بعض ذلك على وجه الرجل الفرنساوي الذي كان معنا البارحة

فقال الانكليزي هذا الرجل من ضمن الفلاسفة المتعمقين وله كتاب عمله في الاعتقادات وقد قرأت منه جملة وافرة فوجدته يذكر فيما يتعلق بالاديان ان جميع الملل مستمدة من منبع واحد وان بينها اشتراكا في القضايا الاساسية كالتوحيد فدين الاسلام مستمد من دين اليهود من حيث الاصول فقط بخلاف دين النصارى فمستمد من دين اليهود من حيث الاصول والفروع معًا فدين النصارى مبني على دين اليهودية كما تبنى الدور والقصور على قواعدها فينهدم دين النصرانية بعدم تمسكهم بكتب اليهود ومع ذلك فهو لا يعترف بوجود موسى بن عمران ويستدل على نفيه بعدم ذكره في كتب بني اسرائيل ويقول ان نبي الله داود وابنه سليمان وارميا واشعيا جميعا سكتوا عن ذكره واحكام بعضهم مناقض لاحكامه مثلا قول موسى ان الله يعاقب الابناء بظلم الاباء الى الجيل الرابع يخالفه قول حزقيل ان الابناء لا يعاقبون بظلم ابائهم ويقول ان ما يعزى الى موسى من الاحكام هو ما يعزوه الهنود الى نبي يسمى بخوس وجميع ما اثبت لموسى ثابت لبخوس فانه ولد بمصر

والقي في النيل وتربى في جبل ببلاد العرب واوحي اليه بالرسالة الى امة متبربرة وعبر البحر الاحمر بانفلاق البحر له ولم ينل قدمه واضاءت من جبينه اشعة الانوار الا ان بخوس لما ضرب بعصاه الارض لم تنبع عين ماء كما حصل لموسى في ضربه الحجر بل نبعت عين نبيذ وكانت عصاه ذات حربة مزينة باغصان العنب

وقد زعم علماء اوروبا ان بخوس سابق على تاريخ موسى فيمكن ان كلمة موسى جعلت علامة على امر كان في تلك الازمان كما استعملوا كلمة اوميروس الشاعر اليوناني في الجاهلية للدلالة على بعض الحوادث العظيمة

ويقول ان التوراة كتاب مؤلف وليس من الكتب السماوية متكئا في ذلك على قول ماري اغسطس انه لا يصح بقاء الاصحاحات الثلاثة الاولى على ما هي عليه وعلى قول اوريجين بان ما في التوراة مما يتعلق بخلق العالم امور خرافية بدليل ان كلمة براه العبرانية وهي بفتح الباء وشد الراء وسكون الهاء معناه رتب ونظم ولا يرتب احد شيئا وينظمه الا اذا كان موجودا من قبل فاستعمال هذه الكلمة في خلق العالم تقتضي ان مادة العالم كانت موجودة من قبل فتكون ازلية ويكون ملازمها وهو الزمان والمكان ازليين وحيث انهم قالوا ان المادة ذات حياة فتكون الروح ايضا ازلية لانها هي التي بهـا الحياة وبما ان المادة هي النور والحرارة والقوة والحركة والجذب والقوانين والتوازن فتكون الحياة والمادة كالشي

الواحد لا يمكن انفصالها وجميع ذلك يخالف ما في التوراة

ويقول ايضاً ان الستة الايام التي ذكرها موسى لخلق العالم هي الازمان الستة التي ذكرتها الهنود والجنبهارات الستة التي ذكرها زروطشت للمجوس وان الفردوس الذي كان فيه ادم انما هو بستان الهيسبريو الذي كان يخفره التنين وان ادم هو اديمو المذكور في ايزو. و يدام وان نوحا واهله هو الملك دوقاليون وزوجته بيرا وهكذا

ويبالغ في القدح في التوراة ويقول انها مبتدأة بقتل الاخ اخاه واغتصاب الفروج وتزوج ذوي الارحام بل البهائم وذكر النهب والسلب والقتل والزناء ونحو ذلك من الامور التي لا يليق ان تنسب لمن اصطفاه الله تعالى وجعله امينا على اسراره الالهية فانظر الى اجتراء هذا الرجل على نبي الله موسى عليه السلام وعلى كتاب الله التوراة مع ان التوراة هي اساس الانجيل فما يقال فيها يقال في الانجيل ولذلك يقولون ان رسالة عيسى قد نبهت عليها اليهود من قبل بقولهم انه سيجيء اليهم مسيح وكلمة مسيح ككلمة مسايس ومسايس لقب شريف باللغة العبرانية وقد لقب به اشعيا النبي كيروس ملك الفرس كما في الاصحاح الخامس والخمسين ولقب به ايضاً حزقيال النبي ملك مدينة صور ومع ذلك فلم يلتفت هذا الرجل الى شي من ذلك فقال ما قال ومن اعتقادات النصارى ايضاً ان الله تجسد في صورة عيسى وانه هو الاله وليسوا اول قائل

بهذا التجسد بل قيل قبلهم في جزاكا وبرهمة بقدس الهند وقيل في ويشنو انه تجسد خمسمائة مرة وقال سكان البيرو من امريكا ان الاله الحق تجسد في الههم منكر قباق بن الشمس وكذا سكان الاسكنديناوة قالوا ان الله تجسد في الههم اوْدين وان ولادة عيسى من بكر بتول بنفخ روح القدس يشبه قول اهل الصين ان الههم فوهِيْه ولدته بنت بكر حملت به من اشعة الشمس وكان المصريون يعتقدون ان اوزريس ولد من غير مباشرة احد لامه

وقول النصارى ان عيسى مات ودفن ثم بعث ورفع الى السماء حيًّا قال بمثله قبلهم المصريون في اوزريس المصري وفي اورونيس من اهالي فنيكية وفي اوتيس من اهالي فريجية الاَّ انهم لم يقولوا برفعه الى السماء وكما قيل ان اودين كان قد بذل نفسه وقتلها باختياره بان رمى نفسه في نار عظيمة حتى احترق وفعل ذلك لاجل نجاة عباده واحزابه فكذلك النصارى يعتقدون ان حلول الاله في عيسى وارساله وموته انما كان لاجل فداء الجنس البشري وتخليصه من ذنب الخطيئة الاولى خطيئة ادم وحواء واما ادريس النبي فقد رفع الى السماء بدون ان تكفر عنه الخطيئة ولا شك ان هذا خرافة ولهم كلام كثير من هذا القبيل يطول شرحه ولا فائدة في ذكره

فقال الشيخ نعوذ بالله من هذا الضلال الذي لا ينشأ مثله

عن عاقل ولكن من يضلل الله فلا هادي له ومن يهدي الله فما له من مضل

قال الانكليزي بل منهم من ينكر جميع الكتب السماوية ويقول انها من تأليف البشر جمع فيها مؤلفوها حوادث القرون الخالية

فقال الشيخ مثل هولاء القوم لا تجوز مجالستهم ولا معاملتهم ولا مخالطتهم فانهم ينكرون الرسل والكتب وينقصون الاله الحق سبحانه فالحمد لله الذي فصلنا عن ذلك الرجل بسلامة

ثم ان العربة وصلت بهم الى المحل فنزل الشيخ ودخل عند الخواجا وقال اريد ان اقف على ما يقول النصارى في نبي الله عيسى بن مريم وفي الاداب النصرانية فقال الخواجا ان اغلب النصارى يقولون ان العلماء الاولين مجمعون على ان شريعة عيسى ليست الاّ متممة لشريعة موسى وموضحة لما اشكل من احكامها حتى قال بعضهم ان عيسى والحواريين كانوا يهودا واستدلوا على ذلك بما نقل عن الحواري بولص انه ختن تلميذه تيموته في مدينة ليسترة وحث الرومانيين على الختان وانه قال لهم ان اليهودي الحق من كان يهوديا باطنا وظاهرًا وبقول الحواري جاك (يعقوب) للحواري بولص كما في الباب التاسع عشر من كتاب اعمال الحواريين فلتعرف جميع الناس انك على شريعة موسى وبقول بولص لغوسطس في الباب الخامس والعشرين من ذلك الكتاب اني لم

يحصل مني ما يخالف شريعة موسى ولا قوانين النصرانية فهذا اصل دينهم واعتقاد حواريهم ومتقدمي علمائهم فلم يقل احد منهم بألوهية عيسى ويدل على ذلك ما نقله بعضهم عن ماري بولص انه قال في الباب الخامس من رسالته الى الرومانيين ان نعمة الله قد نشرت علينا من الاحسان الموهوب لانسان واحد وهو عيسى المسيح وقال في الباب الثامن من هذه الرسالة نحن شركاء المسيح في وراثة احكام الله

وقال في رسالته للفليبيين تخلقوا باخلاق عيسى فانه كان على صورة الرحمن ولم يطمع قط في مساواته وقال ايضاً لاهل افسوس في الباب الاول من هذه الرسالة اللهمّ ربنا ورب المسيح عيسى جد علينا بعقل الحكمة وللعبريين في الباب الثاني انكم قد صيرتم عيسى اقل من الملك بيسير وكذلك بما قاله اوربيوس أسقف مدينة قيصرية في الباب الاول من تاريخ امناء دين النصرانية انه لا يعقل ان الوجود يعني وجود الله يحل في صورة بشرية ونحو ذلك من العبارات المنسوبة الى الحواريين واتباعهم المومنين فلم يقل احد منهم بألوهية عيسى ولا خطرت له على بال

فقال الشيخ هذا هو كلام العقلا ولعل هولاء هم الذين مدحهم الله في كتابه وشبه بهم بينا بعض اصحابه

واما تهوّدهم في الدين فلعلهم ارادوا الرجوع الى الحق واليقين وهذا شي لا محذور فيه اذا عرفوا معناها وعملوا بمقتضاها

فقال الانكليزي الاّ انهم بعد موته بثلثمائة وخمس وعشرين سنة شمسية دبّ فيهم القول بألوهيته وذلك ان قسطنطين الاول جمع روساء الديانة في مدينة نيقه وحملهم على القول بها فاتبعوه الا ثمانية عشر اسقفا فلم يتحولوا عن اعتقادهم ثم بعد ذلك باربع وثلثين سنة اجتمع روساء الديانة ثانيًا بمدينة ريميني وتكلموا في هذا المعني فاتفق منهم اربعمائة أسقف على عدم الوهيته واتبعهم الباقون ومكثوا على ذلك نحو اثنتين وعشرين سنة ثم اجتمعوا مرة ثالثة بمدينة القسطنطينية سنة ٣٣١ ميلادية فاستقر راي الجمعية على الوهيته وبقي الحال على ذلك الى اليوم

فقال الشيخ هذه امور لا نستطيع الموافقة عليها ولا شك انه كان وقتئذٍ لرؤساء النصارى آراب ومقاصد في تقريرها ولو تاملوا اوفى تامل لرأوا الادلة ناطقة بان الله تعالى واحد احد يستحيل عليه الحلول والاتحاد والتعدد ومشابهة خلقه في امر من الامور وهو حي لا يموت وقادر لا يعجز لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وانما عيسى عبد من عبيده خلقه بقدرته التامة من غير اب كما خلق آدم من تراب من غير اب ولا ام وافاض عليه النبوة والرسالة وقد انطقه الله بالحق وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركا اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا ويوم القيامة يتبرأ منهم ومن مقالتهم هذه فيقول سبحانك ما يكون لي ان

اقول ما ليس لي بحق ثم يقول ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم

وبالجملة فبطلان هذا المذهب واضح للعيان ومستغنٍ عن البيان وما احسن ما قاله البوصيري في همزيته تبكيتا لهم وتنكيتا عليهم فمن ذلك قوله

أاله مركب ما سمعنا * باله لذاته اجزاء

الى ان قال

أهو الراكب الحمار فياو يح اله يمسه الاعياء

فقال الانكليزي وما الذي ترونه يا معشر المسلمين في امر عيسى

فقال الشيخ ان الذي يلزم اعتقاده في امر عيسى على ما أخبر به نبينا الصادق المصدوق في القرآن والسنة انه ابن مريم بنت عمران واسم امها حنة فكانت حنة لا تلد فنذرت ان رزقها الله ولدًا جعلته من سدنَةِ بيت المقدس اي خدمته فحملت حنة ومات زوجها عمران وهي حامل فولدت بنتاً وسمتها مريم ومعناها بلغتهم العابدة ثم حملتها واتت بها الى بيت المقدس ووضعتها عند الاحبار وقالت لهم دونكم هذه المنذورة فتنافسوا في تربيتها لان اباها وهو عمران كان من ائمتهم فقال زكريا انا احق بها لان خالتها زوجتي فاخذها وضمها الى ايساع خالتها فلما كبرت مريم افرد لها زكريا غرفة فلما بلغت من العمر ثلاثة عشر سنة ارسل الله تعالى جبريل

فنفخ في جيبها فحبلت بعيسى وولدته ببيت لحم وهي قرية قريبة من القدس سنة ٣٠٤ من تاريخ الاسكندر فلما جاءت مريم الى قومها بعيسى تحمله قالوا لها لقد جئت شيئًا فريا واخذوا ليرجموها فتكلم عيسى وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركا اينما كنت فلما سمعوا كلامه تركوها ثم ان مريم اخذت عيسى وسارت به الى مصر فاقامت به أثنتي عشرة سنة ثم عادت به الى الشام ونزلا الناصرة وبها سميت النصارى فاقام بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله تعالى اليه فسار الى الاردن وهو النهر المسمى بنهر الشريعة فاغتسل فيه وابتدأ بالدعوة وهو ابن ثلاثين سنة لستة ايام خلت من كانون الثاني لمضي ثلاث وثلاثين وثلثمائة للاسكندر

واظهر عيسى عليه السلام المعجزات فاحيى ميتا يقال له عازر بعد ثلاثة ايام من موته وجعل من الطين طائرًا قيل هو الخفاش وابرأ الاكمه والابرص وكان يمشي على الماء ويلبس الصوف والشعر ويأكل من نبات الارض وانزل الله عليه المائدة وسبب نزولها ان الحواريين الذين اتبعوه وكانوا اثنى عشر رجلا قالوا له هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء فسأل عيسى ربه عز وجل فانزل عليه سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها فنزلت وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين ايديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ثم قال لهم

يقم احسنكم عملا يكشف عنها فقال شمعون رأس الحواريين انت
اولى بذلك فقام عيسى وتوضأ وصلى وكان عليها منديل فرفعه
وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية تسيل دما وعند
راسها ملح وعند ذنبها خل وحولها الوان البقول ما خلا الكراث
ومعها خمسة ارغفة على واحد زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث
سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون ياروح الله
أ من طعام الدنيا ام من طعام الاخرة فقال ليس منهما ولكنه شي
خلقه الله بقدرته فقال الحواريون ياروح الله لو اريتنا من هذه
الآية آية اخرى فقال يا سمكة احيي باذن الله فاضطربت ثم قال
لها عودي كما كنتِ فعادت مشوية ثم رفعت المائدة وقيل مكثت
تنزل يوما وتغيب يوما الى اربعين ليلة

فقال الانكليزي ان اليهود يزعمون انهم قتلوه وبعد قتله
صلبوه

فقال الشيخ كذبوا والله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم
وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع
الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه ليزيده شرفا لديه وذلك
انه لما اعلمه الله انه سيرفعه اليه دعا الحواريين وصنع لهم طعاما وقال
لهم احضروني الليلة فان لي اليكم حاجة فلما اجتمعوا عشاهم وقام
بخدمتهم فلما فرغوا من الطعام اخذ يغسل ايديهم ويمسحها بثيابه
فتعاظموا ذلك فقال من رد عليّ شيئًا مما اصنعه فليس مني فتركوه

حتى فرغ ثم قال لهم انما فعلت هذا بكم ليكون لكم اسوة بي في خدمة بعضكم بعضا واما حاجتي اليكم فتدعون الله لي ان يؤخر اجلي فلما نصبوا انفسهم للدعاء اخذهم النوم فجعل عيسى يوقظهم ويقول ما تصبرون لي ليلة فقالوا ما ندري ما لنا لقد كنا نسمر فنطيل السمر وما نقدر عليه الليلة فقال يذهب بالراعي وتفترق الغنم وليكفرن بي احدكم قبل ان يصيح الديك وليبيعني احدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني

وكانت اليهود قد جدت في طلبه فذهب رجل من الحواريين اسمه تطليانوس الى فيلاطوس الملقب هيرودوس وكان رئيسا على اليهود اذ ذاك وقال ما تجعلون لي اذا ادللتكم على المسيح فجعلوا له ثلثين درهما فاخذها وذهب بهم ليدلهم عليه فرفع الله عيسى اليه والقى شبهه على الذي دلهم عليه فاخذوه وربطوه وجعلوا يقودونه بحبل ويقولون له انت تزعم انك تحيي الموتى أفلا تخلص نفسك ثم قتلوه وصلبوه

وبين رفع عيسى ومولد النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة وخمس واربعون سنة وعاشت مريم امه نحو ثلاث وخمسين سنة لانها حملت به وهي بنت ثلاث عشرة سنة وعاشت معه ثلثا وثلثين سنة وبقيت بعد رفعه ست سنين أفمن كانت العبودية من صفاته والاكل والشرب من ضروراته يعقل انه اله او يتصور انه ابن الله مع اجماع جميع العقلا على عدم الوهيته واتفاق جمهور الفلاسفة

والحكماء على عبوديته واظن ان ضرر الخلق على العموم انما يأتي لهم من قبل من تصدى من غير استعداد لنشر العلوم ممن قال منهم بحلول الوجود المطلق فيما عداه وبنى على هذا القول الخطاء ما بناه فقال ان الانسان اشرف انواع الحيوان فهو اولى بالحلول واستنتج من ذلك ان الاله اتحد بالصورة البشرية وهو اعتقاد فاسد ورأي عن الصواب حائد لا يقبله عقل ولا يساعده نقل وايضاً لا يلزم على القول بالحلول الذي زعموه بالنسبة لعيسى ان يقال الانسان اله او الاله انسان هذه نتيجة هذا الزعم الغريب الظاهر الفساد لعقلاء العباد

ومن الغريب تقدم الاوروباويين في كثير من الفنون والصنائع مع بقائهم على هذا الاعتقاد الفاسد فلعل المانع لهم من رفضه ما يسمونه بالبوليتيقة فلولاها لم يبقَ له عندهم اثر بالكلية واغرب من هذا كله قدحهم في الاسلام واهله مع عدم معرفتهم بشي منه من اصله اذ لو تاملوا الاشارات القرآنية وما ورد من الاثار النبوية لعثروا بالتمدن الذي يطلبونه وقد حرموه واهتدوا الى ميزان العدل الذي يحاولونه وما اقاموه ولعل الحامل لعلمائهم على استمرار هذا الرأي بينهم رغبتهم في بقاء الباباوية التي معناها السلطنة على جميع اهل الارض لانهم يزعمون ان البابا نائب عن الاله الذي يدعونه فاين هذا من دين الاسلام المبني على ان الله واحد في ذاته وفي صفاته وفي افعاله واحد لا من قلة وموجود لا من علة لا يحيط به

مكان ولا يشتمل عليه زمان ليس منفصلا عن شي ولا ينفصل عنه شي ولا يحل في شي وليس مثله شي وهو الخالق لكل شي الغني عن كل شي ارسل محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون فعم بدعوته المشارق والمغارب ولم يفرق في امره ونهيه بين الاجانب والاقارب لتقوم الحجة وتضح المحجة وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة فمنهم من اهتدى واجاب ومنهم من ضرب بينه وبين الهداية حجاب ليميز الخبيث من الطيب واهل الجنة من اهل جهنم وكل ذلك لحكم واسرار هو بها اعلم وهكذا كان في كل امة خلت رسول يدعوهم الى الله واعتقاد ان لا اله سواه كما ارشدنا الى ذلك القرآن العظيم المنزل على عبده ورسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم

فقال الانكليزي هل عندكم علم بعدد الانبياء والرسل

فقال الشيخ نعم الآن ما يجب علينا معرفته على التفصيل خمسة وعشرون رسولا وهم المذكورون في التنزيل وجمعهم بعضهم في قوله

حتم على كل ذي التكليف معرفة

بانبياء على التفصيل قد علموا

في تلك حجتنا منهم ثمانية

من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

ادريس هود شعيب صالح وكذا

ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومنهم اولو العزم خمسة جمعهم بعضهم في قوله

محمد ابرهيم موسى كليمه

وادم عيسى هم اولو العزم فاعلم

فعيسى عليه السلام من اولي العزم لصبره على اذى قومه ورئيسهم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه مبين ومصدق لما قبله من كتب الله تعالى

وقد اخترع النصارى اشياء لم يخبرنا عنها كتابنا وذلك كالتعميد الذي تنسبه النصارى الى عيسى بن مريم فما هو وما سببه وما وجه نسبته اليه

فقال الانكليزي التعميد هو الغسل وذلك انهم يغمسون اولادهم في ماء المعمودية يعتقدون تطهيرهم به كالختان لغيرهم ويامرون كل من اراد ان يدخل في دينهم بالاغتسال فيه

واما نسبته الى عيسى فلم يثبت انه عمد احدا في حياته ولا امر احدا به وهذا التعميد وان اشتهرت نسبته اليهم لم يكن خاصا بهم بل كانت الهنود من قبلهم يغتسلون في نهر الكنك وكذلك قدماء المصريين كان كل من اراد منهم ان يتلقى اسرار (ماري متراس) يعمد الى نهر او بئر فيغتسل فيه وليس ذلك اول شي اختلقوه اذ منه قولهم فيمن اذنب انه لا تقبل توبته حتى يعترف

للقسيس بخطيئته اذ لم يثبت ان عيسى الزم احدًا بالاقرار له بذنبه بل هذه عادة جارية من عهد ايزيس احد الهة المصريين وغيره من الهة اليونانيين وكذلك اليهود كانت معتادة على الاعتراف بذنوبهم لاحبارهم

واما الاعتراف بالقضاء والقدر والجنة والنار فاول من تكلم في ذلك سقراط وتبعه افلاطون فقسم الارواح الى طاهرة وغير طاهرة وقسم غير الطاهرة الى ما يمكن تطهيرها بالنار وما لا يمكن تطهيرها اصلا

واما التثليث الذي تقولون به فانه ما اتاهم الاّ من كلام افلاطون التابع فيه لتيمة احد علماء لوتريس ثم سرى منه الى من بعده حتى وصل الى اليهود وهم الذين لقنوه للنصارى وكذلك زي اهل التدين والجثي على الركب ووضع القسيسين ايديهم على رؤس الناس وقرأتهم بعض كلمات للتبرك بها كل ذلك كان موجودا عند قدماء المصريين

ومن جملة دعوى النصارى قولهم ان الحكمة لم يتكلم بها احد قبلهم مع انه قد سبقهم الى الكلام عليها سقراط وكنفوشيوس وانطونين وارسطو ويوسيد وغيرهم وكذلك الفلاسفة الاسطوانيون اي الذين كانوا بالاسطوانة وهي مدرسة زينون الفيلسوف فكل هولا كانوا قبلهم وقد تكلموا بها وحملوا الخلق عليها حتى صناعة تركيب الالفاظ وتاليف الكلام وكان الرومانيون قبلهم يعاقبون على

الزناء وكذلك كان للسياسيين قوانين في عقاب كل من ارتكب ذنبًا او خطيئة او تكلم بما لا ينبغي فكل هولاء كانوا جميعًا في زمن لا يدرون فيه ما النصرانية ولا اهلها وكذلك قولهم بالعفو عن المسيء فانه قد سبقهم اليه ايضًا فيثاغورس وكان قبل المسيح بنحو ستمائة سنة حيث قال ما معناه لا تجتهدوا في الانتقام من اعدائكم بل اجتهدوا في ان تصيروهم من احبابكم وكذلك قولهم لا تفعلوا مع غيركم ما لا تحبون ان يفعل بكم فان زروطشت قال مثل ذلك وقد كان قبل حرب تروادة بدهر طويل حيث قال افعل مع غيرك ما تحب ان يفعل معك واذا شككت في قبح شي او حسنه فامسك عنه وكذلك قال كنفوشيوس مثل ذلك وكان قبل المسيح بخمسمائة وخمسين سنة وكله ماخوذ من كلام هونغ حيث قال ما معناه انسَ المسي واسأته ولا تتفكر الا في الطيبات وفعل الخيرات

وقال سينبق اذا اردت ان يكون الله راضيا عنك فكن عادلا وكفى بالمرء تعظيما لله ان يتبع اوامره

وقال سليمان عليه السلام اول الحكمة مخافة الله فاذا علمنا ذلك ظهر لنا ان النصرانية لم تأتِ بشي كان معدوما عند من قبلها الا ان عندهم امرين لا افهم سرهما ولم اجد احدا من قدماء المؤرخين قالهما

فقال الشيخ وما هما فقال انهم ياكلون فطيرًا يسمونه قربانا

ويعتقدون انه لحم المسيح ويشربون شرابا يسمونه اذكارًا يعتقدون انه دمه

فقال الشيخ ان دين النصرانية ليس مذمومًا في الاصل بل هو شريعة من شرائع الله تعالى وكذلك دين اليهودية ولما جاء الاسلام نسخ جميع الشرائع ثم ان اكابر النصارى في القديم غيّروا في دينهم وبدلوا وحرفوا فقد عرض له البطلان من جهتين من جهة نسخه بالشريعة المحمدية ومن جهة التغيير والتبديل الذي وقع فيه من علماء الديانة

فقال الانكليزي نعم جرت العادة بان صلاح الامم وفسادها انما يكونان بصلاح الروساء وفسادهم وعندنا روساء الديانة كثيرون ولكل منهم اغراض يريد تحصيلها وترى لهم حثًا شديدا على التبرك بالصليب وتقريب القرابين ونحو ذلك لكن لا يخلو ذلك عن الاغراض

فقال الشيخ اني اراك تتعقبهم في امور كثيرة وذلك من انصافك وشدة نظرك وكان ابن الشيخ مصغيا فقال ما معنى الصليب وما معنى القربان وما الفرق بين الكنيسة والدير ونحو ذلك

فقال الشيخ لقد رأيت في بعض الكتب كثيرًا من عوائدهم وعقائدهم وعرفت معابدهم ومراتب روسائهم فمن ذلك ان اصل تبرك النصارى بالصليب وهو شي ذو خطوط اربعة يجمع اصلها المحور انهم اعتقدوا ان الذي اخذته اليهود وصلبته هو المسيح وان

صلبه كان على شي بهذه الصفة وانهم سقوه الخمر في حنك الخنزير
فلما قام حرض على حمل الصليب وان القربان رغيف مستدير
عليه صلبان كثيرة يخبز في كل بيت كل يوم احد من الصوم الكبير
ويحمل الى الكنيسة فاذا فرغت الصلاة اخذ القسيس بعضه وفرق
بعضه فتنصرف به النصارى فيفطرون عليه كل يوم الى الجمعة
وهكذا وان من اسماء روسائهم الجاثليق وهو الرئيس بالنسبة الى
السلطنة الظاهرة ومنها المطران وهو الفقيه الورع المستصحب للبس
الصوف الاسود واصل هذا الترتيب عندهم ان القاريء للانجيل
من اول وهلة يقال له شماس فان اتقن حفظه وفهمه صار قسيسًا
ويدوم على ذلك ما دام عنده زوجة فان ماتت زوجته ولم يتزوج
غيرها صار مطرانا وان تزوج غيرها سمي سالخ القسوسية وخرج عن
مراتب العلم فان تنزه المطران عن الذفر وما يخرج من الارواح
صار بتركا على مذهب الارمن واما الروم واليعاقبة والنسطورية
فلا يكون عندهم بتركا الا من تنزه عن النساء وعن اكل الارواح
وما يخرج منها من اول عمره الا العسل والسمك لانه خليفة
المسيح وطاعة هولاء فرض واما الاسقف والراهب وغيرها فاسماء
للمتعبدين خاصة

واما المعابد فالبيعة هي المعبد الصغير غير المرتفع والدير المعبد
الكبير الكثير المرافق والمحاريب والكنيسة ما اشتملت على عواميد
الاناجيل ولم يرفع بناؤها والصومعة مكان رفيع دقيق الاعلى واسع

الاسفل والقلة مثلها الا انها لا تسع اكثر من واحد والزنار منطقة تشد في الخصر وقت الصلاة مشتملة على صليب اذا شدت كان على السرة ولولا ان كلامنا في ذلك يشبه الفضول مع وجود اهل ملتهم لزدتك كثيرًا من امور ديانتهم

فقال الانكليزي وهل كتب المسلمين اكثر من كتب الفرنج اني لا اظن ذلك فان للفرنج تأليف عديدة في فنون شتى وقد اطلعوا على كثير من كتب المسلمين ومارسوها حتى تفسير القرآن وصحيح البخاري ومتن خليل وغير ذلك

فقال الشيخ اسرار الكتب لا توخذ الاَّ عن اهلها الذين تلقوها مسلسلة واحدًا بعد واحد الى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك ليس حاصلا الاّ في علماء الاسلام الذين استنارت بصائرهم فادركوا معاني الكتب واسرارها نعم قد فرط علماء المسلمين في هذه الازمان في فنون شتى حتى جهلوها واتقنها غيرهم كفن التاريخ والرياضيات ونحو ذلك فلو انهم التفتوا لذلك واتقنوه لانقادت لهم جميع الامم ومعلوم ان العلم على اقسام علم للاخرة وعلم للدنيا وعلم لهما معا فلو اتقنوا جميع العلوم لكان خيرًا لهم ومع ذلك فعلماء الدين هم الممدوحون المثني عليهم في كتب الله تعالى وعلى لسان رسله وكفى العلم واهله شرفا قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقوله تعالى فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقول النبي صلى الله عليه وسلم مثل

العلماء في الارض كمثل النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر
وقوله فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم وقوله ان الملائكة
لتضع اجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع وقوله ما اكتسب
مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه الى هدىً ويرده عن ردىً
ولكن للعلم حقوق واداب لو ذكرت لك بعضها لوقعت في العجب
العجاب منها قوله صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل ما لم
يخالطوا السلطان او يداخلوا الدنيا وبالجملة فمن اطلع على اخبار
المتقدمين وما كتب فيها من حين ظهور هذا الدين وجد ان لا
نور لعلم الاّ والقرآن مصباحه ولا مطلب لمعرفة الاّ وهو مفتاحه
فهو الذي نشر راية العز على جميع العلوم والمعارف واستظلت بظل
لوائه غرائب الفنون واللطائف اذ بظهوره زالت من القلوب الاحن
وانقطعت من بين الناس اسباب الفتن لجريانه على قانون مقبول
قد تلقته القلوب السليمة بالقبول ومن تتبع احكام الملل وتامل في
قوانين الاول وجد ان لا موجب للنزاع على الاطلاق الاّ ما فرق
بين اليهود والنصارى من الاختلاف والشقاق فان فرق النصارى
متشعبة جداً مع شدة بغض بعضهم لبعض فضلا عن بغض اليهود
لجميع فرق النصارى وبالعكس حتى قالت اليهود ليست النصارى
على شي وقالت النصارى ليست اليهود على شي وقد جاء القرآن
فيه تبيان كل شي وهدى ورحمة وليس في احكامه اختلاف ولا
تناقض

فقال الانكليزي أليس عندكم مذاهب مختلفة كمذهب مالك والشافعي والحنفي والحنبلي والليث والثوري وغير ذلك فضلا عن اختلاف اهل كل مذهب في مسائل مذهبهم

فقال الشيخ كلهم من رسول الله ملتمس ليس بينهم تباين كلي بل احكامهم كفروع الشجرة التي اصلها واحد

فقال الانكليزي فما بال مساجدكم لا تحلونها ولا تزينونها كما تحلى كنائس النصارى وبيع اليهود

فقال الشيخ قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن زخرفة المساجد لئلا تلهي المصلي عن الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى ومع ذلك فهي في غاية الاحترام فلا يدخل فيها احد بالنجاسة ولا القاذورات ولا يتكلم فيها بلغو الحديث ولا يدخلها جنب ولا حائض ولا نفساء ولا يشهر فيها السلاح ولا ترفع فيها الاصوات ولو بالعلم فهي مع احترامها وتعظيمها لا تليق زخرفتها ولا تشييدها لان المقصود فيها التذلل والخشوع ولذلك ورد ابنوا مساجدكم جمًّا يعني بلا شراريف وابنوا مدائنكم مشرفة وكان موضع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قبورًا للمشركين وخربًا ونخلا فامر بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطع فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضائده الحجارة وقال اجعلوه كعريش موسى وكانت تصل الايدي الى سقفه ولما ولي عمر ابن الخطاب الخلافة وامر بتجديده قال للقيم على العمارة اكنّ الناس من الشمس والمطر

وإياك ان تحمّر او تصفر فتفتتن الناس فاذا فرغت من العمارة فاجعل فيه القناديل الاَّ انه صلى الله عليه وسلم كان يامر بتطييب المساجد وتنظيفها وتجميرها وصيانتها من الروائح الكريهة ويقول ان المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة في النار ويقول جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وصناعكم وبيعكم وشرائكم وخصوماتكم ورفع اصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم ولا تتخذوها سوقا ولا طريقًا ولا تمروا فيها بلحم نيئ

فقال الانكليزي اني ارى لجميع كلامك حلاوة وطلاوة ولا يمل من سماعه ولا يسأم من استرجاعه وقد ذكرت جملة من احكام الاسلام كالصلاة والزكاة فهل لك ان تفيدني عنها شيئًا

فقال اما الصلاة فهي قربة ذات احرام وسلام او سلام فقط وهي افضل الاعمال بعد الشهادتين وهي عروس العبادات اي تشبه العرس في اشتمالها على القرآن والدعا والذكر والتسبيح والتحميد والركوع والسجود والخشوع والوقوف بين يدي الله تعالى وغير ذلك من العبادات الكثيرة في عبادة واحدة كما ان العرس يشتمل على اصناف المآكل والالعاب والفرح والزينة والنزاهة ولها شروط صحة وشروط وجوب واركان وسنن وفضائل

واما الزكاة فهي مال مخصوص يؤخذ من مال مخصوص اذا بلغ قدرًا مخصوصا في زمن مخصوص ويصرف في جهات مخصوصة

فقال الانكليزي وما ذلك قال اما المال المخصوص المأخوذ

فهو ربع العشر في العين الذهب والفضة والعشر كاملا في الحبوب اذا سقيت بالسيح ونصف العشر ان سقيت بالآلات وشاة واحدة في اربعين شاة الى اخر ما هو مفصل في محله واما المال المخصوص الماخوذ منه فهو العين والحرث والماشية واما القدر المخصوص فهو النصاب وهو عشرون دينارًا في الذهب ومائتا درهم في الفضة وخمسة اوسق في الحبوب الى اخر ما هو مفصل واما الزمن المخصوص فهو الحول او مجيئ الساعي في الماشية او طيب الحبوب واما الجهات المخصوصة فهي الاصناف الثمانية المذكورة في الاية انما الصدقات للفقراء الخ وشرعة الزكاة لتطهير الاموال والانفس ولها شروط واركان واداب يطول شرحها منها انها تخرج من جنس المال المزكى فلا يجزيء جنس عن غيره ولا رديئ عن جيد ولا سقيم عن سليم قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وقال تعالى يا ايها الذين امنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون.

واما الصوم فهو الامساك عما يصل الى الجوف او الرأس من قبيل الفجر الى غروب الشمس وله شروط واركان وآداب ومن فضائله انه يضعف الشهوة ويهذب الخلق ويصفي الباطن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اي قاطع ولم يجب منه في كل سنة الاّ شهر واحد وهو شهر رمضان ولا يقوم

صوم غيره مقامه ويحرم عندنا صوم خمسة ايام من كل سنة وهي يوم عيد الفطر ويوم عيد الاضحى والثلاثة التي بعده وتسمى ايام التشريق ومن حكمه مشروعية التشبه بالملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام فينبغي فيه العزلة عن الناس والاشتغال بالقرآن والصلاة والاذكار ومن ادابه تعجيل الفطر وتأخير السحور ومنها الافطار على وتر من الرطب او التمر وما احسن ما قيل في ذلك

فطور التمر سنه

رسول الله سنه

ينال الاجر عبد

يحلي منه سنه

ولا ينبغي ان يجعل شهر فكاهة ولعب

واما الحج فهو قصد بيت الله الحرام لاداء فريضة الاسلام ولا يجب الاّ مرة واحدة في العمر ومحل وجوبه ما لم يمنع من ذلك مانع كفقر او انقطاع طريق او مرض او عدم رفيق قال تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرة الشيخ ان الله لا مكان له فلم خصت هذه العبادة بهذا المكان دون غيره

فقال الشيخ هكذا اقتضت الحكمة الازلية والارادة الربانية قال بعضهم

اني اطلعت على البقاع وجدتها
تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وقد روي ان الله تعالى لما اهبط ادم من الجنة قال له اني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى حول عرشي فلما كان زمن الطوفان رفع فكان الانبياء يحجون ولا يعلمون مكانه فلما بوأه الله لابراهيم بناه من خمسة اجبل حراء وثبير ولبنان وجبل الطير وجبل الخير وكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية وهيهات ان يساوي الخلق بين دار بناؤها لبن التراب والتبين ودار بناؤها لبن العسجد واللجين ففرق بين مدينة اكثر عمارتها الشهوات ومدينة عمارتها الآيات البينات فقد يجد الانسان قلبه في مكان اكثر مما يجده في غيره وذلك ليس للاجرّ والتراب بل للاجر والثواب او مجالسة الاتراب كما قال

اقبّل ارضًا سار فيها جِمالها * فكيف بدارٍ دار فيها جمالها

وقد طاف بهذا البيت مائة واربعة وعشرون الفًا من الانبياء سوى ما لا يعلمه الا الله من الملائكة والاولياء فهو البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت وله سر الاولية وقد اثنى عليه ذو العزة والجبروت قال تعالى ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدىً للعالمين فيه آيات بينات مقام ابرهيم ومن دخله كان امنًا وقال صلى الله عليه وسلم خير بلدة على وجه الارض

واحبها الى الله مكة الى غير ذلك من الاثار الدالة على فضلها فوالله لولا العوائق الشاغلة لبسطت لك متون اياتها ونشرت عليك فنون دلالاتها وكان قد حان وقت القيام فاستأذن الشيخ وقام وهو يكرر هذا الكلام

يا رحمة الله للعبادِ * اودعك الله في الجمادِ

يا بيت ربي يا نور قلبي * يا قرة العين يا مرادي

يا كعبة الله يا حياتي * يا منهج السعد يا رشادي

---

*

المسامرة الخامسة والتسعون

نوادر

ثم دخل مخدعه ونام حتى الصباح فافاق فدخل عليه ابنه فقال له اين كانت غيبتك وفيما انقضت ليلتك قال له كنت مع يعقوب والخواجا الطلياني في غرفة بجواركم فوجدنا بها كثيرًا من رجال ونساء وفيهن صاحبة المنزل وهي التي اخذتني واجلستني بجوارها والذي اخرني الى هذا الوقت اني رأيت بعضهم يحاجي بعضا بمسائل معماة منها ما كنت افهمه ومنها ما لم اتعقل معناه فقال له والده هل بقي منها في ذهنك شي قال نعم من ذلك ان احدهم قال لثلاثة ممن كان هناك لياخذ كل واحد منكم ورقة اي من الاوراق المعدة للهو واللعب بشرط ان لا تزيد نقطها المرسومة عليها عن تسع فاخذ كل واحد ورقة ثم قال لمن اخذ اولا ضعّف عدد

نقط ورقتك ثم اسقط من المجموع واحدا واضرب الباقي في خمسة
ثم زد على المجموع خمسة ثم اضف الى الجميع رقم ورقة الشخص
الثاني ثم ضعف الحاصل واسقط منه واحدا او اضرب الباقي في
خمسة ثم اضف الى الجميع رقم ورقة الشخص الثالث ففعل كما
قال ثم قال له فما قدر المجموع فقال كذا فقال حينئذٍ يكون
لكل واحد من الثلاثة بقدر عدد النقط الذي كان على ورقته
فعجبنا من ذلك فلما رأى الطلياني تعجبي قال لا عجب لان ورقة
الاول كان عليها ثلاث نقط وورقة الثاني اربع والثالث سبع
فباسقاط واحد من ستة التي هي ضعف الثلاثة صار الباقي خمسة
وبضربه في خمسة صار الحاصل خمسة وعشرين وبزيادة خمسة
يكون الحاصل ثلاثين وباضافة رقم الثاني عليه وهو اربعة يكون
الحاصل اربعة وثلاثين فاذا ضعفته صار ثمانية وستين فاذا اسقطت
واحدا بقي سبعة وستون فاذا ضربته في خمسة كان المجموع ثلاثمائة
وخمسة وثلاثين وبزيادة خمسة يكون المجموع ثلثمائة واربعين فاذا
ضم عليه رقم ورقة الثالث وهو سبعة بلغ ثلثمائة وسبعة واربعين
فلو تاملت ذلك لوجدته مركبا من الارقام التي على الاوراق
الثلاثة

ومنها ان احدهم مد يده الى الطاولة واخذ ثلاثة اوراق وقال
لي اختر في سرك واحدة منها ففعلت ثم وضع الثلاث على الطاولة
بعضها فوق بعض واخذ ثلاثًا اخرى وعرضها على النساء اللاتي

كن معنا فاختارت احداهن واحدة منها ثم وضع الاوراق الثلاث
بعضها فوق بعض ايضًا بجذاء الثلاث الاول ثم اخذ ثلاثا اخرى
وفعل فيها كما فعل فيما قبلها ثم سألني عن ورقتي في اي صف
هي فاشرت اليه فاخبرني بها ثم سأل كل ست عن ورقتها في
اي صف فاشارت اليه فاخبرها بها من غير ان يخطئ ثم فرق
الثلاث الاولى بعضها بجذاء بعض ثم فرق الثلاث الثانية بجعل
كل ورقة منها على كل ورقة من الثلاث الاولى وكذلك فعل
بالثلاث الثالثة فعجبت لذلك فقال يعقوب لا تعجب فان الورقة
الاولى تكون في الصف الاسفل والورقة الثانية تكون في الصف
الاوسط والورقة الثالثة تكون في الصف الاعلى ثم قال لي يعقوب
واغرب من ذلك اننا لو فرضنا جميع الورق ستًا وثلاثين وقسمناها
ثلاثة اقسام كل واحد منها اثنتا عشرة ورقة وجعلنا ورق كل
قسم متحاذيا ثم قلنا لانسان اختر في نفسك ورقة من اي قسم
اردت واردنا معرفة هذه الورقة من غير ان نسأل عنها لامكن
ذلك من غير صعوبة ثم قام واخذ الورق الذي كان موجودا
وقسمه كما قال ثم قال لي اختر في سرك ورقة فاخترت من الصف
الوسط فجمع ورقه ووضعه بين اوراق الصفين الاخرين بعد جمع
كل منهما كذلك ثم اخذ الورقة العلياء وجعلها مبدأ صفٍ ثم
الثانية وجعلها مبدأ صف اخر ثم الثالثة كذلك ثم اخذ الرابعة
فوضعها فوق الاولى والخامسة فوق الثانية ثم السادسة فوق الثالثة

وهكذا حتى جعل الورق ثلاثة اقسام ثم سألني عن الصف الذي فيه الورقة التي اخترتها فاشرت له اليه فجمع ورقه ووضعه بين الصفين ثم وزعه كما فعل في الاول ثم سألني عن الصف الذي هي فيه فاخبرته به فقال حينئذٍ هي في النصف من هذا الصف فكان كما قال

فلما فهم من كان هنالك ان ليعقوب دراية بمثل هذه الاحاجي سألوه ان يبدي لهم شيئًا مما عنده منها فابدى لغزًا على دستة الورق التي عددها أثنان وخمسون ورقة وقال لاحدى النساء خذي اي ورقة شئتِ فاخذت ورقة على غير مرأى منه ثم ضم اليه الباقي وبعد برهة بيّن لها العدد الموجود في ورقتها ثم عرض الورق ثانيًا عليهن فاخذت احداهن ورقتين حيث أنفق كما امر ثم قال لها خذي لكل ورقة اوراقا حتى تكمل ارقامها خمسًا وعشرين نقطة يعني ان كانت نقط احدى الورقتين ستا تاخذ تسع عشر ورقة وإن كانت تسعًا تاخذ ست عشر فاخذت كما قال ثم جمع ما بقي من الورق فكان سبعة عشر فقال لها نقط الورقتين سبعة عشر فكان كما قال فدهشوا من حذقه وشدة فطنته خصوصا الشاب الذي كان يلعب اولا حتى انه طلب منه ان يعلمه ما اشكل عليه من احاجيه فاجابه الى ما طلب ثم لما علمنا قيامكم قمنا فدخلت محلنا ومعي يعقوب فاراني من ذلك امورًا كثيرة ووعدني بغيرها فسألته عن الشكل الاول وكيف عرف الرقم

الذي على الورقة التي كانت اخذتها المرأة من غير ان يسألها عنه فقال لي طريقة معرفة ذلك ان تجمع جميع ارقام الورق وتجعل الخادم مثلا منها مقدرًا باحد عشر والبنت باثنى عشر والباباز بثلاثة عشر ثم تجمع رقم الورقة الاولى على الثانية والحاصل على الثالثة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاسقطها منه واضف الباقي الى رقم الورقة الرابعة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاسقطها منه كما تقدم ولا يلزم ان تعد رقم الباباز لانه ثلاثة عشر وهكذا الى ان تنتهي الى عدد منه تعلم الورق الناقصة ورقمها مثلا اذا كان الباقي الاخير احد عشر دل على الخادم وان كان اثنى عشر دل على البنت وان كان صفرا دل على الباباز فلو فرض ان عدد الورق كان اثنين وثلثين فطريق معرفتها هي طريق الاثنين وخمسين بعينها لكن الاسقاط يكون عشرة عشرة لا ثلاثة عشر فاذا وصلت الى الورقة الاخيرة تضم على الحاصل اربعة فان كان اقل من عشرة فاطرحه منها فان الباقي يكون عدد رقم الورقة المأخوذة وان كان الباقي اكثر من عشرة فاطرحه من عشرين فيكون الباقي عدد تلك الورقة فان كان الباقي اثنين دل على الخادم وان كان ثلاثة دل على البنت وان كان اربعة دل على الباباز ثم قال لي واذا فرضنا ان احد الحاضرين اخذ ثلاث اوراق واردنا معرفة حاصل اعدادها فطريقة ذلك ان ناخذ دستة ورق من اوراق اللعب يكون عدد ورقها يقبل القسمة اثلاثا

بان تكون ستا وثلثين مثلا ثم نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث خذ لكل ورقة قدرًا من الورق يبلغ بالرقم الذي على الورقة احد عشر فاذا فرض ان رقم احدى الورقات التي اخذها تسعة ياخذ لها ورقتين وان الثانية سبعة ياخذ لها اربعا وان الثالثة ستة ياخذ لها خمسا فيكون مجموع الورق المأخوذ في هذا المثال اربعة عشر والباقي اثنين وعشرين وهو جملة ارقام الورقات الثلاث الماخوذة اولا

ولنا في حلها طريقة اخرى وهي ان نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث اسقط في سرك رقم كل ورقة من اثنى عشر واجمع البواقي الثلاث ثم نستعلم منه عن الحاصل ونسقطه من عدد ورق اللعب وهو ستة وثلاثون فيكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب مثلا اذا كان رقم ورقة تسعة وورقة سبعة وورقة ستة كان باقي الاولى ثلاثة وباقي الثانية خمسة وباقي الثالثة ستة ومجموع هذه البواقي اربعة عشر فاذا اسقطناه من عدد الورق وهو ستة وثلاثون كان الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب ولو كان عدد الورق اكثر من ستة وثلاثين بان كان اثنين وخمسين مثلا واردنا معرفة ارقام الاوراق الثلاث استعملنا عددا اكثر من عشرة واقل من سبعة عشر الذي هو ثلث الاثنين وخمسين بعد الكسر كخمسة عشر ثم نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث خذ لكل ورقة ورقا من اوراق اللعب حتى يتم رقم الورقة بالورق الماخوذ خمسة عشر كان يأخذ

في المثال ستة للورقة التي رقمها تسعة وثمانية للتي رقمها سبعة وتسعة للتي رقمها ستة فمجموع الاوراق الماخوذة وهو ستة وثمانية وتسعة ثلاثة وعشرون تضم الى الثلاث المأخوذة اولا فيكون الحاصل ستة وعشرون والباقي ستة وعشرين نطرح منه اربعة فرق ما بين اصل عدد الورق وهو اثنان وخمسون وبين ثلاثة امثال العدد المستعمل وهو خمسة عشر مضافا عليه ثلاثة اي ثمانية واربعون يكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب وهناك طريقة عامة اي سواء كان ورق اللعب اثنين وخمسين او ستة وثلاثين وسواء كان في كل من الحالتين كاملا او ناقصاً وسواء كان العدد المستعمل خمسة عشر او ثلاثة عشر او اربعة عشر او ستة عشر وسواء كان عدد الورق المأخوذ ثلاثة او اربعة او غير ذلك

وهي ان تضرب العدد الذي استعملته في عدد الورق الماخوذ وتضيف الى الحاصل عدد الورقات المأخوذة ثم تسقط الحاصل من عدد ورق اللعب المستعمل اي من اثنين وخمسين ان كان عدده مركبًا من اثنين وخمسين ومن ستة وثلثين ان كان مركبًا من ستة وثلثين فيكون الباقي هو العدد اللازم اسقاطه من الورق الذي يكون باقيًا من ورق اللعب وباقي الطرح هو المطلوب مثلاً اذا فرض ان المأخوذ اربع ورقات وان رقم احداها ثلاثة والثانية خمسة والثالثة سبعة والرابعة عشرة وفرض ان العدد المختار احد عشر يضرب احد عشر في اربعة يكون الحاصل اربعة واربعين

يضم عليه اربعة فيصير ثمانية واربعين تطرحه من اثنين وخمسين يكون الباقي اربعة تطرحها من تسعة وعشرين فيكون الباقي خمسة وعشرين وهو مجموع ارقام الاوراق الاربع المأخوذة ورقم تسعة وعشرين السابق هو الورق الذي بقي من ورق اللعب بعد تكميل كل ورقة من الورق الماخوذ احد عشر كما مر لانا ناخذ للاولى ثمانية وللثانية ستة وللثالثة اربعة وللرابعة واحدا ومجموع ذلك تسعة عشر فاذا اضفنا له الاربعة التي اخذت كان الحاصل ثلاثة وعشرين اذا طرحناها من اثنين وخمسين كان الباقي تسعة وعشرين كما ذكرنا

وهناك دقيقتان ينبغي التنبه لهما الاولى ما اذا فرض ان ارقام الاوراق الاربع مثلا كانت واحدا وثلاثة واربعة وسبعة وفرض ان العدد المختار اثنى عشر فيلزم على قياس ما مر ان نضرب اثنى عشر في اربعة يكون الحاصل ثمانية واربعين ونضم عليه اربعة عدد الاوراق يحصل اثنين وخمسين وهو قدر عدد ورق اللعب فحينئذٍ يكون الفرق بينهما صفرا ففي هذه الحالة وما ماثلها يكون الورق الباقي بعد المأخوذ هو مجموع ارقام الاوراق الاربع المأخوذة وبيانه انه اذا اخذ للورقة الاولى احدى عشر ورقة لتكميل العدد اثنى عشر واخذ للثانية تسعة وللثالثة ثمانية وللرابعة خمسة ومجموع ذلك ثلاثة وثلاثون فاذا اضيف له اربعة وهو عدد الورق الماخوذ يكون سبعة وثلاثين فاذا طرحنه من عدد الورق الذي هو اثنان

وخمسون فان الباقي يكون خمسة عشر وهو ارقام الورقات الاربع المأخوذة

والثانية ما لو فرضنا ان المأخوذ ثلاث ورقات من ورق عدده ستة وثلاثون وكانت ارقام الثلاث المأخوذة اربعة وسبعة وتسعة والعدد المختار خمسة عشر فعلى قياس ما مر نضرب خمسة عشر في ثلاثة يكون الحاصل خمسة واربعين نضم له ثلاثة يكون ثمانية واربعين وهو اكثر من عدد ورق اللعب ففي هذه الحالة نسقط الاصغر وهو ستة وثلاثون من الاكبر وهو ثمانية واربعون فيكون الباقي اثنى عشر نضيفه الى الورق الباقي بعد المأخوذ فيكون حاصل الجمع هو ارقام الورقات الثلاث المأخوذة ففي هذا المثال لاجل تكميل ارقام كل ورقة خمسة عشر ناخذ للاولى احد عشر وللثانية ثمانية وللثالثة ستة وحاصل الثلاث خمسة وعشرون وباضافة الورقات الثلاث يكون الحاصل ثمانية وعشرين نسقطه من عدد ستة وثلاثين الذي هو ورق اللعب يكون الباقي ثمانية نضيف له الاثنى عشر وهو الفضل بين الستة والثلاثين والثمانية والاربعين فيكون الحاصل عشرين وهو ارقام الاوراق الثلاث

وقد تطرأ دقيقة ثالثة وهي ما لو فرض ان ارقام الورقات الثلاث اثنان وثلاثة واربعة وكان العدد المختار خمسة عشر وعدد الورق ستة وثلاثين ففي هذه الحالة يلزم لاجل تكميل رقم الورقة الاولى ان ناخذ لها ثلاثة عشر وللثانية اثنى عشر وللثالثة احد

عشر ومجموع ذلك ستة وثلاثون يضم له عدد الورقات الثلاث فيكون تسعة وثلاثين وهو اكثر من عدد ورق اللعب بقدر ثلاثة ففي مثل هذه الحالة تسقط ثلاثة من اثنى عشر التي هي الفرق ما بين ثمانية واربعين وستة وثلاثين فيكون الباقي تسعة وهو ارقام الورقات الثلاث وهكذا

فقال الشيخ لا باس بهذه المعاياه لما فيها من توسيع العقل والاعانة على معرفة الحساب ويقرب من ذلك ما سمعته في صغري وهو ما لو فرضنا ان انسانا معه ثلاثة اوعية احدها يسع ثمانية ارطال والثاني خمسة والثالث ثلاثة وكان الكبير مملوا والاثنان الباقيان فارغين واردنا ان نضع نصف ما فيه في الاناء الوسط فيلزم

اولا ان نملاه من الكبير فتكون فيه خمسة وفي الكبير ثلاثة

ثانيًا نملأ الصغير من الوسط فيكون حينئذٍ في الصغير ثلاثة وفي الوسط اثنان وفي الكبير ثلاثة

ثالثًا نضع ما في الاصغر على ما في الاكبر فيكون في الوسط اثنان وفي الكبير ستة والصغير فارغا

رابعًا نضع ما في الوسط في الاصغر فيكون فيه اثنان وفي الكبير ستة والوسط فارغا

خامسًا نملأ الوسط من الكبير فيبقى فيه واحد والاصغر اثنان والوسط خمسة

سادسا حيث وصلنا لهذا الحد نكمل الاناء الصغير مما في الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط اربعة وفي الكبير واحد فحينئذٍ قد انقسم الزيت كما هو المطلوب

فقال ابن الشيخ لو اردنا بقاء نصف الزيت في الاناء الكبير كيف نفعل

فقال الشيخ نملأ الصغير اولا فيكون فيه ثلاثة وفي الكبير خمسة

ثانيًا ننقل ما في الصغير في الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي الكبير خمسة

ثالثًا نملأ الصغير من الكبير فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط ثلاثة وفي الكبير اثنان

رابعًا نكمل الوسط من الصغير فيكون فيه واحد وفي الوسط خمسة وفي الكبير اثنان

خامسًا نضع ما في الوسط في الكبير فيكون في الصغير واحد وفي الكبير سبعة

سادسا نضع ما في الصغير في الوسط فيكون فيه واحد وفي الكبير سبعة والصغير فارغا

سابعًا نملأ الصغير من الكبير فيكون في الصغير ثلاثة وفي الوسط واحد وفي الكبير اربعة وهو المراد

ثم قال لو فرضنا ان الاناء الكبير يسع اثنى عشر رطلا واردنا

انفصال النصف لنعطيه لبعض الناس ولم يكن معنا الا اناآن اخران احدها يسع سبعة ارطال والاخر خمسة فطريق العمل هكذا

ثملأ الصغير اولا فيكون فيه خمسة ويبقى في الكبير سبعة

ثانيًا ننقل ما في الصغير الى الوسط فيكون فيه خمسة وفي الكبير سبعة

ثالثًا نملأ الوسط من الكبير فيكون في الصغير خمسة وفي الوسط خمسة وفي الكبير اثنان

رابعًا نكمل الوسط من الصغير فيكون في الصغير ثلاثة وفي الوسط سبعة وفي الكبير اثنان

خامسًا نضع ما في الوسط في الكبير وما في الصغير في الوسط فيكون في الوسط ثلاثة وفي الكبير تسعة

سادسًا نملأ الصغير من الكبير والوسط من الصغير فحينئذٍ يكون في الصغير واحد وفي الوسط سبعة وفي الكبير اربعة

سابعًا ننقل ما في الوسط للكبير وما في الصغير للوسط فيكون في الوسط واحد وفي الكبير احد عشر

ثامنًا نكمل الوسط من الكبير فيكون في الوسط ستة وفي الكبير ستة وهو المطلوب

وبيناها على هذا الحال واذا يعقوب قد دخل فقال له الشيخ اني اتبعت طريقتك ونهجت محجلك وان لم ابلغ في ذلك درجتك وقد القيت على ولدي بعض امثال تقرب مما كنتما فيه

هذه الليلة وحكى له مسألة تقسيم الزيت في الاواني الثلاثة

فقال يعقوب هذه المسألة مثل ما اذا كان المراد تقسيم واحد وعشرين برميلا ثلثها مملو من المائع وثلثها فارغ والثلث الثالث على النصف على ثلاثة كل واحد ثلثها وثلث المائع

فقال ابن الشيخ ياخذ كل واحد سبعة فقال يعقوب هذا ظاهر اذا كانت البراميل كلها فارغة او مملوة او متساوية المقادير وفرض المسألة ليس شيئًا من ذلك ولو تاملت لعرفت حلها لان عدد سبعة يمكن تحليله الى ثلاثة اعداد وهي اثنان واثنان وثلاثة وكل من هذه الاعداد تحل به المسئلة فنعطي مثلا للاول اثنين مملوئين واثنين فارغين وثلاثة على النصف

وللثاني اثنين مملوين واثنين فارغين وثلاثة على النصف

وللثالث ثلاثة مملوة وثلاثة فارغة وواحدًا منصفا وبهذه الكيفية يكون مع كل واحد من الثلاثة قدر ما مع الاخر من البراميل والمائع

ويمكن حلها بطريق اخر وهو ان يعطى للاول ثلاثة ملانة وثلاثة فارغة وواحد على النصف وللثاني ثلاثة ملأنة وثلاثة فارغة وواحد على النصف

وللثالث واحد مملو وواحد فارغ وخمسة على النصف ففي هذه الطريقة ايضًا اخذ كل منهم الثلث في كل من المظروف والظروف

ثم لاجل حل كل ما يشبه هذه المسألة يلزم ان يكون خارج قسمة عدد البراميل على عدد الاشخاص عدداً صحيحاً فلو لم يكن كذلك لم تتات القسمة كما لو طلب تقسيم واحد وعشرين برميلا على اربعة فهذا لا يمكن بخلاف تقسيم اربعة وعشرين برميلا على اربعة فلا شك في امكانه فان خارج القسمة ستة فالذي يلزم هو تحليل خارج القسمة الى اجزاء صحيحة بقدر عدد الاشخاص ففي هذا المثال الاجزاء التي يتحلل اليها ستة هي ٢ ٢ وواحد وواحد ولا يكون غير ذلك فعلى هذا يعطى للاول اثنان مملوأن واثنان فارغان وواحد على النصف وواحد على النصف

وللثالث واحد مملوء وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف

وللرابع واحد مملو وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف فلو فرضناها سبعة وعشرين برميلا ثلثها مملوء وثلثها على النصف وثلثها فارغ واريد تقسيمها على ثلاثة فالقسمة ممكنة لان خارج القسمة تسعة ولها ثلاث كيفيات

الاولى يعطى لكل منهم تسعة براميل كل ثلاثة من نوع

الثانية يعطى للاول واحد مملوء وواحد فارغ وسبعة على النصف

وللثاني اربعة مملوءة واربعة فارغة وواحد على النصف

وللثالث اربعة مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف فياخذ بهذه الطريقة كل واحد تسعة

والكيفية الثالثة ان يعطى للاول اثنان مملوأن واثنان فارغان وخمسة على النصف

وللثاني ثلاثة مملوة وثلاثة فارغة وثلاثة على النصف

وللثالث ٤ مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف

وفي هذه المسائل وما يشبهها كتب طويلة وجدت منها كتاباً مع احد اصحابي المراكيبة الذين كنت اجتمع بهم عند الفراغ من الشغل فكان يغنيني عن مفاكهة الانيس ومحادثة الجليس وقد حفظت منها اشياء كثيرة وان شاء الله في وقت غير هذا نتكلم فيما يحضرني منها فاني جئت الان مرسولا من قبل الخواجا لاعلمكم انه ينتظر حضرتكم حيث تكون الساعة ١٠ افرنجية وها انا متوجه نحو المدينة لقضاء بعض اشغال امرني بها

*

المسامرة السادسة والتسعون

التدين

ثم استأذن الشيخ وتوجه فجالس الشيخ مع ولده برهة ثم نظر في الساعة فوجد الوقت قد أزف فقام متوجهاً اليه ومعه ولده فلما دخلا عليه قام لهما واجلسهما وآنسهما ثم قال للشيخ ان رئيس الجمعية ارسل لي تذكرة يسلم فيها على حضرتكم ويخبرني انه في انتظارنا جميعاً في الساعة المعينة بيننا وبينه ويقول ان من شأن الكرام اذا وعدوا وفوا بوعدهم وقد بقي من الوقت ثلاث ساعات فلما علم ابن الشيخ امتداد الوقت استأذن والده في الذهاب مع يعقوب فاذن له فقال ابن الشيخ ليعقوب الى اين تريد فقال ان حضرة الخواجا اشترى بالامس نظارة معظمة من احد المخازن وكان بها بعض نقص فامر صاحبها باتمامه وقد اعطاني ثمنها لاحضرها له

فقال ابن الشيخ اتذكر حين كنا بالمركب وحضرة الخواجا بذكر لنا بعض كلمات تتعلق بالنظارات وكان قد وعد ان يشرحها لنا اذا وصلنا الى باريس فعسى ان يكون مشتراها لانجاز ما وعد فقال يعقوب ربما كان كذلك ولكنه لم يخبرني عن شي

وبينا هما سائران اذا باناس كثيرين يدخلون كنيسة وعلى بابها عربات كثيرة وخدم وكلهم في زي غير معتاد وعلى ابواب الكنيسة عساكر بملابس رسمية وجميع آلات الموسيقى تضرب فسأل ابن الشيخ يعقوب فقال له هذا معبد النصارى الذي يتعبدون فيه فقال وما المناسبة بين محل العبادة الدينية والملاهي الدنيوية

فقال يعقوب الباريزيون دأبهم الحظوظ النفسية فلا يفارقونها سواء كانوا في المعابد او التياترات او غيرها فتجد في كل منهما ما في الثاني من الحظوظ ولا فرق بينهما الاّ بكثرة ما يوقد في الكنيسة من الشموع وما يحرق فيها من البخور ولكثرة النساء والشبان وميلهم الى الاصوات الحسان لا يكون للقسيس شهرة بينهم الا بحسن الملابس ونضارة الزي وكثرة الوشي وما اشبه ذلك

فقال ابن الشيخ لو دخلنا لعلمنا حقيقة الحال

فقال يعقوب لا باس في دخولنا فدخلا فوجدا ازدحامًا عظيمًا من رجال ونساء ولكل هيئاة مخصوصة به وقت عبادته فترى الرجال وقوفًا روسهم مكشوفة والنساء جاثيات على ركبهن وبايديهن كتب صغيرة منقوشة وعلى جلودها رسوم بماء المذهب

والمحبين وعلى النساء والرجال افخر الملابس واما القسيسون فلا يراهم الداخل الا على بعد وكانت ملابسهم اذ ذاك مكللة بالذهب ومزركشة بالقصب ومزينة برسوم يقضى لها بالعجب وكان كبيرهم يتكلم بصوت عال رخيم كانه خطيب على مرتفع عظيم الاّ ان ابن الشيخ لم يعرف كيفية هذه العبادة لانه لم يسبق له في هذا الامر عادة فعجب كل العجب وطرب مما رآه غاية الطرب سيما واصوات الآلات والالحان كانت تختلط باصوات القسيسين فسأل يعقوب عما يقوله القسيس وعن اللسان الذي يتكلم به فقال يعقوب اما قوله ففي الامور الدينية مثل الصلوات والادعية واما لسانه فاللاتيني

فقال ابن الشيخ اذًا لا علم للحاضرين بما يقول فقال نعم ولكنها رسوم يؤدونها واوصيك ان تكتفي الان بالنظر والمشاهدة

وكان ابن الشيخ وقت دخوله لم ينزع عمامته فرآه احد الخدم فامره بان يكشف راسه ففعل ولم يتوقف ولكنه عجب من اعتنائهم بكشف الرؤس مع عدم خلعهم النعال ورأى كلابًا كثيرة مع اربابها داخل المعبد ولا انكار على احد من احد فزاد عجبه من ذلك ورأى جميع حائط الكنيسة من الداخل مكسوا بالجوخ الاسود والشموع موقودة في جميع اماكنها ثم التفت ابن الشيخ فراى ميتًا قد حضروا به وقدامه عدد كثير من القسيسين والرهبان لابسين الملابس الرسمية فوضعوه وجعلوا يطوفون حوله

ثم اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا من الكنيسة وقد رأى يعقوب ان ابن الشيخ تأثر من تلك المناظر فسأله عن السبب فقال يسوءني ان ارى المعابد على غير ما وضعت له فانظر الى مساجدنا وقارن بيننا فيها وبين الافرنج في كنائسهم تجد فرقا عظيماً فان اجتماع المسلمين في المساجد عندنا ان كان للصلاة على الجنازة لم يفعلوا الأ ما يعود نفعه على الميت من الصلاة عليه والاستغفار له سواء كان الميت غنيًا او فقيرًا صغيرًا او كبيرًا وان كان لاداء فريضة كانوا على غاية من الخضوع والخشوع ولذلك يطلب من الانسان قبل شروعه في الصلاة طهارة بدنه وثوبه والتوجه الى ربه بقالبه وقلبه والتخلي عن الاخلاق الردية والتحلي بالاخلاق المرضية

فقال يعقوب قد كان امر الدين قبل الان بعدة قرون عند جميع الامم من اهم الامور وكانت اماكن العبادة اكثر احتراماً واعتبارا من جميع الاماكن وبعض من يجهل سر ذلك يزعم ان الاديان انما كانت معظمة في الزمن السابق لجهل الامم اذ ذاك بحال امر الديانة ويقول ان رقاب الخلق كانت بايدي القسيسين يتصرفون فيها تصرف السادات في عبيدهم واما الان فقد استغنى الناس عن ذلك لعلمهم بثمرات التمدن وصار كل انسان في غنية عنهم ويمكنه الاهتداء بنفسه الى ما فيه صلاح له وليس احد ملزما باتباع دين دون اخر فله اختيار اي دين شاء وله ان لا يتدين بدين

اصلا فمن هذا وامثاله تغيرت عقيدة الناس فصار حال اغلب بقاع اوروبا كما ترى من قلة التدين

وحال الكنيسة في الموتى يختلف باختلاف الناس فالغني تعقد له محافل مثل ما رأيت وذلك على حسب ما يصرف من النقود

واما الفقير فربما لا يفعل له شي من ذلك اصلا ومع ذلك فلو تاملت جميع هولاء الناس بعد خروجهم من الكنيسة وتفقدت احوالهم لوجدتها مخالفة لامور الديانة بالكلية فان البنت تقول لامها مثلا فلانة كانت في زي كذا وفلانة في زي كذا او فلانة اجادت الغناء اكثر من فلانة وكسوة سيدي القسيس كانت كذا وكذا ورأيت سيدي القسيس فلانا يتكلم مع فلانة سرا او علانية وهلم جرًا ولا تكاد تسمع في ذلك اليوم الا الكلام في قدر ما احرق من الشموع والبخور وكسوة الكنيسة وما اعطي للقسس وما زخرفت به خشبة الميت ومن مشى خلفه او امامه من الاعيان والامراء ونحو ذلك وقل ان تسمع احدًا يذكر اسم من قبضت روحه او من قبضها واذا سمع ذلك لا يكون الا من امرأة عجوز منهم

ولما وصلوا الى الحانوت الذي قصده يعقوب تلقاهما صاحب الحانوت وامر لهما بكرسيين واجلسهما ثم قال ان الصندوق قد تم من مدة وكنت عازما على ارساله لحضرة الخواجا لظني انك لا تتاخر عن الميعاد الا لعذر

فقال يعقوب انه بعثني في الوقت الذي عينته له وانما تأخرت لان ابن الشيخ رأى في طريقنا جنازة فاحب ان يدخل الكنيسة ليعرف العوائد الجارية هنا في الجنازات فمكثنا بها حتى علم عوائدهم في موتاهم فهذا هو الذي اخرني عن الحضور في الوقت المعين

فقال صاحب الحانوت اظن ان القسيسين احتفلوا بهذه الجنازة فاني سمعت انه صرف للكنيسة نحو ثلاثين الف فرنك وانه اجتمع في الجنازة جم غفير وكنت تهيأت للذهاب لانظر ما هناك فمنعني مانع وهو اني كنت في جهة سراي الملك ثم قال وماذا قال صاحبك المصري فيما رأى وهل تشييع الجنازات في بلده كما رآه في بلادنا ففهم ابن الشيخ كلامه ولكنه هاب ان يكلمه باللغة الفرنساوية خوفًا من العثرة فيها

فقال ليعقوب بالعربية قل له ان عوائد المسلمين في ذلك ليست كعوائدكم فان المسلمين اذا مات منهم احد وكان مشهورا بشيء من مناقب الصالحين لا يلتفت لماله بل يجتمع لجنازته كل من سمع بموته وان لم يكن من اهله ولا من ذوي قرابته فاعتبار الميت عندنا وعدم اعتباره بعد مماته تابع لما كان يعمله من خير او شر في حياته فان كان كثير الاحسان سليم القلب طاهر اللسان متعودا على فعل الخير دائم السعي في نفع الغير محبا للمساكين والفقراء مؤديا ما اوجبه الله عليه في السراء والضراء حزن لموته

الاجانب ورثوه اكثر من اقاربه الذين ورثوه وان كان بخلاف
ذلك في حياته لاقى ما يسوءه ويسوء اقاربه بعد وفاته فقد يكون
الشخص عندنا فقير الحال لا وارث له ولا مال ويجتمع في جنازته
من الرجال والنساء ما يضيق عنه الفضا ويصلون عليه ويمشون
خلفه وبين يديه يستغفرون له ويعددون محاسنه الى ان يدفنوه
فاذا فرغوا من دفنه عزوا اقاربه ان كان له اقارب والا عزّى
بعضهم بعضاً ثم يرجعون الى منزل الميت ان كان له منزل يليق
بالعزاء والا فالى محل يليق به ويبذل اهل الثروة والمروءة ما في
وسعهم من الخدمة ورفع الكلف عن اقارب الميت ويعملون له
الختمات والسبح ونحو ذلك من العوائد التي يعود نفعها على الميت
كاطعام الطعام وغير ذلك الى ثلاثة ايام او اكثر على حسب
فضائل الميت قلة وكثرة كل ذلك واقارب الميت لا شغل لهم الا
مقابلة الواردين وتشييع الصادرين واما اذا كان الميت بخلاف
ذلك فلا يعبأ احد بجنازته ولا يعلم كيف ولا متى صار الى حفرته
ولو كان غنيا متمولا ذا ثروة وعلى كل حال لا يجب في تركة الميت
ولا على ورثته سوى غسله وتكفينه والصلاة عليه ومواراته في تربته
الاّ ان كان اوصى في حياته ببعض خيرات تعمل له بعد مماته

ومن الاحكام الدينية انه اذا مات الميت منا وخلف ولداً
قاصراً او حملا في بطن امه حرم علينا استعمال شيء من مخلفاته ولو
فرشا او آنية حتى شرب الماء الى ان نقسم التركة وتبين الانصباء

وهنا وقف ابن الشيخ عن الكلام فترجم يعقوب مقاله ثم قال لصاحب الخان ان الخواجا في انتظارنا فهات الصندوق فناوله اياه فانصرفا به يجدان في السير الى ان وصلا فوجدا الشيخ وصاحبه في انتظارهما فقال الخواجا ليعقوب ما اخرك الى هذا الوقت واخذ يلومه ويعنفه واراه خلقا لم يكن من قبل فيه نعرفه وكان من عادة يعقوب ان لا يكتم عنهم شيئًا من خبره فذكر لهم ما كان من امر الكنيسة ورغبة ابن الشيخ في دخولها فكف عن لومه ثم التفت الى ابن الشيخ فرأى على وجهه علامات الخجل فقال لا بأس عليكما حيث كان في تاخركما فائدة

(انتهى الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الثالث
من كتاب
علم الدين

---

*